BOBST LIBRARY
3 1142 03292 6597

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Wed Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

PHONE/WEB RENEWAL DUE DATE

NYU Repro:159185

Elmer Holmes Bobst Library New York University

6619
x 13
55

Karam, Karam Milḥim

كرم ملحم كرم

Abū Jaʿfar al-Manṣūr

أبو جعفر المنصور

قصة وتاريخ

•

S. MNRII. XTI. REGIS. DE TIOUMLILINE. AZROU.

منشورات الجبل الأخضر * بيروت * لبنان

MAR 21 1985

PJ
7842
.A68
A64
1954
c.1

DS
238
.M35
K362
1954

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

سنة ١٩٥٤

الجزء الاول

طوفان من دم

١

ـ يا حفدة كسرى ، وسلائل « يزدجرد »، هبّوا . طال عهد الضيم. فالعرب داسوا نواصيكم ، واثخنوا فيكم . فاقصوا عنكم المستعبدين الطغاة ، وما فطمتكم امهاتكم على منقصة وذل !

والصيحة الغضبى علت في « مرو » ،عاصمة «خراسان» ،في الشمال الشرقي من بلاد الفرس . ومطلقها شيخ اخضر العمامة ، اسمر ، اشمط ، مستطيل الوجه ، شرس النظرة ، عريض الجبين . يلفّه جلباب اسود ،خشن النسيج. ولقي حوله المئات من المؤيدين يزمجرون بصخب فائر النقمة، متطاير الفحيح: لبيك ، يا عثمان بن سدوس ، لبيك !

وغلا فيهم الحنق اللهوم . وتلأت عيونهم كرهاً وحقداً ، جنوحاً الى تحطيم القيود المضروبة على السواعد والارجل ، والى خلع الانيار المشدودة على الرقاب . ولم يبق فيهم الا من يقصف كالرعد : يا لثارات كسرى ويزدجرد ! ... عاش الفرس احراراً ! ... الموت للظالمين !

وما استوضحوا عثمان بن سدوس بن جردزده الحافز الى غضبته، وهم

يعرفون من امرها ما لا يهيب بهم الى استطلاع. فالعرب ساموهم من ضروب الهوان ما يئنون تحت وقعه انين المقهور، المنهوك. فليس لهم، تحت سمائهم، ان يتقدموا عربياً في خطوة، وله الطليعة. ولا ان يمتطوا على مرأى منه جواداً، والا انزلهم عنه. ولا ان يتزوجوا عربية، وهم، في عرفه، دونها عرقاً. ولا ان يحضروا مجلساً من مجالسه، الا وقوفاً، وله الصدر. وان يكن يحمل بيده حاجة، فله ان يسخّر، في حملها، من يمرّ بطريقه من الفرس. واذا تنكب الفارسي الانكد عن التلبية، فالجلد نصيبه، والسجن مأواه. وقد يحصد عنقه السيف، فيزجيه بخس الثمن الى حفرة المنون

وضجّ الفرس، وهم يكتوون بالحيف. نشأوا كراماً اعزّة. وبنوا الممالك. وتبسطوا في الفتوح. فما لهذا الحكم العربي اليافع يزيلهم عن نعمائهم، ويرضّ شوكتهم، ويضرب عليهم الاستكانة، فلا يبيح لهم اطلاق نبسة، ولا يهاودهم في مظلمة، ولا يرنو اليهم ببارقة من رفق ؟

ومشت «مرو» في ركاب عثمان بن سدوس، المتجرىء على رفع عقيرته، تشاطره صرخة الاضطغان. فالصدور ضاقت بنوازيها. واربدّ الجو، وقد طغت عليه النفرة من العسف، وتأجج بصيحات: عاش الفرس احراراً. فإما المساواة، وإما الفتنة !

غير ان المساواة لن يدركوها، وما زال الفاتح العربي يجد نفسه فيهم سيداً، وقد دوّخهم بمضاء حسامه. فلم ينشر عليهم سلطانه الا بعد كابس الجهد. فاغار عليهم في القادسية بخيله ورجله، وما تمكن منهم الا وكلومه الدوامي تشيع في صدره المنتفخ عزماً، وفي ساعديه المجدولين

ولهذه الضلاعة جزيل البدل. فيأبى عليها العرب، الرهاف الاسنة، ان

تذهب ذرارة ممحوّة. فقسوا على الفرس الصلاب الشكائم، واخضعوهم قسراً لدينهم، وفرضوا عليهم الطاعة. ومن زاغ منهم عن المحجة، فالسيف يكبح فيه صولة العرام

وعثمان بن سدوس بن جردزده لم يجهل انه يلعب بدمه، وبدم اخوانه في دعوته الى الفتنة. فالنصلة المسنونة تترصد. ولكن الاحراج مال به الى خلع كل احتراس، وقد طال مدى القهر، وجرع الفرس المهانة من اكواب طفاح. وما ثارت في الكهل المعتمّ حفائظه، الا واللطمة تنزل به، فتدحرج عمامته الخضراء عن رأسه، فتسقط في الوحل. فالتقطها وهو يشتم. ونفض منها الطين، وحدته تتلظى. واقسم بالله وبملائكته لينتقمن من الضارب، وان يكن سيداً ابن سادة

وضاربه حبيب بن عبدالله القسري، العربي النشأة والعرق، شقيق اسد القسري، عامل الامويين في «مرو»، قاعدة خراسان، بل احدى القاعدتين، «ونيسابور» ما تنفك ترفع اللواء

وحبيب دعا الفارسي، ذا العمامة الخضراء، الى رفع كيس من التبن على عاتقه، لجواد القسري الادهم. فزفر عثمان بن سدوس متألماً، مغتاظاً، وقال: ألم تجد سواي للمهمة، وانا من ارباب الكرامة في قومي، وبلدتي اصبهان، لا «مرو»، ولست في القوم غير نزيل، والداء في كبدي خصيب المرعى ?... ألا تلطف وكلف بعض الدهماء القيام بما تهيب بي اليه. واذا كنت لا تهتدي الى احدهم، فسأجيئك بمن يكفيك المشقة!

ولكن حبيباً لم يتمالك عن اطلاق السبة. فقذفه الفارسي ببعض من شظاياها، فاذا اللطمة تصيب المتجاسر على صون عرضه من الشين. فصرخ

عثمان بن سدوس ببني أمه ،حفدة كسرى وسلائل « يزدجرد » ،ان هبوا . فتواثبت جموعهم عباباً موّاراً في زوبعة رعنـــاء . واتقى حبيب المصادمة الخطرة ، فانساب ،بحذر المتقي ،الى اخيه الثاوي بديوان الحكم ،يقص عليه نبأ البادرة . فاحتدم أسد وزأر : هل استطال الوغد ؟ . . .ألا ليغرقنّ في دمه عقاب اعتزازه بنفسه ، وهو العبد !

وصاح بجنده : اخلعوا الذي بين كتفيه ، وما ترأفوا حتى بابن يوم من الانغال . فالموت للعصاة !

ورمى بهم الجمع الملتهب شغباً . ولمعت النصال في الاكف الصلاب . وكانت نشوة الدم . فالثـائرون وثبوا على الجنـد بسواعدهم وصدورهم ، يبيحون ارواحهم لفتكات الاسنة ، صارخين : «عاش الفرس احراراً ! » . وامسكوا بالبواتر الهاوية عليهم شادخة ، فالقة ، ينتزعونها من ايدي من يضربونهم بها ، ويبسمون للموت الحاصد المخلب ، اللهوم الناب

وما ان تستقر الشفار بايديهم ،حتى يرووها من نجيع اولئك المسترخصين نحر الاكباد ، كأن الارواح لديهم يوانع ، حان قطافهـا . وما تهاونت العصي في اظهار سطوتها ، وقد فرعت هامات الجند . وما انفكت الصيحات تتصاعد زاخرة بوهج الايمان : عاش الفرس احراراً !

وبطش حماة النظام ، بطش الشراة الجياع ، بهؤلاء المتساقطين وقوداً للفتنة المرتجلة ، والاعجاب بالحماسة المستفيضة الشرر يملأ العين والقلب ، ويميل باهل الرأي الى الخشية من اندلاع ثورة منظمة ، لا تبقي على عود رطيب ، ولا على صولة متراميه . فما الشعب الجيّاش سوى حجة المظلوم على الظالم ، وعنوان حزازات تكتوي بها القلوب ، وقد غلت نارها ، وسوف يكون

لها انفجار بعيد الجماح ، موجع الصدى . فالتربة الخصبة حافلة ببذور العداء وتغلب الجند على العصاة ، ولكن بعد عنيف الصراع ، وكأن الغلبة من نصيب هؤلاء النافرين من الجور الناتىء الاظفار ، وقد وهبوا انفاسهم للمنايا هبة المساميح ، يذودون بها عن نصاعة الانفة ، وكرم العرق. وجيء بعثمان بن سدوس بن جردزده الى اسد القسري كتلة حمراء ، يسيل الدم من رأسها ، وخدها ، وعنقها ، وكتفها ، وصدرها ، ويمينها ، كأن لم تبق فيها ناحية سليمة من قضم اضراس النصـــال . وبدا عثمان جاسراً ، وقد تقاذفت الاسنة عمامته الخضراء. على ان هذا السخي بدمه على المواضي تبرّد به لظاها ، ما طمان هامته في حضرة وليّ الامر ، ولا رهب التبعة ، بل وقف بين يدي اسد ، كالاسد . ضاريان يتجاولان. غير ان الكفاءة بينهما مفقودة ، والقسري مسنون الشباة ، وابن جردزده مفلول الحد ، مكسور الساعد ، الا انه ممتلىء النفس بالايمان بحق امته بالعيش الطلق

وسدد الى القسري عينين مشتعلتين ، ونبر : يؤلمني ان نعبد رباً واحداً ، وان نظل دونكم وزناً . جارينا كم في العقيدة ، فجودوا علينا بمدى النفَس ، ولا تقهروا فينا الحمية المرضوضة. فاذا شئتم ان تسودوا ، فساووا بين الذئب والنعجة ، والا ففي القطيع ، وخلت الحظيرة . هلا تعلمتم سياسة الناس ؟

فهالت اللهجة اسداً . الا في اي مزمار ينفخ هذا المتطاول على السادة ؟... بيد ان القسري ما ندّ عنه صدق البيان . هل لمن يقومون على أس واحد ان يتنابذوا ، فينهار البنـاء ؟ . . . ولكنـــه الحرص على الاثرة . وهذا الحرص اهاب باسد الى الانتثار زمجرة مدمرة ، زاعقاً : أتستطيل ، ايها الاغلف القلب ، على ولاتك ، وانت فيهم هباءة ؟... ما انتم سوى

عبدانا ، وقد ضربنا في اعناقكم المطاول نجرّكم بها في خدمتنا صاغرين، ممتهنين . فما بكم ترفعون رؤوساً لا تتحرك بسوى مشيئتنا ؟ . . . والله ، انكم لمن الزراية لدينا بما يرجحكم فيه الغبار ،وهو قذى في العين، واني فحصنا عنكم فلا نهتدي !

فاعلن عثمان بن سدوس بن جردزده بسخر : الا ما يحملكم أذاً على الثواء بمغانينا ، وانتم لا تبصروننا ؟ ... فارحلوا كراماً ، عافاكم الله !

فهدر اسد كالاعصار الكاسح : اقتلوه ، لا ابا لابيه . أيتجبر علينا الزعنفة ،ونحن ارباب نعمته ؟ ...لا ترحموا فيه جارحة !

فما خبا وهج السخر في ابن سدوس .قال وجراحه لايسكن نزفها :وماذا رحمتم فينا ، يا اسد ؟ ... اتبعوا الدلو الرشاء .بل ماذا رحمتم في عثمان بن سدوس ، وما ابقيتم فيه على عرق لا يسيل دماً ؟ ... اني لشاكر حسن الصنيع بانقاذكم اياي من آلامي . مع ان لي في اصبهان ، بلدي ، طفلاً ابن سنة ما يزال بحاجة الى حنوي . ولكن لا بأس ، اقتلوني. ما هذه جريرتكم الاولى ، ولا الاخيرة . على ان الضحايا البريئة لن تجفّ دعواتها عليكم بالانقراض . ليس لعهد يتوطد على الجماجم قرار . ستنهدم بكم آرائك العز ، يا اسد . فلا سلمتم من العثار !

فلم يكن من القسري الا ان انتصب على قدميه سخطاً ونفرة، وجلجل: ألا خذها ، يا ابن الفاعلة ، تشفيك من لؤمك وكيدك !

وبراه كالعود بسيفه القاطع الصقيل . فانهار ابن سدوس كغصن بتره المنجل ، فملأ الارض بهيكله ، وصبغها بنجيعه . وتدحرج رأسه في صدر الديوان ، وفي حنجرته قرقرة ، كأنه ما يزال يعيش .وصهل اسد كالجواد

الظـافر في الشوط : لا تعفوا فيهم حتى عن الوليد . كل من تقبضون عليه مباح لسيوفكم . فاملأوا جادات « مرو » وازقتها بالجثث ، وسدوا عليها السبل باجساد بنيها الخوارج . فما لفم فيها ان يتنفس ان لم نجز له ترجيع الانفـاس . وما للارذال ان يدرجوا في شعاب البقـاء . اقتلوهم ودمهم في عنقي !

وعاد يطلقهم اغاراً جائعة تفترس ، ولا تشبع . ونامت ، في تلك الليلة الدهماء ، مدينة « مرو » على نعش . فالفواجع تراصّت عليها معاهدة على طحنها ، وقد ضاقت شوارعها ومناهجها بقتلاها . فكل منزل ارتدى ثوب الحداد . غير ان الدموع نضبت في المآقي . فما سحّت تبدي اللوعة ، وقد جففها الحقد . فالشهوة في الانتقام امسكت بالخناجر عن الانتحاب

وما طأطأ حفدة كسرى رؤوسهم . فالدم خالق البطولة . والاستشهاد حياة . وما لرأس ينفصل عن منكبيه ظلماً ان يفسح في سؤدد طويل ، وهو عقبة دون الانتعاش . وطاف في ابناء « مرو » من يدعو الى حشد خفي ، يتبادل فيه المنكوبون الرأي . والمنكوبون اسرة تجمعها المصيبة . ومع انتشار الجند في المدينة ، مبثوث العيون على رفاق الجهـاد ، انسلّ الاخوان الى دهليز تنيره شمعة لم تبدد عنهم العتمة ، الا انها مهدت لهم الى اخيلتهم يتبينونها على الضوء الضئيل

وقام خطباؤهم يعددون من فقدوا ، ويحضون على ثورة جامعة . فليس لمن قام فيهم قورش ، وقمبيز ، و كسرى ، ان يستعبدهم قوم دونهم حضارة ومجداً . فما يتفوّق عليهم العرب في سوى الدين ، وقد حملوه اليهم مضمّخاً باعراف مكة والمدينة

وتحدثوا ، وهم الشيعة ، بموقفهم من الامويين المتنكرين للامام علي .
وتجلى لهم انهم لا يطيقون ظل هذه الدولة القائمة في دمشق ، لمؤسسها معاوية ، وقد تعاقب عليها حفدته وابناء اعمامه . فهي تكرههم ، وهم لا يسبحون بحمدها . ولقد لمسوا فيها ازراءها بهم ، وما زالوا يسمعون هشام بن عبد الملك ، احد اثمتها ، يتوعد شاعرهم اسماعيل بن يسار لما تغنى على مسمعه بمفاخر الفرس . وانى تصفو سرائرهم لاعداء يذلونهم ، ويغتصبونهم الجاه والعزة ؟

ونادوا بنصرة العلويين . فهم لمن اندغموا فيهم من ابناء البيت . وما تشيّعوا للامام علي الا كرهاً لراكبي السدة . فسرّهم ان يحتدم الشقاق في الوكر ، وان ينقسم الى شطرين ، وفي الانقسام نصر لهم مبين ، يعيد اليهم السؤدد من طرفيه

ودعوا في مجلسهم ، المتبطن الثرى ، الى بعث الخلافة في حفدة ابي الحسن . فترجح بها كفتهم . وتهب ريحهم فتقوم دولتهم . ويـذوي طالع الامويين ، فيهون العرب ، ويشتد ناصر الفرس . وقد تبيت الخلافة فيهم . وتتوطد سيادتهم في هؤلاء الواثبين اليهم من البادية يتحكمون في مصيرهم . وما كانوا لهم ، في عهد الاكاسرة ، غير اتباع

وذكروا ابا هاشم ، رأس الاسرة العلوية بعد محمد بن الحنفية ، ابيه . ولكن ابا هاشم مات بالسم ، وقد دسه له سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي . وتوافر له ، قبل ان يجود بانفاسه ، ان يعهد في الامامة الى علي بن عبد الله بن عباس ، وقد عرّج عليه في الحميمة ، بجوار الاردن . وما عليهم اذا عضدوا حفدة العباس ، عم النبي ، وهم من اعدى اعداء الامويين الناعمين

بالامر والنهي في متنائي الاصقاع؟

وأجمعوا على مفاوضة السيد العباسي ، المقيم بالحميمة ،بامر العصيان ، وثل العرش الاموي . فما دام ابن عباس ولي امرهم، فليكن قائدهم الى الانتقام. وصرخوا من قلوب تشتعل بالسخيمة ، وبالرغبة في التحرر من الطغيان : لا إمام الا علي . ولا خلافة في سوى ذراريه !

واختاروا منهم اثني عشر نقيباً يجتازون المدن والفلوات الى ابن عباس، سجين الحميمة، ويعالنونه بالطاعة، ويعرضون عليه امرهم. فالقوم في خراسان، على أهبة لاضرام اللهب في الحطبة النخرة. فهل له ان يؤيدهم في المرتجى؟

وارتاحوا الى اثارة العرب على العرب. فيتشتت الشمل، ويهون الاخذ بالثأر. نار يأكل بعضها بعضاً، فتفنى، والفرس يساعدونها على التهام كبدها، فتجهز على نفسها بنفسها

وما اهملوا امر عثمان بن سدوس بن جردزده. فالرجل من كرامهم، وقد مهد لهم الى الظهور شوساً، مساعير. قالوا: انه لمن نسل بزرجمهر، الوزير المفضّل. وعلينا ان نحتفل بذكراه سيداً اصيد، وما نزال نعيش بتراث الجدود. فلقد نفى عنا، باستبساله، العار والضعة. ولنلتفت الى اسرته، فنرفع من شأنها، ولم يبق لها بعده سند تتكل عليه!

ودفعوا الى اصبهان وفداً من خيارهم، يحمل الى اهل الفقيد البارّ الذهب والكسوة. واصبهان درت بما وقع في «مرو». وعلمت ان فتاها الشهيد عثمان بن سدوس اوقد الشعلة. فرضيت عن المأثرة الطيبة الفوح. ونفرت الى دار من اسبغ عليها منّة الحمية تتبرك بسمو المزار، وهو الطامي المبرات، وقد كتب للفرس صفحات، لا تبلى، من عريض الفخار

وما استشهد عثمان عن ثروة من نشب ونضار ، وكان يعيش من تعب يمينه ، واقفاً ايامه على التدريس . الا انه مات عن سمعة طيبة . فصان الاحدوثة النقية من شوائب السوء . ولم ينجب غير ابرهيم ، الطفل المدرج في الاقمطة ، وما يعدو السنة الاولى من العمر

واصغت الارملة المفجوعة الى التعازي، تؤدى اليها بسخاء وصدق لوعة. ووعدت ان تسدد خطو ابنها ، بما يستبقي مكانة البيت الوطيد الركن في السماحة والرفعة. ومانعت في ان تتقاضى المال ، معلنة بأباء: عثمان بن سدوس ، رحمات الله عليه ، نزّه كفه عن مال لم يستدرّه وكده. واني لناهجة نهجه. فلن ارتضي عطية لست بها على حق !

قال بكير بن ماهان ، وهو اوفرهم ذخراً ، واكرمهم وجهاً : ولكن عثمان جاد علينا بكل ما عنده . ومهما افضنا به من بذل ، فلن نعدل اريحيته. فاقبلي منا بعض ما له علينا ، وكل ما تنفحك به لا يفي مثقـالاً من ذرة مما اسبغ علينا السيد الفادي !

فما التوى فيها إباؤها وقد جهرت بالقول الحميّ : عثمان بن سدوس منح دمه وطنه ، يتحامى الاجر . وعلى ارملته ان تجاريه في الفدية الغالية. عاش الفرس احراراً!

فسرت في عروقهم رعشة الاجلال. ما في دار ابن سدوس ، حفيد بزرجمهر ، غير نبل وحفاظ . الا ان بكير بن ماهان ، وهو الملمّ بحالة سدوس في ضيق معاشه ، القى صرة الدنانير في مهد الطفل ، وخاطب الام المنيفة الطبع بقولة مخضبة بالاكبار: اننـا لنجلّ فيك عفة اليد والخلق . على اننـا نلتفت الى هذا الطفل ، وهو من سلالة اميرنا المعظم بزرجمهر ،

619

X13
55

Karam Mulḥim Karam

ʾAbū Jaʿafara al-Manṣūr

Abou Jaafara al-Mansour

Beyrouth Imprimerie du Sader

1954 353 14,5 X 22

ونقرضه المبلغ ديناً مفروض الاداء، ريثما يكبر. وانا لموقنون انه سيعيده الينا عزاً وسؤدداً، مما يصبو اليه الفرس المجهودون في هذا العهد الهصور، الغدور. عاش الفرس احراراً!

وبات الهتاف بحرية الفرس لازمة ترددها ألسنتهم. وكل ما باتوا يطمعون فيه ان يتحرروا من كاسف الرقّ. ورنت الام الى طفلها الشادي في عشه، وعينها تسكب دمعة تكاد تتبخّر لفرط جيشان الالم. ورددت الهتاف بحياة بني قومها، وقالت: وددت ان يعيش هذا الصغير ليأخذ بثار وطنه المحزون، وابيه الشهيد!

فاعلن بكير بن ماهان: ساتعهده برعايتي. نحن بحاجة الى امثاله. فالفرس لن ينهضوا بسوى قيادة من يختلج فيهم هذا الدم الشريف، الطهور!

ودعا الام الى العطاء من يدها، ومن بالها، في التوفر على انماء الوليد، وقال: وعليّ تربيته. سينشأ كأنه في بلاط ملوك. وكل ما عليه ان يتخلّق باخلاق الملوك، ليعيد الى بني قومه الجلال المفقود، والخطر المسلوب!

٢

هذا المنفيّ ، بامر الوليد بن عبد الملك، من مكة في الحجاز ، الى الحميمة في الشام ، بجوار الاردن ، الصلب الشكيمة ، البعيد المطمع ، ابدى مستطيل الرضى عن الشغب الواعد المتأجج في خراسان ، وهو السبيل الى الارب . وشاقه ان يعامل الامويون الفرس بالشدة ، فيستذئب السيف في حصدهم ، ويمتهنهم الولاة ، فتشتد الفتنة ، ويميد بالامويين عرش يمتطونه قسراً واقتداراً

وما يبتغي اسير الحميمة الا ان يشاهد بعينيه هذا العرش متقلقل الجانب ، منسوف الركن . وليس يطيق ان يرى في سدة ، وطد لها النبي ، قوماً كانوا حرباً على الموطد الباني ، وعترته اولى بالمقام المنيف . فان لم يكن الهاشميون ارباب الامر في الاسلام ، وقد انبثقت فيهم شعلته ، فمن لهذا التراث يستبقي جلاله ، ويصونه من كيد الجشعين الغاصبين ؟

وجلس علي بن عبد الله بن عباس الى ابنه محمد ، يبسط له الواقع الجليّ ، ويطلعه على نفاق السياسة ، وموازبة الدهر . قال بحرقة الشجي : نحن سادة هذه الدولة ، يا بنيّ ، لا اولئك القابضون عنوة على رسنها . ولكنهم احتالوا علينا ، وانتزعوها منا ، وساسوا الناس بالقسوة . وحزّ في روعي ان تستأسد المراوغة ، وان يحتضر الحق ، فقمت الى الطغيان اخضد شكيمته ، واطالب بالامامة فينا ، نحن اهل البيت ، ليقرّ الامر في جفنه .

غير ان الوليد درى بي فغمز عودي ،وطرحني في هذه الفيافي اجرع مرارة الوحشة . عيونه يرصدونني ،فلا يتسع لي الى شهوة . وظله ينتشر عليّ ،فلا يبيح لي سعياً . على ان الظلم مصرعاً ،وما كنا لنغفل عنه ،مع ما ننوء به من اعباء!

وتأوه اسير الحميمة . ليس يقوى على رؤية الغاصب يعتلي الامر في ربوع افتتحها الدين بسيفه ، ولمن تلألأ فيهم نبراس هذا الدين ان يرعوها . قال محمد الابن ، وهو يتمايل في غضارة الفتوّة ، وفي بحبوحة الفطانة : ألا ترانا نستعيد هذا الحق في الوشيك الحثيث ،يا ابتاه ؟

وعلي بن عبدالله بن عباس ، وقد تبين في ابنه سعة الذكاء ، والشوق الى اقتعاد الاريكة ، قال : سنستعيده ،يا محمد . فاني منكم لفي اثنين وعشرين ولداً من حملة الواضي . ولا بد ان ينشأ فيكم من يحرر الامامة الموثقة من عقالها ، ويعطي القوس باريها . واني لاجد في من استعبدناهم ، من الموالي ، وخصوصاً في الفرس ، اليد المسعفة ، والفورة الامينة . فنحرّضهم على التهديم ، ولن يتقهقروا عنا . فالامويون ساموهم ، من ضروب الخسف ، ما باتوا به يغلون حنقاً على المسكين بالازمة . وعلينا ان نجني من هذا الكره المتنمّر ما ينصرنا على العابثين !

فانتشى الابن المبسوط الافق باقوال ابيه . ان المجد الضائع عن مثواه ليميل به الى الجهاد في استعادته . ويروق الفرس ان ينغمس الفتى العباسي في النزال في ابتغاء حق اسرته ،وهو المفطور على الدهاء والاقدام . قال يخاطب اباه : أينتدبني والدي للمهمة ،فاذلل العسير ،وادرك المرتجى ؟... ارى الامر ميسوراً اذا بذلنا له من اهتمامنا . فليدعني ابي انطلق في بلوغ المرام !

فهتف علي : والله ، اني لاعقد لك لواء النضال ، يا محمد . فكن ابداً

بجانب العلويين والموالي ، والخلافة صائرة الينا ، وفينا مستقرها . جدي عمّ الرسول . وابي راوية احاديثه ، وشارح الآيات . وانا من وكل اليه ابو هاشم المضي في الذود عن الحوض المتهدم ، ونزل له عن حقه بالامامة . فالشيعة اذن معنا . وجميع من في العراق وفارس من الكومة . ولك ان تستند اليهم في المناوأة ، وهم في عوننا . فالامل يبشر بالنجح . فكن ذلك السديد العين ، الماضي الهمة . اذا سألك العلويون ،بنو عمنا : « على من ستسقط الخلافة ؟ » ،فقص عليهم حكاية ابي هاشم فينا . فاذا انتفضوا احردين ،فلا تشدد الاقناع بما تروي ، بل لاينهم ، ولاطفهم ، وعللهم بالمنى . ولا بأس ان توافقهم على كل ما يريدونك عليه . حتى اذا ما دنا موعد الحصاد ، كنت اسبقهم الى منجلك المسنون تنعم وحدك بالغلة !

وخطّ له النهج . فليتبين طريقه . وعلي بن عبدالله بن عباس انجب اثنين وعشرين ولداً من الذكور ، كما قال ، واحد عشر من الاناث . فكثرت ذريته . وتعاظم بها شأنه . فاذا ما ابطأ ولد من اولاده ،عن الهدف، لقي في اخيه مهمازاً يحثه على الطلبة الشائقة . ولا مذهب عن نضج الطبخة ، اذا ما تدار كها طهاتها بالوقود الوافي ، لا ينفرون عنها

واشرقت الحميمة بهذا النسل الوافر من ابناء عم النبي ، وقد كانت قفراً . فتوافد اليها الانسباء يشكون فيها الاجحاف . وارتادها المقهورون يفيضون فيها بالظلامة . وفي هذا الجو الخانق ، المكتوي بالخيبة ، انعقدت مجالس التنكيد ، وتنظمت دسائس التهديم . واجمعت على الاستظهار بالموالي الغضاب ، وهم حطب الثورة . ومع افراط هشام بن عبد الملك في اليقظة ، ومع قرب الحميمة من دمشق ، لم يشعر الخليفة الاموي المفتوح العين ، اللهبان

الحس ، بما كان يقع ، على ضفاف الاردن ، من مكايد تصبو الى تدويخ الامويين ، ومحو سلطانهم . فالحاقدون استعانوا على امرهم بالكتمان الصفيق

وابصرت الحميمة ، ذات يوم ، قطبين ضليعين من اقطاب الدعوة العلوية ، في بلاد فارس ، يزحفان اليها ، وفي النواظر عزم غلاّب ، وبين الضلوع غلّ يتحفز للانفجار . وسألا عن مقر علي بن عبدالله بن عباس فيها ، وقد تلفع كلاهما بعباءة سوداء ، واستدارت على هامته عمامة خضراء ، ليست بالضامرة ، ولا الفضفاضة

وانبسطت على الصدر لحية وخطها الشيب . الا انها غزيرة تحجب النحر . وغلبت السمرة الوجهين . واعتدلت القامتان . ودلت الاسارير على ان الزيارة ليست للاطمئنان الى السلامة ، بل لشأن ارفع ، كأن في الجبهتين مقالع لمداميك عرش يوم الاستعلاء

ووقفا بباب علي بن عباس يسلمان وينحنيان . فهما في دار ركن من اركان البيت . واعلنا انفسهما : بكير بن ماهان ، وسليمان بن كثير !

فوثب اليهما اسير الحميمة مرحباً ، فمصافحاً ، فمعانقاً . ليس يخفى عليه الاسمان ، والرجلان من زعماء فارس ، ومن النافخين في الضرم . بل هما وجه الفرس ، وما في دولة الاكاسرة ، الملتوية الساعد ، ابعد منهما همة ، ولا اكرم شأواً . وفسح لهما علي في صدر المكان . وافاضا بالشجن . فاذا النفس تدعو الى تقويض السلطان القائم . قال بكير بن ماهان : اصبحنا غرباء في ديارنا ، اذلاء في كراماتنا . كأننا ، مع نقاوة احسابنا ، من اللقطاء . والتقتيل فينا لا يحبو الى رفق ، وكلنا بات طعماً للشفار . وليس

لدى الامويين ، لذي الرفعة منا ، نزر من اجلال ، كأننا جميعاً من دنيء الصلصال . فاللطمة تنزل باسمانا محتداً ، كما تنزل باحقر الخلق. ومن اعترض منا استأصله السيف . وكم استأصل هذا السيف من بريء لم ترتفع له نبسة ، كأن اعناقنا سيقان نبات طالت وهانت على عقفة المناجل القاطعة . والى متى الاستكانة ، يا ابن العباس ؟ ... فهل للامويين ان يستندروا ، وانتم سادة الوكر ، ولا جنحتكم من رحابة المدى ما يحجب عنهم نور الشمس ؟

ومال الى التهشيم وما زال عند هدفه. لتتلاطم اسوار العرب ، وليزعزع بعضها بعضاً ، وليغنم الفرس اسنى عائدة . فالسؤدد لهم ، وقد تفانى العرب ، وقلوا . وزفر علي بن عباس ألماً . الا انه ارتاح سورة الى الضغن . قال : غلبونا بمكرهم . على اننا سننزل بهم من سمائهم مادمتم في نجدتنا . فالعنجهية قصيرة الامد. وللباطل بعض جولة . ولقد اتوا ، من ضروب العدوان ، ما كتب عليهم الانهيار . لنتساند ، ونحن قاهروهم . فلا ظفر لنا الا ونحن كتلة . والله مع الجماعة !

وقال ابنه محمد : وماذا اعددتم للكفاح ، يا ابن ماهان ؟

فاعلن بكير يكشف عن خططه : اعددنا لها تربة خراسان المستفحلة البغضاء ، المستمرة في الهياج . وبذرنا بذور العداء في العراق . والقوم في البلدين من الكارهين لبني امية ، القابضين ، في استهاننا ، على السوط والحسام . وفي « مرو » ، قاعدة خراسان ، اضطرمت النار ، وذهبت بالعديد الضخم منا . على اننا وهبنا لها الارواح ، بسماح . ونهدنا الى الانتقام . فاذا مشيتم في طليعتنا ، انتم اهل البيت ، ابصرتمونا وراءكم ألوفاً تلو ألوف ، حتى لنكاد نملأ البوادي ، كماة يتعطشون الى النزال !

ـ أتفعلون ، يا بكير ؟

ـ والله مثلثة ، يا سيدي وابن سيدي ، لنغزونّ دمشق ،ونبدد فيها معالم بني امية ، فلا نبقي منهم على ذرة من رماد !

وانتفض بكير بن ماهان بحدة مادت لها الدار، فبات كل من فيها يردد : الله اكبر ، الله اكبر !

واستطلع علي بن عباس امر والي خراسان ، اسد بن عبد الله القسري . فقال بكير : رجل غليظ ، لا يجيد غير الاجتثاث . فكل من مثل بين يديه منا ، كان لسيفه غمداً . فيشوقه محونا . ولكن خسىء الاسد العاوي . ان هو الا مخدوع . فما زال الفرس يذكرون أنهم مغبونون في هؤلاء الامويين، وليسوا منهم في بعض مودة، ولا الفئتان على انسجام في نفثة من رأي . فالفارسي ، وقد دان بدين الرسول، لا يجنح الى سوى اقرار الامامة في بيت جلا نورها . نحن واياكم على الظالمين !

فادرك ابن عبد الله بن عباس ان ساعة الافاضة بالوعود حانت، فقال: اهل البيت لا يجهلون خطركم ، يا بكير . انتم قوم ذوو شأن وضلاعة . ولكم من امسكم فخار ومحمدة . ومن الغباوة الصدوف عنكم في بناء الدولة . فان انضمامكم الينا ، في ديننا ، كتب لكم في خيرات دنيانا . فاذا ما تولیناها ، فلكم منها ما يصيبنا . ولا فضل لعربي على اعجمي يجمعهما كتاب ورسول !

وعاهد الفرس على المسير واياهم جنباً الى جنب. لاهل البيت الامامة، ولابناء فارس الوزارة. قال : ستتولى الامر ، وانتم تؤازروننا فيه . لكم مثلنا حق المشورة والتدبير ، كأننا كفتان متعادلتان في قسطاس . وجلّ

ما نصبو اليه ان نقصي عنا زمرة الطغيـان . حسبها ما افسدت واساءت . فهضمت الحـق . وازدرت الشرع . وضربت الاعنـاق . وليس لهذه الاستطالة على السنّة ان تدوم ، والحرص عليها مقدور على جميعنا . فلنتفق على إحكام المنافرة ، والنصر ملك أيماننا !

فاعلن سليمان بن كثير بسخيّ الحماسة : اضحت خراسان كتائب موّارة لاستباحة منعات الغاشمين . فنظمنا فيهـا المناكدة بما لايحتاج الى سوى قدح زناد ، كي تطير الشرارة ، وتلتهم الزرع والضرع . فإمـا ان يسود ارباب الحق ، وإما ان ندفن انفسنا بايدينا . معاوية سلبنا الامامة ، واباحها لولده ولاهله ، فلنسترجع ما حاقنا به الغبن ، وليكن ابناء عم النبي وحفدتـه ولاتنا !

وارادها ضربة سديدة في صميم المهجة . فليتخاذل الاخوة ، وللفرس ان يجرّوا المكسب . فاعطاهما علي بن عبد الله بن عباس ممايشتهيان ، مكرراً ما اعلن . قال : لن نستأثر بالاحكام ، حتى مع ركوبنا السدة . ولا عربي لدينا ، ولا اعجمي ، بل امة واحدة . فليس لمن يشاطروننا ديننا ان يقفوا دوننا في السؤدد والجلال !

فقال بكير بن ماهان ، وقد مال الى تشييد الصادمة على صادق الركن : ولكن الموقف يدعو الى الجد . فلتقم الدعوة على ركائز صلاب ، وليكن لها ابواق تنفخ فيها . فاذا وطدنا لها في خراسان وحدها ، فالنجح لن يواتنا ، ولا غنية لنا عن البناء لها في العراق ، والتوم حلفاؤنا . فان تكن « مرو » عريننا ، في خراسان ، فما على الكوفة وقد اضحت ملاذنا في العراق ؟... اتصال بعضنا ببعض لا محيد عنه لوحدة السعي ، وسرعة الاستشارة . فلتنشأ

لنا اوكار نبثّ منها امرنا ، وننشر مذهبنا !

فابان ابن عباس : الرأي ما ابديت ، يا بكير . كن انت في الكوفة . وليقم سليمان في « مرو » . اما نحن ، فمكرهون على الثواء بالحميمة ، وهي سجننا . غير اننا لسنا نائمين ، ولنا الى انصارنا الرسل يحيون فيهم العزمات ، ويعللونهم بقرب زوال المحن . وسنوفد هؤلاء الرسل اليكما لنطلعكما على ما بلغنا من شأو ، وما نرقب من غوث . فاقبضا على المطاول بيد سديدة ، الا انها خفيّة . وحذار ان يدري بنا هشام بن عبد الملك ، والا قوّض دعائمنا . فاني لاتمثل فيه عبد الملك اباه ، و كلاهما بطّاش ، عنيد ، يدرج في نهج وعر !

فهتف بكير : اعددنا للامر عدته ، ايها السيد . لن يبدو دعاتنا في القوم سافرين ، بل سيتزيون بزي التجار . ويتلقون تعاليمنا سراً ، ويذيعونها خفية . ولكن بلا ونية . وخراسان ، على بكرة ابيها ، تلقي اليهم السمع ، وتؤيدهم في مفاجأة الامويين بالصدمة الخالعة . والعراق تفتح لهم الصدر ، وتقيمهم بين الحواني ، وما كانت من الشام الا الخصيم الالد . فيروعها ان تقف موقف المخضود الانفة ، المجرور بالخطام ، وما تطمع في سوى مرتبة العزيز المبجّل . والحجاز لا ينشط لتأييد من اهملوه ، كأنه صخرة في قفر . فينضم الينا في المناكرة . واني للامويين ان يسلموا من الشبكة ، وهي تطوّقهم من جميع النواحي ؟ ... لهم الشام . ولكن الشام سئم عهدهم الزاخر بالغطرسة ، وصبا الى رؤية رب جديد ، وقد رثّ قديمه . فلنحسن استمالة النافرين الينا . ولنمعن في فضح مساوىء الحاكمين . ولن يبقى في الدولة العربية ، على فسيح ارجائها ، من لا يندفع في موكبنا !

فوافق علي وابنه محمد على البيان الانيق ، الدقيق . واذاع سليمان بن كثير : ستتصل اليكما اخبارنا . وستقيمان منها على ارتياح . رضينا بما قسمت لنا ، يا ابن العباس . وساتولى الامر في خراسان . ويمسي شأن العراق في قبضة بكير ، وهو اشبه بهمزة الوصل بيننا . فلنتضافر على المناكيد . ولنهزهم في عليائهم ، فتتفكك حلقاتهم. ويذهب لسقوطهم مستحب الصدى. فما في الاعارب والاعاجم من يرنو الى الطغاة بعين مطمئنة ، وجأش قرير!

وودع بكير وسليمان علياً ورهطه ، وانفتلا الى العراق يلتقيان فيها بجماعتها من العلويين والانصار ،الشانئين بني امية. وقصا عليهم ما داولا في الحميمة من رأي ، وجاذبا من حديث . علي بن عبد الله بن عباس ،وجميع شمله ، يدرجون في النزال ، على ان تكون الحراب رهافاً ، والكماة سيولاً عارمة

والعراق تجيش بالعداء . فالبلد العلوي ما يزال على دين حفدة فاطمة . وعلا الهتاف ينضو عنه الرهبة :لا إمام الا علي . لعن الله معاوية !

وماجوا يلتمسون الاخذ بالثأر ، ويذكرون كربلاء ، صارخين : يا لثارات الحسين !

واعيا امرهم بكير بن ماهان، فدعاهم الى التريث والتروي. فما استجابوا، وقد شعروا بان الحوابس الكامنة بين الضلوع تأبى الا الانطلاق . فالكيل طفح . والضغط يلد الانفجار . قال بكير : ألا تهيبوا الفضيحة ، وهي تخزينا !

قالوا : بات الصبر يعلونا ، يا بكير . فالذل رضّ مهجنا ، فدعنا نتنفس ببعض الطلاقة !

فصاح : لاطرحنهم ، بين ايديكم ، اشلاء تمعنون في امتصاص دمها . هلا ابحتم لي التسهيل لشهوتكم الى التمام ؟... سنتلاطم في بحـــار من النجيع . وسيذهب منا شهداء ابرار . الا اننا سننتصر ، وليس للطغيان ان يعيش . كسر عبد الملك بن مروان شوكتنا بالحجاج بن يوسف ، فاطعم منا سيفه مئة وعشرين الفاً . اما هشام بن عبد الملك فلن يظفر بحجاج آخر ، ينـثر هاماتنا، كحبات سمط انقطع، ويشبع بجثثنا اجواف الضواري والحشرات!

وغلت السخائم في الصدور . كلهم يريد الانتقام لعلي وبنيه . وانتصبت الرؤوس بصلف وتيه . وتجلى في الاسارير الحنق الدهاق. وعقدت الكوفة النية على ترويع الغاصبين في طمأنينتهم وسؤددهم ، صارخة : لتكن الدقيقة الفاصلة ،وليعرف كل منا موقفه الحاسم.فإما نحن ،وإما بنو أُمية !

ورضي بكير عن هذه الصرخات المشبعة ضغناً ، الناهـدة الى الابادة . وقال في سره : لا انتم ، ولا الامويون ،بل نحن . فلن يبقى على ظهرهـا عربي !

واذاع فيهم : ما اشتهي منكم الا هذه النصرة . على ان ترسخوا فيها ، وان تقصوها عن الافتضاح .فاذا ما هتك الامويون سرنا ،قصّوا اجنحتنا ، وحالوا دون وثبتنا ،لا يتقون الله فينا .فعلى رسلكم . ان النجح ليدعو الى الاتئاد . حتى اذا ما دقّ الموعد ، مشينا الى الجبار نحاسبه . سننشىء هنا ، في الكوفة، قاعدة لدعوتنا .ونتصل منها بخراسان الثائرة ،المتبرمة بالامويين العتاة ، وبالحميمة الراقدة على نار ، الصيّاحة الاحقاد . وساكون فيـــكم . ويقيم سليمان بن كثير في « مرو » ،واسير الحميمـــة يفيض علينا بالارشاد !

فهتفوا يستزيدونه ايضاحاً: ثم ماذا ، ثم ماذا ، يا بكير ؟

وما لوا الى الامام بموعد اندلاع اللهب . قال ابن ماهان : لا تستعجلوا الاحداث . فكل آتٍ آت . لن نضرمها الا وقد وطدنا لها في جميع الفجاج . فان تكن القلوب لا تصفو للامويين ، فلا تنسوا ان الجند فيهم . وليس لنا ان نقاوم حملة السلاح ، بلا سلاح !

وما اذاع الا صدقاً . ليس للكارهين ان يسودوا بلا عتاد . والتفت بكير الى مذخوره من النضار ، وهتف : اموالي كلها في مستوقد الفتنة . فهي تذكي النار . ساشتري لكم العوالي ، والمواضي . ولا تكلفوا انفسكم غير الجهاد الحق . وسوف يعلم المنافقون اي منقلب ينقلبون . لا إله الا انت ، يا الله !

فاطلقت الحناجر شواظاً من ضرم الحماسة . وودّ القوم لو يمشون الى دمشق ليقصوا عنها بني أمية الرابعين بالسدة . غير ان بكير ما انفك ينادي بالتؤدة ، صارخاً بهم : على هونكم . سادعوكم الى انتضاء الشفار ، يوم الفخار . اما الآن فدعوني اتدبر الامر بما يكتب لنا الفلاح والعزة !

وفرض السكون على الخضمّ المتلاطم العباب . ليثقوا به ، وهو كافيهم مؤونة العجلة ، ولكل وثبة اوان . واختار منهم فئة من الانصار الامناء ، دفعها الى خراسان بمظاهر التجار . وخطب فيها يوغر الصدور على من يضمر لهم البغضاء . قال بصولة ذي الامر المطاع : اشعلوا في الخواطر نار الشغب ، والارض ممهدة للزرع . فما في خراسان غير احقاد صارخة ، تحتاج الى من يطلقها في النهج السويّ ، لتبيت زلازل لا تثبت عليها الرواسي . انشروا الفتنة ، والقوم في اردانكم ، واذيالكم . وخذوا مني المال بلا عدّ ، ولا حساب !

وساقهم الى «مرو» عصبة خفيّة، تتقد بين جوانحها عزمات الاستبسال، وتنتفض في مقاولها مطارق التدمير. الا ان التنكر مقدور عليها، والا اخفق السعي. فهي قافلة من التجار تحمل السلع، وتغري بشرائها بزهيد الاثمان

واختلط هؤلاء الدعاة بكل حفل. واختلفوا الى المجالس والاسواق. ودخلوا الدور والاكواخ، وفي شفاههم ظلامات يعلنونها، فيما يساومون بالجلابيب، والغلائل، والسراويل، والاعبئة. يبيعون الابراد بسماح، ويسخون بالاراجيف بسماح. فهم ويل على بني أمية، الممسكين بنواصي المتجانفين عنهم، يعفّرونها في الرغام

واصغى اهل خراسان، الى دمدمة التذمر، اصغاء المؤيد بلا احتراس. وسألوا عن الدواء النجيع، فاذاع دعاة التقويض: الفتنة هي الدواء. فهل نسيتم ما لقنكم، من امثولة، عثمان بن سدوس بن جردزده؟

فارتفعت الصيحات تنفّ عن مستطير الغلّ: لا، والله. اننا لنتمثله في غضبته الصادعة، ونترحم عليه صباح مساء. فهو من علمنا الانتصار للكرامة المستباحة، والنضال عن العرض المثلوم. فكل ذرة تراب من ضريحه بركة. وكل قطرة من دمه لعنة على الطغاة. فالفرس عاهدوه، وهو جثمان مسجّى في نعش، على الانتقام له ولهم. وسننتقم بلا احجام!

وتلبد الافق بالغمائم المنذرة بهبوب الاعصار. ولمس عمّال الامويين، في الارواح، بادرة من عصيان. فالرؤوس المنحنية جمحت الى التعالي. والشكائم المخضودة تنفست عن قدرة، وادركها الحران. على ان السيف الاموي ما برح على رهافة. نصلته تفري اللمم، وتبري الاعناق. هشام بن

عبد الملك ، خليفة دمشق ، لا يصطلى له بنار

وخراسان ما خلت ، بعد الفتح ، من عرب اقحاح نزلوها. وحملوا اليها ، عدا عنجهية الطغيان ، خصومتهم التالدة . فكانوا فيها قيسيين ويمنيين ، لا تمسكهم عروة ، اشبه بهم في البادية . واليمنيون نصروا بني أمية ، وابلغوا الوالي اسداً القسري ، وهو منهم ، ما رابهم من امر هؤلاء التجار . انهم ليغالون في الحثّ على موالاة آل البيت ، كـأنهم يروّجون لدعوة ، لا يرتزقون من تجارة . واسد ، مع عناده وبطشه ، ذو فطنة ونظر . فاطلق عيونه ، فجاؤوه بزياد ابي محمد ، وقد سمعوه يجهر بتأييد العباسيين ، اولئك الثاوين بمنفاهم في الحميمة ، من اعمال البلقاء . وعالنوا بامره اسداً ، قائلين : لاح لنا يناظر غالباً الشيعي . ويتعصب لبني العباس على رهط علي . وكاد يستحدث الفتنة ، لو لم نبادر الى زجره ، والقبض عليه !

فالتمت اليه اسد لفتة التهكم المهين ، وصاح به : ثكلتك امك . أجئت خراسان تاجراً ، ام نزلتها داعية ؟... والله ، لاقطعنّ لسانك ، واخلعنّ قلبك من مثواه اذا بقيت فينا . منذ غد عليك بالرحيل ، والا ذقت ما لا تطيب له مهجتك !

وتوعده بلهجته الخشنة ، الخادشة . وما عفّت يده عن مقبض السيف تغمزه . وصرف عنه زياداً بصلف المزدري ، ووكل به الارصاد . ان لم ينزح في غد عن خراسان ، فليجرّوه اليه ، وعليه شفاؤه من جربه

ولكن زياداً رسخ في جثمته . فلن يجلو عن بلد يقتعد . وعلم اسد بصلابة هذا المكابر ، فزعق : ألا سوقوه اليّ وجماعتـه ، كما تسوقون العجماوات . لافعلنّ فيهم وامثلنّ !

والارصاد امسكوا باطواق زياد بن محمد واتباعه . وهم عشرة من ابناء الكوفة ، قدموا خراسان بالسلع ، يبتغون كسباً . على حين ارادوا بها تمويهاً وخدعة ، وما راموا سوى خرق نظام ، ودك معقل . ووثب عليهم اسد يجلجل ، وعيناه في زياد : ألا تبالي بأسنا ، يا ابن النتنة ؟ . . دعوناك الى براح خراسان ، فابيت ، كأنك في بلاط ابيك ؟...ألا اعملوا في وسطه السيف ،واشطروه شطرين،كي يعلم اعوانه اي تباريح تهب على من يكايدنا!

وجال السيف جولة كاسحة في اضلاع زياد . فاغمض الداعية العباسي عينيه لفرط الالم ، وصرف باسنانه . بيد انه كظم انينه ، فما تصاعدت من صدره نأمة.وانفجر دمه يروي الارض ويكسوها .وتمادى السيف في الحزّ . فما تمالك زياد عن صرخة:« الله اكبر ! »، يكشف بها عن مستشري المضض

وما انفك اسد القسري يزعق : ألا بالغوا في تعذيبه . فما لهؤلاء الدعاة الادعياء غير الموت يحوشهم . فالسكينة لا تلقى فيهم بهجة . فليذوقوا ما يكلفهم الشعب من عناء !

وظل السيف يجري في وسط زياد ، غير متئد .فشطره شطرين .وهتف الوالي بالاتباع العشرة ، وهم يبصرون صاحبهم فلقتين ، مضرّجتين بدمه الفوّار : ألا ما رأيكم في هذا المتجاسر على الكفر ، يحتل به الناس عن انفسهم ، هلا انكرتموه ؟

ودعا الجلاد الى لكز كل منهم برأس السيف اذلالاً ، وارهاباً . فاعلن ثمانية باقدام المستميت : نحن على دينه . جمعتنا وحدة الميـل ، ولن تقصينا وحدة المصير !

وانكره اثنان . فعفا عنهما اسد صائحاً : اما انتما ، فقد سلمتما !

وصرخ بالجلاد يومىء الى الثمانية الهازئين بالموت ، المعاندين في الانحناء : اضرب اعناق هؤلاء الاجلاف الحمقى . أكلتهم النار !

وشاهدهم يمدّون اعناقهم باعتزاز للنصلة الفاصلة ، فسرت في عروقه رعشة الاكبار . وقال في نفسه برهبة : ان وهج الايمان ليتقد في دمهم . وليس لبغية يسندها الايمان ان تخزى . فهل يقهرنا الانكاد ؟

وتهيّب الشرارة المندلعة . وزاد في خوفه منها ما تجلى في غد لعينيه ، وقد عاد اليه احد ذينك المتنكرين لزياد يقول : اسألك ان تلحقني باصحابي!

فما نادى اليه الجلاد ،للفتك بهذا العائد الى الموت يلتمسه ،بعد نجاته منه، بل استلّ حسامه من جنبه ، وانقضّ به على النادم على جحوده ، صارخاً به : اليك بما يبرئك من غباوتك ، يا ابن اللقيطة !

واراق دمه . على ان الاطمئنان جفاه . فان يكن الكره للامويين ، بلغ هذا الحد من النفوس ، فاي شر يكشر عن نابه ، واي غد اسفع يطلّ على الدولة القائمة ، وقد تمادت في البسطة ، حتى ما يغيب ، عن نخومها، وجه الشمس ؟

٣

ماجت الكوفة فيما تلتقط مسامعها النبأ الخاضد . فكتب سليمان بن كثير ،الى بكير بن ماهان ، يروي له ما اصاب زياداً واشياعه من نكر . قال :في استشهاد هؤلاء الاشداء ما يخيفنا ويعزينا. ماتوا على دين العباسيين، لا على دين العلويين. وهو ما نخشى فيه التواء الدعوة عن هدفها ، وما نسعى لسوى اقرار الامامة في سلالة علي بن ابي طالب . الا انهم ماتوا كراماً ، أباة ، كأنهم من اصلاب الصناديد ، مما يبشرنا بان الدعوة لقيت مطارحها، ولن تخيب !

وبكير بن ماهان فزع من هذه الدعوة للعباسيين ، وهو يريدها لذرية علي . وتولته الكمدة ، وكادت تفتر فيه الهمة. فما يجاهد لسوى الشيعة ،وهم اخوانه في النهج ، وما يعلو بسواهم . ولا تستعيد فارس شأنها ، ان لم يقبضوا على المقاليد

واطرق يسأل نفسه بارتياب المحاذر : « أيتابع الخطو ؟ » . على ان الجواب الحافل بالاقناع ، الوارف الدهاء ، سقط اليه من الحميمة . فانعشه ، وحفزه الى المضي في المكافحة . فدرى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بما يسعى له انصاره ، من غلو في نشر دعوته ،فهاله ان يفضي الامر الى انسلاخ العلويين منه . وهفا الى لأم الصدع بحنكة البصير ، وليس لاعداء الامويين ان يعتريهم شقاق،والا تصدع الجهد. فالمطلب الاسمى هدم السدة بالامويين،

وبعد ذاك يعتليها الاقوى ، والادهى

ولقد كتب محمد الى بكير يقول : لا يأخذ منك الغلاة لانفسهم ، ولهم في السياسة رأي ما اردناهم عليه . فاننا لندرج في صعيد واحد، غير ملتفتين فيه الى سوى الانتصاف من العتاة . ويوم تدين لنا الاريكة ، سنصطفي من تجمع عليه الخواطر ، ولن تلمّ بنا ثلمة . فما لنا ان نحفل بمن لا يصبون الى وئام !

ونادى اليه رجاله ، يهيب بهم الى الانقطاع عن ترديد اسم العباسيين ،في الحض على مناكدة الخليفة الغاصب . فليدعوا الى الرضى من آل البيت . والرضى من آل البيت مبهم الوجه ، يفشو فيه الالتباس . وهو ما جنح اليه السيد العباسي ، وكأنه ما خلع نفسه . فالرضى من آل البيت لا يعدو كونه من يقع عليه الاختيار من ابناء السلالة الهاشمية ، عترة النبي

وتحت هذا الستار الغامض الدخلة ، المترجرج التأويل ، سارت الدعوة الى نسف الامويين. فالعلويون من آل البيت ، والعباسيون من آل البيت. غير ان الفريقين رضيا عن هذا التمويه ، واستعانا به على الارب . فالشيعة مهدت لذرية علي . والعباسيون سهّلوا لانفسهم . وحاذرت الفئتان الكشف عن المكنون

وطفر بكير من الكوفة ، في العراق ، الى « مرو » ، في خراسان ، يخلو بسليمان بن كثير ،ويجلو له حوابس الضلوع . قال : لا يروعنّك من العباسيين نزوعهم الى السيطرة ، يا سليمان . فلن تنقاد اليهم الامنية ، وهم دوننا رجالا واعتدة . ولكن علينا بمخادعتهم لتشتد بهم سواعدنا . أيخفى عليك انهم من آل البيت ؟... فلنجهر بالدعوة لاهل البيت ، ولن يعتلي

الامامة غير علوي ، ويتلوه فارسي ، فتسمو فارس الى مرتبتها !

وعرّج على اصبهان يسأل عن ابن عثمان بن سدوس ، الطفل الكريم العرق . فحدثته النفس بكون هذا الوليد، وهو من نسل بزرجمهر ، الوزير الفارسي السامق الشأن ، سيبلغ باذخ المكانة ، ويهب لقومه السؤدد المنشود. وليس للجلال ان يهوي عن أُمة بنت للعلى ، وفرضت على التأريخ اذاعة المحامد ، ونشر الطيوب

وسأل بكير أم الولد عما طبعته به من اسم ، فاعلنت : دعوته ابرهيم !

قال : وارجو ان يكون اشبه بابرهيم الخليل ، ابي الذراري . فيوطد لقومه ما هدم لهم العرب الاجلاف . وهل لمن لفظته البادية ان يسود ، ويستعلي على من شيد الحضارة على أُس قويم ؟

وسخر بكير بهؤلاء الفارضين على الفرس الاستعباد ، وقد بلغت فارس في الفتوح اسمى حظوة . فاذلت الملوك . وقوّضت العروش . ودوّخت الامم . قال يخاطب الارملة الام : على ان هذا التقهقر ليس طويل الامد، يا أُم ابرهيم ، ونحن قوم ما انطفأت فينا لهبة الطماح ، ولا انطوت راية العز. فالعرب ذوو مجد سريع الانقشاع، وما كانوا في البوادي سوى حشمنا. فاذا غضب كسرى ، ارتعد المناذرة الاشاهب في خيامهم الغلاظ ، كأنهم احقر الرعاديد . وهل كان لهؤلاء الجفاة ان يسكنوا الصروح ، لولانا ؟... بل هل كان لهم ان يستروا عوراتهم ، ويجيدوا الاكل والشرب ، لولا ان يقتبسوا منا ، فنهديهم الطريق ؟... لي بابنك عريض الامل . فتعالي به الى الكوفة ، واستقرا بجانبي . سليل بزرجمهر لن يكون من الحثالة !

وانتقل بها وبابنها من اصبهان الى الكوفة. واشرف على الطفل يدرّبه ،

ويعلمه ، ويغرس في قلبه الحقد على العرب ، وقد استعبدوا قومه في وثبة مرتجلة . ونشأ ابرهيم بن عثمان بن سدوس ملماً باصله الفارسي ، ناقماً على هؤلاء القساة ، قتلة ابيه ، ومستعبدي وطنه ، المتخنين في البطر ، كأنهم سادة الدنيا ، كما قال له فيهم وصيّه

وشاطر بكير بن ماهان رأيه فيهم . قال بكير يتودد الى الصغير ، غرسة الامل : كانوا لدينا من الاتباع ، يا ابرهيم . ما ان نحدجهم بنظرة مؤنّبة ، حتى يخرّوا بين ايدينا ساجدين ، ملتمسين الرحمة . وكم تشفي آلامي ، وانت تطوي فيهم الزهو المستحكم ، وقد استطالوا في ازدرائنا . ولا تنسَ من انت . جدك وزير فارس ، ومنارها. قامت في عهده لبني قومنا دعائم ، وخفقت رايات . فكن ظله فينا . وانتقم لنا من المتنفخين عجباً ، وقد نفخونا غلاً . ولا بأس ان تمالئهم ، وهم الاقوياء ، حتى اذا ما لاحت لك منهم كبوة ، زدتهم عثاراً . ألا اذبحهم بسيوفهم ، وافرض على التاريخ امسنا . فالتأريخ ليس ابن نفسه ، بل صنع اليد !

فارهف الوليد اذنيه . واتقدت عيناه السوداوان ، الوسيعتان ، الزاخرتان بالفطانة ، بوهج الفخار. هو من نسل شريف . وبنو قومه يرصدونه في تحريرهم من الرقّ . وهتف بنبرة نغوم ، تفشو فيها حماسة ابن سبع : سنمحوهم ، يا بكير ، فابشر

فابتسم ابن ماهان ابتسامة الرضى ، وقد توسم في هذا الصغير ، القاعد بجانبه ، سعة الادراك . انه اواعد ، وما ينبع من سوى ارومة بليلة العرف ، معطار . قال يحثه على الاعتصام بعهده : انت الآن في حبوك الاول . ولن يتجلى فيك حسن البلاء الا وقد صلب عودك . فكن ناراً على هؤلاء الجفاة .

ساموننا الذل ، كأننا من الرعاع ، وقتلوا شر قتلة اباك المناضل عن الحمية!

فقال ابرهيم، ابن السنوات السبع، بعزمة فرخ النسر، المكتنز الاعصاب قبل ان تطول فيه القوادم والخوافي : سافنيهم ، يا بكير ، ولن ارفع سيفي الا لاضرب هامة ، واخلع كبداً . فما داموا يستهينون بنا ،فــلا نعموا بالحياة !

وتكلم كأنه بلغ الرشد . فضمه اليه بكير ، وقبله في خــده ، وفي جبينه . هذا فيصل كسرى في نحور العرب . ونقده درهماً ، وهو يصيح باعجاب : عوفيت !

ودفعه الى اقتباس العلم . ليكن في لغة الضاد ذا ضلاعة وبلاغة . وما يستولي على النهى والاكباد كالجزل البيان . وحفزه الى ركوب الخيل ، وامتشاق الحسام . فعليه ان يكون من الكماة الانجاد . فيقود الكتائب ، ويصادم الاعداء . ويثأر لبني قومه المخذولين ، ولابيه الشهيد

وتولى ابو موسى السرّاج تفقيهه في الدين . فلينخدع به العرب ، وليحسبوه منهم ، فيتسع له الى ابادتهم ، دون ان تعروهم فيه الشكوك . وما زال ابن ماهان يحدب عليه ،ويسخو في تثقيفه ، وقد ايقن انه حيال فتى ندب

وكشف له اسرار الدعوة الفارسية ، المتنكرة بالقناع العلوي لتقويض خيلاء العرب ، واعادتهم الى البادية يرعون فيها الشاة ، ويسوقون البعير . قال : لا سبيل الى التغلب عليهم بسوى المكر ما داموا اقوى ، وامضى . فالمقاليد في قبضتهم . والجيوش في خدمتهم . على اننا لا نكاد نعادلهم شأناً حتى يهون التدويخ!

وما فتىء يحثه على التبحر في الادب ، ونظم الشعر ، ليزيده انغماساً في الكتلة ، فيسهل التمويه . واعده ليطلقه الى الحميمة ، فيجالس علياً بن عبد الله ابن عباس ، وابنه محمداً ، ويقف على خفايا القوم . فتنجلي له عوراتهم ، ومكامن الضعف فيهم . ويظفر بثقتهم ، فلا يؤخذ عليه انه غريب عنهم

قال بكير بروغان الثعلب: انت قذيفتنا فيهم. ولكن عليك ان تحسن الانفجار ، لتطيح المستذئبين الجهلاء . وسادلك على مجال المداهنة الماحقة . اما تلم بحكاية معاوية في زياد ابن ابيه ؟... شعر داهية الامويين بخطر زياد ، وبحاجته اليه ، فنادى به اخاً له . وما بالى ان يرمي ابا سفيان ، اباه ، بالفحش . فزعم ان زياداً ابن عبدة زنجية ، وطئها ابو سفيان بن حرب ، فولدت زياداً ، الرهيب ، البطاش . وللعباسيين حكاية مثلها ، لك ان ترتقي بها الى مقام اولئك السادة من اهل البيت . فهي السلم الى مطامعنا . واحسبك تجيد صعود الدرجات بروية وحزم . قيل في عبد الله بن عباس ، والد علي ، صاحبنا في البلقاء ، انه واصل جارية اهداها الى عبد . فولدت عند العبد طفلاً عزته الى عبد الله . واطلقت عليه اسم سليط وشب سليط عن الطوق ، ودرى بسر مولده ، فجاذب العباسيين ارث ابيهم . وراق الامر بني أمية ، فحكموا له بحقه في الارث ، للتشنيع على خصومهم . فكن ابن سليط !

فادهشه . أيكون ابن لتيط منبوذ ، وقد اسمعه انه من سلالة بزرجمهر ، مفخرة الفرس ، وان اباه مات في مصاولة العرب بطلاً ؟. . . فشدد بكير قولته ، فيما تلوح له في الغلام الحيرة : اجل ، كن ابن سليط ، والفوز لنا!

فاستفهم ، وما برح على بهت : وكيف اكون ابن سليط ، يا بكير ، وابي عثمان بن سدوس بن جردزده ، المتصل ، في نسبه ، بالوزير المفضال

بزرجمهر ؟... فهل لي ان انكر قومي وجسبي ؟ . . . ولكن اهل اصبهان يعرفونني . ولا بد ان يشيع عني اني منهم ، وان ابي ذلك الداعي الى الفتنة في « مرو » ، وقد خضخض بها افئدة الامويين وعمّالهم ، وقضى نحبه يصعّر عليهم خده ، كأنه سيدهم . فهل لهم ان ينسوا ؟

فابتسم بكير ، وقال يعتزّ بدهائه : ليس في اصبهان من يذكرك ،وقد جلوت عنها طفلًا . واذا ذكروك فلن يدروا انك هذا اللاجىء الى اكناف العباسيين . فغابت عنهم ملامحك ، وقد نشأت فينا . وما عليك الا ان تتنكر بما اخلع عليك من اسم ، كي يضلّ وعيهم عنك . فانت ابن سليط . والحكمة تقدر عليك التخفي بهذا القناع الصفيق . وليس لفارس ان تبلغ مداها ،من العظمة ، الا وانت تخادع العرب . فتظاهر بانك منهم . وكن قذى في العين ، وشجا في الحلق ، ونبلة في الكبد !

فما زال الوليد على ارتباك . قال بكير : اوضحت لك من امر هؤلاء المستعلين ،في الباطل ، ان الحيلة وحدها تنجح فيهم .فاذا استطعنا ان نحجب بها بصائرهم ، صرعناهم . وانى لك ان تملك خدعة إفنائهم ، ان لم تكن منهم ؟... والا اتهموك بالتعدي ، ولن تسلم من اذاهم . كن ابن سليط اللقيط ، واضرب الاعناق مئات ، وألوفاً ، وربوات، وانت في حلّ من كل حرج . هلا تجلى لك المقصد ؟

فاتسعت عينا ابرهيم ، وومضتا ادراكاً وزهبة . لقد فهم : لا غنية عن المكر والكذب لبلوغ الشهوة . هؤلاء الاعارب ، وقد استأسدوا ، بات من الصعب كسر شوكتهم بالشدة . فلا يؤخذون بسوى الواربة . وسيوارب ابرهيم بن عثمان بن سدوس . وسيخاتل بما يلوي من عنان

الطغاة ، الطغام ، كما عالنه بامرهم بكير بن ماهان . قال : لك ان تتكل على هذا الساعد ، يا بكير !

وشمّر عن ساعده الغضّ ، فتبين فيه ابن ماهـان قوة عصب تبشر بالفحولة . فالقبضة مكتنزة العظم ، تجيد استلال السيف . والعضد مجدول ، كأنه كتلة من الصلب . قال بكير وهو يتنفس عن رضى : عوفيت . ما ارى سواك يقينا استطالة الضيم على اعراقنا . فاشخص الى علي بن عبد الله بن عباس ، في الحميمة ، وكن للعرب كفناً وقبراً. لا تشفق منهم على رضيع ، ولا على فطيم. فكل هامة تتمايل لعينيك ابترْها، ولا تبق منها غير جذع يبيس !

فاستقصى ابرهيم : أأكون في الحميمة وحدي ، يا بكير ؟

وخشي ان يبدو وحيداً في اكناف من يكايدهم. فهل له ، وهو الفرخ ، ان يضارع النسور ؟... نقدة من مناسرهم القاسية ، الرهيفة ، المعقوفة ، تلتهم جأشه . قال بكير يهيب به الى الطمأنينة: وماذا عليك، وانت وحدك فيهم ؟... انك لتحسن رواية الشعر ، وسبكه . وترتجل بليغ القول . وتركب الجياد . وتنتضي السيف . وترشق النبلة ، فلا تطيش. ولست بالجبان، ولا الغبيّ . ولك صباحة تنفي عنك الشؤم . ولسان يجامل ويخلب . ويقسو فيعطب . ومجالسة ذوي الشأن لا ترميك بالخرس . فما يقف بك عن المسير الى العباسيين ، ولك من درايتك ، ومن حصافتك ، ما يعلو الحواجز ، ويمهد لك الى المخالصة ؟... ساكتب اليهم في امرك ، واطلعهم على اصلك ، فتقع فيهم على بشاشة وايناس . وما ان تمتزج بهم ، وينجلي لهم خبرك ، حتى يوقنوا انك الفارس النجد . فلا يدهمهم منك احتراس ، بل يكلون اليك المهامّ الجسام . ولك عند ذاك ان تكون ابن ابيك !

— ابن من ، يا بكير ؟

— ابن عثمان بن جردزده ، الشهيد المطلول الدم ، سليل بزرجمهر ، احد اقطاب الفرس ، يا ابرهيم !

فهتف الغلام : اطلقني اليهم يوم يروقك ان انزل مغانيهم . فلقد سقطت على طويل الباع في التنكيل !

فاضاءت في وجه بكير البهجة . هذه طلائع اليمن . ورنا الى ابرهيم بعين تختلج بشراً واعجاباً ، وقال : ما كان لسليل فارس ان يرتضي الهوان . فمن تقلب اجداده على مهاد العزّ ، يعاند في نومة الذل . عشت ، يا ابرهيم !

وظل يرعاه ، ويغرس في نفسه الضغينة ، ويذيع عنه في الاشياع انه من ولد سليط ، حتى بلغ الخامسة عشرة . ودعاه اليه لما رقي الى هذه السن يقول : انت اليوم في مرتبة تسمو بك الى عنفوان الشباب ، وقد كدت ترتع في خصب الفتوّة . وبات بوسعك ان تتصدر المجالس ، وان تخوض الغمرات . ولا يعزّ عليك ان تخاتل ، وان تداهن في ارتقاب النسف والبتر . فساحدث عنك محمداً بن علي بن عباس ، وادفعك اليه كتيبة موّارة ، جائحة . فابرك حيث يتفق لك ان تلمّ بالمطاوي . واضرب حيث تأمن الفضيحة . وعندما يشتد ساعدك ، اكشف عن جبهتك ، وارفع الصوت : « يالثارات كسرى ويزدجرد ! » . فتتجاوب اصداء صيحتك في بلاد الفرس جمعاء . وتهرع اليك الفيالق على صيحات : « لبيك ، لبيك ! » ، وبايديها الاسنة والصوارم ، وفي صدورها الحماسة والايمان . فتقشّ العرب في وثبة ماحية ، كالزلزال !

وجلس الى رقعة ، وقلم ، ودواة ، يخطّ الى محمد بن عباس رسالة الالتفات الى ابرهيم . وعلي بن عبد الله ، والد محمد ، مات بعدما خلع على

ابنه المهمة الفادحة الاثقال ، الفارضة الحزم ، واليقظة ، والدهاء . وخطت يد بكير سطور الكتاب بوافر الاحكام ، فانجلت عن رأي خمير ، ورثاء تليد . والمصانعة فطرة . قالت الرسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم ! — وبعد ، فاني موفد اليك من لقاؤه نعمة ، ونأيه خسران . فهو منكم آل البيت ، وقد نشأ املوداً رطباً في دوحة العلياء . فتجلى فيه بعيد شأوكم ، وماضي عزمكم ، وسامي طماحكم . له في البطولة ، على لدونة عوده ، وسيع جولة . وفي الفطانة ، وما يكاد يبلغ الحلم ، صائب قولة . عجمته فتكشف لي عن صلابة مغمز ، وفيض ضلاعة واريحية . وانه لابن سليط . تجمعكم به وشائج القربى . فهو من ابناء الاعمام . ولا يضيرنّكم ان يهوي عنكم في نقاوة الارومة . يكفيه انه من صلب عباسي لا غش فيه . واذا انكرتم صلة الحسب ، فلا تنكروا ما تقوون على الانتفاع به ، وانتم تنشرون عليه حمايتكم ، ولا تبخلون عليه بسماحكم . فاني لاقرأ من غده ما يجنح بي الى اليقين انه دعامة في دولتكم المتحفزة للاشراق ، وراية خفّاقة في أيمانكم ، وسيكسف بوهجه انوار المعتلين ظلماً اريكة الامامة . فليتّنوا له مساندكم ، وابسطوا له في رحابكم ، فتجنوا منه غالي العطاء. ان للبطولة موسماً ، وفي هذا الناشىء غلة واعدة . فافسحوا له في الاغارة على المجد يرجع به اليكم ، وانتم اصحابه اهل البيت . وفي عنقي كل غبن يغشاكم . معاوية لم يعرض عن زياد وقد ألحقه بابيه ! »

وجاد بكير ببلاغة تفرض الاقناع . وألقى الرسالة في يد ابرهيم بن عثمان يصارحه بالقول الحاسم : هذا هو الموعد . فارتع في ثقة القوم ، كأنك ترعى غنمك في ارضك . ولا ترهب الاختلاط بهم ، وعليك ان تظهر فيهم

كأنك منهم . فاشرب من ضرع يستدرّون . وارقد في فراش يضطجعون فيه . ولا تنقطع عن مجالسهم . وادخل دورهم . وساير نساءهم . ولا عليك ان تتزوج منهم . فانت من آل البيت ، من صميم الهاشميين . وليس ما يقف بك عن الطمع في الخلافة ، فتمسي الركن . وللدم الفارسي ان يلتهب حينذاك فيك ، فتقبض اليد الغامزة على التراث التليد ، ونبيت في حقنا من دنيانا !

وعانقه قائلاً له : سرْ على بركة الرحمن !

وعقد له على المعالي . فارس ، المكسورة الشوكة ، لن ترتضي هذا السبات الطويل . وابرهيم بن عثمان بن جردزده امتطى جواده الاشهب ، في نفر من الصحب ، وشقّ الصحراء ، كسهم مرنان ، بعيد الهدف . انها لرحلة شاسعة من الكوفة حتى ضفاف الاردن . على ان الغلام الثبت لم يرهب مخاطر الطريق . فلفّ الصحراء على رأس سنانه ، كأنها وشاح يزين اعلى رمحه ، في يوم عيد

واحس من نفسه بالقوة ، وبين جوانحه عزم وطيد ، وفي ساعده همة لا تخطىء مداها ، وفي خاطره نهج مخطوط . واستشرى فيه الكره لهؤلاء العرب المزهوّين بسلطانهم ، المالئين الارض بصولتهم ، وقد امتدت فتوحهم الى الهند والسند ، والى المغرب الاقصى والاندلس . فسيطروا على قارات ثلاث ، مما لم يبلغ ملوك الفرس حده ، مع كل ما احرزوا من غلبة وعز . قال ابرهيم : هذا الملك العريض ستقبض عليه ايدينا . فلن يطول بالغاصبين المقام في ما ليسوا منه على جدارة . لنهد من بهم ارائك التيه !

وذكر اجداده في فارس . كلهم من ارباب الحول والطول . اعلوا شأن

السيف ، واحيوا العلم . وسادوا اشور وبابل ومصر . ولو اطاعهم الفينيقيون في مهاجمة قرطاجنة ، لملكوها ، ودان لهم المغرب ، وتسلموا زمام بلاد الروم . بيد ان الفينيقيين مانعوا ، بعد مساعدتهم « قمبيز » الفارسي على احتلال مصر ، في المسير الى بني اعمامهم في قرطاجنة يغزونها ، وصلة الارحام تربط بعضهم ببعض . فاكرم فيهم « قمبيز » الولاء المطبوع ، وصدف عن البلد الفينيقي المناهض رومة في اوج مناعتها ، وقد كاد يلويها

واشتاق الصبي الهمام ادراك المنى الغوالي . فيضرب العرب في اكبادهم . وينزع منهم أعنة الاحكام . ويقود السفينة بحزم السيد الاروع ، ولن يلقى وفراً من خصوم ، وسينتمي الى آل البيت ، فتنحني له العمائم بوافي الخضوع

وزحفت الشمس الى المغيب وعيناه تقعان على الحميمة . ونظر الى من وراءه من الرفاق ، وقال : انها لفي وحشة هذه القرية الوادعة . عزلها القفر الساكن عن كل عمران . ما كان الوليد بن عبد الملك على غباوة ، وهو يختار لشانئيه مثل هذا المنفى ، النابي عن الانس !

وفاجأ الركب الحميمة ، والعشية تلتحف بدثارها الادكن . والقوم يأوون الى منازلهم ، وقد اضرموا النار للقرى . ووقف الفرسان بباب محمد ابن علي بن عباس هاتفين : نحن ضيفانك ، يا محمد !

فارتفعت صيحات الحفاوة : ألا مرحباً ، مرحباً !

وبدا محمد واخوته وابناؤه يجيلون الابصار في هؤلاء المقبلين اليهم في الغسق . وشاع في النواظر الاستفهام . على ان القوم تبينوا في ضيوفهم رهطاً من الدعاة ، فامعنوا في الترحيب والاكرام . وهفا محمد الى من عرفه منهم

يقول : هل اوفدكم الينا بكير ، الخل الوفيّ ؟

فاعلن الداعية بخضب من طلاقة : من عنده جئنا!

وما تباطأ عن ايداع رسالة بكير بن ماهان يد محمد بن عباس ، قائلاً : وهذا كتابه اليك !

فقرأ محمد بخاطر يقظان . وما لبث ان سدد عينيه الى هؤلاء النازلين مثواه يستوضحهم : أيّكم ابرهيم ؟

فمن يكون ابن سليط ، ابن عمه ، منهم ؟... فاشاروا جميعاً الى الصبيّ الصبيح ، المربوع ، المتوهج المقلتين ، الوثيق الجرارح ، كأنه كتلة لفّاء . وقالوا باصوات تنضح بالرقة والاكبار : هذا هو ، يا محمد !

فدنا منه محمد بن عباس معجباً بالضلاعة البادية فيه ، وبالذكاء المتفجر من ناظريه المكحولين ، الاحوزين. وقال وهو يعانقه :اهلاً وسهلاً ، يا ابن عمي. اني لاتبين في طلعتك الغراء رونقاً وعزة لا يخفيان علينا. وارجو ان اراك في مضائك ، فتزيدنا يقيناً بان دمنا ينبض في عروقك . شكراً لبكير !

والتفت الى اخوته وابنائه يقول وهو يرمز الى ابرهيم : هذا ابن عمنا سليط ، سليل عبد الله ، جدنا !

فتجهمت الاسارير ، وقد تلفظ بالاسم . ذاق العباسيون المضض في كراماتهم واحسابهم وسليط يقاضيهم الى الامويين ، ويشاركهم ، قسراً ، في ارث اجدادهم . وانتفضت في الخواطر الذكريات الشوائك ، الكوالح. ما نهد الامويون الى سوى اذلالهم ، وهم يرمونهم بذلك النغل . فيسطو على ارومتهم ومالهم . واني لابنه ان يبدو فيهم ، فيعيد تمثيل الفاجعة ، وتحس خدودهم بوقع لطمة كاسفة يطيب لهم فيها التناسي ؟

ووضح لابرهيم مبلغ الكره الجيّاش في الاحداق . غير انه لم يرتعد . هذا اللقاء الجافي ومض في ذهنه ، في طريقه الى الحميمة . فلـن يفتح له القوم صدورهم بسماح وهو فيهم لطخة عار . وغاظ محمداً ان تتجلى الحسائك في الوجوه ، فقال بلهجة لينة ، دلت على كونه ممن يحسنون الاستدراج ، واطفاء النار في موعد المسالمة : أما ترحبون به ، وبكير بن ماهان سقط عليه ، وازجاه الينا ؟... ان مظهره لينبيء بمخبره . فهو منا آل البيت . وسيستقر بنادينا ، ويأوي الى برّنا . له ما لنا من حق واكرام !

على ان الاسارير ما انفكت تتعبّس . ليس لهذا اللقيط مقام في الاسرة المتنكبة عن الابتذال . ونبر فتى يحبو الى العشرين، طويل ، اسمر ،نحيف، عريض الجبهة ، في باصرتيه شواظ من اقدام واستعلاء : ولكن ارجاءنا لا تتسع لمن لا يجري في عروقهم الدم النصيع !

فغضب محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وجلجل بصوته الخشن : ألا اسكت ، يا عبد الله . انك لعلى غلاظة وجهالة . هذا ابن عمي . ذؤابة من ذوائبنا . اشهد بالله وبرسوله انه ينتمي الينا . وليس لمن يتجانف عنه منكم دلاً ، وكبراً ، ان يلقى من حلمي له وساداً . نحن بحاجة الى لمّ شملنا كي نسود !

وعاد الى معانقة الصبي المرتجف حنقاً ، الاصفر الوجه اضطغاناً . وودّ ابرهيم ان يعرف هذا اللاسع بلا شفقة ، المجاهر بالعداء بلا تؤدة . غير انه تماسك وقهر انفته الثائرة . وما عزت عليه البسمة اللينة . الا انها لم تسلم من كسفة الخجل . قال : ما نزلت حماكم الا لاذود عن مبتغاكم. ويسرني ان اكون منكم ، وان اقاسمكم عناء الجهاد . دمي فدى ما تصبون اليه من

مجد اثيل ، سلخه منكم اقتداراً المناكدون !

فهتف له محمد : بورك فيك !

وقاده الى صدر المكان. واجلسه بجانبه . ودعا الى الاحتفاء به . على ان النقمة اذا تلاشت ، في بعض الصدور ، اجابة لرغبة محمد بن علي بن عبدالله ابن عباس ، سيد القوم ومسدد خطوهم ، فما زالت على وهجها في معظم هؤلاء النافرين من سليط الكالح الوجه ، الدميم الشبح ، وخصوصاً بين اضالع هذا الفتى الاسمر ، الطويل ، الضامر ، المتأجج النظرات . وان هو الا ابن محمد بن علي نفسه ، وقد نشأ على شموخ وطماح ، وحمل اسم عبدالله ، وتكنى بابي جعفر

وابوه واعمامه واخوته يعرفونه على قسوة واعتداد ، وحزم وسطوة . فما يصبر على التواء ، ولا يرضى بتدجيل . فليس للامور في عرفه الا ان تجري في نهجها القويم ، بلا تعريج ، ولا ونية . ولقد ساءه موقف ابيه من هذا المنسلّ اليهم ، وما فيه خير يرتجى . ولم يكن ابوه سليط الا قذيفة مقوّضة في الركن العباسي . قال يذيع نقمته في من وافقوه على رأيه في الصبي ابرهيم : ابي اشبه بالغريق الممسك بكل حبل . وفي ظنه ان النجاة موفورة له في كل من تقبض عليه يداه !

وضحك بمرارة . على ان اباه في شغل عنه ، وقد التفت الى الناشىء الواعد يسأله : أما اوضح لك بكير من امر الدعوة ما يغنيني عن الاسهاب في اطلاعك عليها ؟

فاجاب بوداعة : بكير اوضح ، فوعى . وسيدي اذا اسهب زادنا الماماً بالمقدور علينا . فانا بين يديه نبلة مسنونة ، له ان يرمي بها كل هدف يروقه.

وسيصيب باذن الله !

فارتاح محمد بن علي بن عبدالله الى البيان الزاخر بالنضج ، وقال ملاطفاً : ما دمت قد سمعت من بكير ما يفرض علينا الموقف من انتهاج مسلك ، فلا حافز الى الاطالة . قم بما عليك ، وهو حسبنا !

ودعاه ومن معه الى العشاء . وتبسط في استطلاعه امر الدعوة ونشاطها ، وسياسة بكير بن ماهان تقوم على اطلاق الدعاة والحض على التنكيد . فقال ابرهيم يبثه الطمأنينة : بكير بوق نافخ ، وسيف شادخ . والدعاة رجال ايمان ، ونافثو اضطغان . وفارس نار تتأجج ، وفتنة تتوهج . والنصال ظمأى الى الارتواء !

فما تمالك محمد عن معانقته تكراراً . وهتف على مسمع من اعمامه ، واخوته ، واولاده جميعاً : سلمت يمين بكير ، وقد صوّبتك الينا . مرحباً بفتى الفتيان !

فالحكمة تدعو الى الملاينة والمصانعة ، والاستعانة بكل سيف يعرض نفسه لخدمة الثورة الوشيكة الاندلاع . وليس للقطب العباسي ان ينسى ، وهو النيّر البصيرة ، ان بكير بن ماهان دفع اليه الصبيّ ، المتقد الحماسة ، لنصرة ما يناضل عنه آل البيت واعوانهم من مذهب . ورغبة بكير اشبه بالتنزيل . فليس لها ان تطوى ، فتضام . والا فكيف يكون حشد الاتباع في ادراك الرجاوة ؟... أما تكون السلاسة في السياسة قوام سويّ التدبير ؟

٤

لم توفق الحميمة بمن هفا اليها يعرض نفسه . فالعيون الشزر ما انفكت تحدجه بمقت . وما اتسع اللين في سوى ملامح القطب العباسي محمد بن علي وبعض اخوته . اما عبدالله ، ابنه ، المكنّى بابي جعفر ، فما زال مضطغناً على هذا الدعيّ ، المنساب الى الوكر يفسد عليه صفوه

وخلا ابو جعفر بابيه يقول محتدماً : أما والله ، اذا ابقيته ، فليملأن الربع مكايد . ولينصبنّ الاحابيل في كل مدرج . ولينفثنّ سمه في كل قلب . ابن سليط لا يقبل الينا لنصرتنا !

فابتسم له ابوه ، وقد عوّده ابو جعفر هذه الغلواء . وحدق اليه بمديد البشاشة ، يستوضحه الحافز الى هذا الرأي الفاحم في الصبي الاريب . قال : ولكنه لا يبرح صبياً . وهذه خطوته الاولى فينا . فانى تجلت لك دخلته ؟ . . . أتحكم عليه بدغل الطوية ، وما لمسنا فيه الغلّ والغش ؟

فاعلن عبدالله بطاغي الكره : ما ابصرته حتى قرأت في طلعته الافك . ووقع في مسمعي انه ابن سليط ، فتعاظم ارتيابي به . انه للطخة السوء في احسابنا . وليس لمن رمانا بشينه ، ان يبدو فينا ليمحو عنا الوصمة ، بل ليزيدنا فيها غؤوراً . اطلب اليك ان تنبذه . لست مكره في ادعائه الانتماء الينا !

ومحمد بن عباس يتوسم في ابنه ابي جعفر صدق الوثبة ، وسداد المقال . ويجد فيه ذا نجدة وضلاعة . غير انه لم يؤيده في ما ذهب اليه في صدد ابرهيم

ابن سليط . قال يخاطبه بصوت الاقناع الوئيد : ألا ادفع عنك ظن السوء ، يا ابا جعفر . ما في الصبي غير ما تصبو اليه الدعوة من يمن . فان طلعته لتبشر بالمآثر الغرّ . ولا تنسَ من اوفده الينا . رمانا به بكير بن ماهان ، وهو ركن أيّد في مجهودنا . وليس لنا ان نشيح عن رغبة الرجل المنافح عن حقنا . واذا ما تبين لنا في الصبي زيغان عن مناهجنا ، فلن تقعد بنا عن اجتثاثه هوادة . فاخفض من نفرتك ، وكن عليه عيناً !

فنبر عبدالله بما يملك من دالة على ابيه : ولكني اخشى ان لا نلمّ بزيفه الا وقد فات الاوان . فيطلع على مسعانا ويفضحنا . ولا يبقي منا الامويون ذرارة . فهل غاب عن ابي ما كان منهم في كربلاء ، في الحسين بن علي ، وقد افنوه وربعه لدن وقفوا على ما يجبههم به من عصيان ؟

فما خبت البسمة في اسارير الاب . قال : سرّتني منك فطنتك ويقظتك ، يا عبدالله . من هذا المعدن الصلب اريدكم جميعاً . والا فلا يجمل بكم ان تكونوا سادة العرب . على اني اثق بابن ماهان . وثقتي به تحدوني على اليقين بكون ابن سليط لن ينشأ فينا ذئباً خطّافاً . فادفع عنك القلق . احسبك تدري ان حاجتنا ، الى بكير ، تفرض علينا الرضى عمن اطلق الينا ليظاهرنا على امرنا . وهل لنا ان نبدي الارتياب بقولة ابن ماهان ، وهو يدنا اليمنى في ادراك الرجاوة ؟

ولم ينطق محمد بن عباس بسوى القول الرشيد . وابو جعفر ابنه لم يجد وسعة الى المناهضة ، بعد كل ما جلا له ابوه من ضرورة حاتمة . فالموقف يفرض المجاملة . والا فمن للعباسيين يجري في ركابهم ان هم رذلوا المتوددين اليهم ؟ ... عليهم ان يكونوا اصدقاء كل مزدلف ، ليوطدوا لانفسهم في

اعتلاء الذروة ، والا خاب السعي

الا ان ابا جعفر لم يقوَ على إنامة هواجسه . فغمغم مع سكونه مكرهاً الى مرمى ابيه : ولكني على شك في صدق هذا المنافق ، يا ابتاه . فما في عينيه غير نظرات ماكرة تتصنع الولاء !

فلم يوافقه ابوه على الخشية ممن ينتمي الى سليط ، معلناً : انت تتطيّر من وهم عابر ، يا ابا جعفر . هلا ذكرت ان بكير بن ماهان لا يغدر بنا؟... لست انكر ان في الاحتراس حكمة . وسنحترس . ولكن الحكمة لا تمنع المسايرة والملاينة . سنساير الصبي النازل ربعنا ، ونلاطفه ، كي نبلغ منه مشتهانا ، ونحن من الضعف بما ترى . وما ان نصبح في غنية عنه ، وقد اشتد ساعدنا ، حتى ننفضه منا ، كأن لم يبذل في نصرتنا همة ، ولم نجرّ منه مغنما . أتخفى عليك درجات السلم ؟... انك لتدوسها كي تتوقل الى القمة . وما ان تعلو الى ملتمسك حتى تنساها غير حافل بها . وابن سليط احدى هذه الدرجات . فان يكن ثعباناً ، فنحن من الحواة ، ولن نفسح له في نهشنا!

فانصرف ابو جعفر على خيبة . ابوه امضى بياناً ، واقطع حجة . ونظر اليه ابوه فيما ينصرف والبسمة لا تنفك ترين على اساريره ، وقال : انه لمن ارباب العزم والصولة . ما وددت الا ان اعهد اليه في تنظيم ما نجدّ فيه ، لولا طبع حادّ يسود نهيته . فهو كسّار ، بتّار ، كأن مشيئته لا يلوى لها رسن . سيحين حينه لدن نبلغ اشدّنا . اما الآن ، فاننا لفي اضطرار الى من يستساغ ، كالماء الزلال . فيصانع ، ويخادع . تطيعه يمينه في المصافحة ، وتنجده يساره في البطش . يضحك وقلبه ينطوي على كيد وحقد . وينحني ، وهو الكليل ، ليستأسد يوم يتنفس عن بعض قدرة . ان ابرهيم بن سليط

للبنة في ما نشيد من دعائم غدنا . وقد يكون النبلة الجائحة التي نفحص عنها !
ووطن النفس على ضمه الى العباسيين. فهو من آل البيت. بكير بن ماهان هكذا يقول . وما يزال على ثقة بابن ماهان . فالصبي ابرهيم من الخلصان

واقبل عليه يداعبه ، ويزيل عنه مضض الوحشة ، ويبدد جهامة الافق. قال : أما يروقك ان تدرج في هذه البسطة من الارض ، فتشاطر ابناءنا ألعابهم ؟ ... اليك بأولادي واخوتي . كلهم في كرّ وفرّ ، وهزج وحداء ، فانطلق اليهم ، وكن شريكاً في لهوهم ومسرتهم !

فاعلن ابرهيم ، ونفسه ما تفتأ تكتوي بلذعة المهانة : ما تعوّدت ان اجالس امثالي ، يا سيدي ، وقد ادمنت معاشرة من يسمونني سناً ومقاماً !

فاذهل جوابه القطب العباسي . وصوّب اليه محمد بن علي نظرة رهيفة ، وقال يبدي الاكبار : ما تجليت لي غير سيد همام ، يا ابرهيم . وقولتك الآن زادت في يقيني بشاحط مرماك . آمنت بمعرفة بكير بالرجال . فانه ليروزهم ، ويسبر غورهم ، ولا يخطىء تقديره . ما انت الا منا . سليط من صلب عبدالله بن عباس !

وبسط عليه رعايته . فهو ابداً بقربه . وغاظ هذا الايثار عبدالله ابا جعفر . ولكن اباه ما فتىء يثنيه عن النيل من ابن عمه . قال: سوف تراه كميّاً اشوس ، يغزو فيكتسح ، ويناضل فيقهر . ان بين جنبيه لفورة من اقدام لا ينطفىء سعيرها . بنو عباس رابحون وقد بدا في صفوفهم ابن عمهم الامثل !

فغاظ ابا جعفر ان يعلو حسن ظن ابيه بالصبي الفازع الى الحمى ، وقال: ولكنك تقدّمه الى حيث لا تمتد له همة . واني ترتفع له راية وهو ذلك

المغموز النسب ؟

فصاح به ابوه ساخطاً : صه ، يا ابا جعفر . والله ، لكأنك الافعى ، وما في شدقيك غير فحيح . ابن سليط ابن عمي لحماً ، ونسبه نسبي ، وكلنا يرجع في اصله الى عبدالله بن عباس ، جدك . وجدك ابن الاكرمين !

ودعاه الى الاحتجاب . ليس يطيق ان يبصر من يضطغن على الاعوان . ورفع صوته معلناً بغضب : ما لعين ان ترنو الى ابرهيم شزراً ، ولا لفم ان يرشقه بمثلبة ، ولا لذي سلاطة ان يتنمّر عليه . انا احميه منكم جميعاً !

وتجاوب صدى القولة في الربع . وخشع الجميع تجاه الكلام الحاسم . فما يجهر به محمد بن عباس قضاء مبرم ، وهو مصدر الامر والنهي . وتداعت عن الصبي ابرهيم بن عثمان النواظر الجوافي ، وبات يغنم البشاشات . فلم يتقهقر عن خطب مودته غير النزر . وما كانت لتنتابه عبسة لولا ذلك الحرون ابو جعفر ، السادر في النفرة ، كأن لا يؤاتيه ايمان بنصاعة طوية الواثب الى الحميمة على استطالة واعتداد

وهذه البغضاء حزّت في جوانح ابرهيم . سيلقى عنها ابو جعفر الجزاء العسير ، وما كان للصبي المستوحش ان يغتفرها له . قال ابرهيم بن عثمان بن جردزده في قرار خاطره : كرهني لكونه عرفني . فهو وحده في هذا الوكر يقرأ في اللفائف والمطاوي . انه لحادّ البصيرة . وليس لنا ان ندرك شهوتنا الا اذا لوينا من جماحه . ما في القوم خطر علينا سواه . اما الآخرون فاننا لندفعهم في مناهجنا صاغرين ، بل غافلين . فما يدرون بما نبّيت لهم الا وقد شددنا في افواههم الشكائم ، وفي اعناقهم الارسان . على اني لن ابقيه !

وجنح الى تمثيل دورين . فهو ابن سليط العبّاسي النجار ، الناهد الى

انتزاع السؤدد من قبضة الامويين ، وانزاله موئله وجفنه . وهو ابن عثمان ابن سدوس بن جردزده ، الكاره للعرب جميعاً ، والراغب في زعزعة مكانتهم وامتلاك ناصيتهم . اقبلوا من البادية على شعث واغبرار ، وسيرجعون اليها على خزي وكلال ، ومطاولهم في أيمان الفرس .

وصبر على الضيم . فليقل فيه المتعنتون ما راقهم من هجر ومذمة ، فلن يحببهم بما يشفّ عما يبطن من هوى ، وما زال ، رخو الجناح ، امرط. وازدلف الى ابي العباس ، اخي ابي جعفر . فهو في عمره . والى عبدالله ابن علي ، عمه . وجالس ابرهيم بن محمد ، وعمه صالحاً ، وابدى لهما الطاعة والشوق الى انتهاج طريقها . وابرهيم ، اخو ابي العباس ، وابي جعفر ، ائتمنه ابوه على اسرار الدعوة ، ووثق بدرايته ، وبوافر حلمه . وصالح ، اخو محمد وعبدالله ، نشأ على روية في الاعلان ، وجرأة في الحق . وكلاهما رأى في ابن سليط ذا اقدام وموعدة

وظهر للصبي ان للتنافس في الربع مجالا ، وان لوضاءة المنتمى حساباً ، حتى في موقف الاخ من اخيه . فليس ابو جعفر في مقام اخيه ابي العباس ، مع كونه اكبر منه سناً . ومنشأ هذا الايثار ان ابا العباس ابن ريطة الحارثية ، وهي عربية حرة ، وان ابا جعفر ابن سلامة البربرية ، وهي أمة لا توثقها بالدم العربي صلة

وابو جعفر ، الهجين ، يحرق كبده ان يقيم دون أخ له اصغر منه . ولكن نقاوة العرق العربي ، في ابي العباس ، ترفعه عمن تشوب الهجنة مغرسه . واحتمل ابو جعفر مضض الغضاضة ، وليس له ان يغالب العرف. على انه لم يكن راضياً ، في قرارة ضميره ، عن المهانة تلجم طماحه ، وتعرو

صفاء منبته . وادرك ابرهيم بن عثمان بن جردزده سر الحنق في ابي جعفر . فما تجهم وجهه ، وشرس طبعه ، لسوى هذه الوصمـــة في معدنه . فنشأ موتور الخاطر ، متوتر العصب . وطاب للصبي ابرهيم ان يغمز بهذا الكاره له بالحط من نصاعة دمه . أما لقي مجاله الى الانتقام المبيد؟

ووضح للناشيء الاريب ان عبدالله بن علي ، اخا محمد بن علي بن عبدالله ، القطب العباسي ، يرمق بعين لا ينبسط فيها الاطمئنان مــا يحرز اخوه من سيادة في التدبير . وانه لسحيق المطمع ، يتشهّى ان يلقى اليه عنان سياسة العباسيين

واحكم حفيد بزرجمهر روابط الصداقة بهذا الهائم بالسيادة . فليكن له عوناً على الحردين . وما عليه وقد رمى عبدالله بعبدالله ، العم بابن اخيه ، فيتناكد القرمان ، وقد سدت عليهما شهوة الاستعلاء سبيل الوئام والتراضي ؟

قال ابن عثمان بن جردزده ، وقد خلا بنفسه يعالنها ما يشخص له في هؤلاء المتواثبين الى الامامة : ساقيم بعضهم لبعض خصوماً . فازرع الكيد في قلوبهم ، والطمع في صدورهم : فلا يركن نسيب الى نسيب ، ولا شقيق الى شقيق . حبوت اليهم وانا في ظنهم مطية يسوقونها في مقاصدهم ، وسها عنهم انهم سيكونون مطاياي !

ولاحت له في الربع وجوه حسان . فاخصبت الحميمـــة بنسل علي بن عبدالله ، وقد نجلهم بالعشرات ، من ذكور واناث . واذا اشرقت في الذكور القدرة والحصافة ، فما هانت في الاناث الصباحة والنضرة

وجالت عينا ابرهيم في الحسن المخمور ، المتكىء على عنفوانه النديّ . فكأن ما ثمة غير بهجات ريّا . مقل على حوَر ، وقدود على امتداد ، وبسمات

على غنج وإغراء

ونزعت نفس الصبي الى الرونق تتملاّه . فليس ابن خمس عشرة بمن خلا فؤاده من نبضة الحنان . وحلا له ان يختار . فهل يسعده حظه بان يتزوج احدى حفيدات الرسول ، فيعظم خطره ، وتتوهج نباهته ؟

وتنقلت باصرتاه من فتنة الى فتنة . تبارك الخلاّق . فما في الحي غير رواء مصقول ، وحديث معسول . تتكلم المليحة ، وكأن في مبسمها الشهد. وتجرأ ابرهيم على اطالة النظر الى القسمات المتلألئة في العرين ، وما ارتوت عينه ، بل هاج جنانه ، وحار رشده . انه لفي جنة يطغى عليها السحر ، وقد انتشرت فيها الشوادن شاديات

وصبا ، على فجاجة مكسره ، الى المتعة . فما يقعد به عن ان يكون اخا هوى ؟ ... أما حضّه بكير بن ماهان على الزواج بنساء العباسيين ؟ ... وراقته ذات طلالة ، هيفاء ، عيناء ، جعدة الشعر ، كأن على رأسها امواجاً من لألاء . فارعة الطول كأنها البانة . تمشي بوثبة الجؤذر ، وتبقي بعدها جواً من طيب ، ودنيا من استهواء

وما زادت على الرابعة عشرة . فهام ابرهيم بن جردزده بالسناء الباهر ، والنضج الباكر ، وقد اقام منها على ثمل . فجمدت عيناه . وخفق قلبه . وخبا في اوصاله الحراك ، كأن لم يبق منه سوى نبضة صميم

وتاق ، بجمام الولوع ، الى معرفة ناشرة الفوح ، ومضرمة الجوى . فمن هي في نساء العباسيين ؟ ... واجال ناظريه في من حوله يروم الاستطلاع ، فاستحيا . بل خشي ان يقع على مؤنّب يدعو الى التحذير منه . فيشيع عنه انه ما بدا في الحميمة للنضال ، بل للغرام ، وانه ينصب حباله ليصيد ذوات

الحسن والنداوة

وليس للقوم ، وقد دروا بمنازعه ، ان يستبقوه . فيرجع الى بكير ابن ماهان خائباً ، كسيراً ، على إصفاء من مذخور المعالي . وتريث في السعي للمعرفة ، مع كل ما يغلي في دمه من شغف وفضول . فلا بد له ان يعلم ، وهو في ضيافة الربع لبعيد امد . فلن يرحل عن الحميمة الا وقد انتُدب لدرء شدة ، او تولى اداء رسالة في صقع طروح

وما برىء من نظرة فتّاكة رشقته بها ذات الدلال الجهير . فابقت في فؤاده جرحاً نعوراً لا يسكن ، وفي خاطره بلبالاً لا يخلد الى فتور . وكظم ألمه ، وصبر على الفائرة الصاخبة بين حوانيه . فعليه ان يظهر بمظهر الاشداء ، والا فكيف يكون على حداثة سنه رجلاً ؟

وتقلب على نار . الا انه ظل يستمسك بطول الاناة . وودّ ان تعرض للحي محنة ، فيهفو الى دفع تيارها ، ويدرك القوم مدى بسالته ، وجسامة شأوه . وظفر بما اشتهى . ففاجأت شرذمة من اجلاف البادية الحميمة ، تغير على مواشيها ومضاربها . ولاحت للعباسيين ، فتنادوا لدفع شرها . على ان عبدالله بن علي ،وابا جعفر ، وابا العباس ، خلا منهم الربع ، وقد ساروا في رحلة الى بيت المقدس ، يؤدون الصلاة في المسجد الاقصى . فما احتوت الدار غير فئة ضئيلة من ذوي البأس ،لا تكفي رد غارة .وولولت النساء: الينا ، الينا !

ونهض محمد بن علي بن عباس لسيفه ، يردّ به الانكاد . وجاراه في المصاولة اخوه صالح بن علي ،وابنه ابرهيم ،ووراءهم جماعة من الحشم . على ان لصوص البادية كادوا يتغلبون على الرهط العباسي ،وهم كثرة .وهرعت

ذات الفتنة الى ابن عثمان بن سدوس ، وقد لاح لها يترصد ما تسفر عنه الواقعة . وصرخت به مستجيرة مندّدة: إيه انت ، يا ابن سليط، ألست منا؟... أتبصر الاوغاد يتألبون علينا لغزونا، ولا تتقد فيك لهبة من حمية ؟ . . . لست اذاً من العترة العباسية ، ورجالنا كماة منذ الفطام، لا يتقاعدون عن نار المعامع يكتوون بها !

وكأنه ما توانى الا ليرقب هذه الصرخة . فقبض على رمحه ، وهتف بصوت قاصف : لعينيك ، يا اخت الدراري . لن ازجع اليك الا وجماجمهم تثقل هذا السنان !

وانطلق كالشرارة ، يغيب في الواقعة ، ولا يلوح له ظل . وما هي بضع دقائق ، من فادح الطعان ، حتى انجلت الساحة عن فرار الغزاة الغلاظ ، وقد تركوا في الميدان الجم من اخوانهم ، بين قتلى وجرحى ، واختلط الانين بالزئير ، والشتيمة بالاسترحام . وطارد ابن سدوس ، كالقضاء الجراف ، الجمّاح الانكاد . وعاد وصوته يملأ الرحاب : ليبشر ابناء الاعمام . خذلناهم !

ورفع رمحه على كتفه ، وقد انتظمت فيه اربعة رؤوس اقتطعها في المطاردة . وطرحها بباب خيمة محمد بن علي ، صائحاً باخضلال المرح : ما نجا منهم غير سبعة . وشئت ان اصطادهم جميعاً ، الا انهم تواروا عني في الكثبان !

فعلت الاهازيج تعلن الاعجاب بالبطولة الحق . وعانقه محمد بن علي ، وهو يذيع: هل للدم العباسي ان يهون فيك، وقد تدفق في عروقك بسماح؟... كيف تكون منا ، ويثبت اولئك الطغام في النزال ؟

ووثبت اليه أُخت الدراري ، هاتفة بمديد الفرح والاكبار : ألا سلمت يمينك . وقيت الربع الشدة . ما للساعد العباسي ان يلتوي في حصد الهامات !

فابتسم لها ، حتى ارتخى فكاه . وشاء الكلام ، فاضطرب فيه الوسع. واكتفى بان يشير الى رمحه ،وقد شكّه في النحور والصدور ، فاصطبغ بالدم. وعد وانجز . قال محمد بن علي يعرّفه بها : هي آمنة ، اختي . راقها ان تتبين في ابن عمها وفر البطولة ، فاندفعت تزجي اليك التهاني . ان ابن عمك لثابت " ندب ،يا آمنة ، فاركني اليه ، وانت بامان !

قالت بوارف الفرحة والاعتزاز : غاظني ان يكون منا ، وان يتردد في النضال . فحثثته على القحمة ، فاجاب واجاد!

وخلعت من يمينها سواراً تهديه اليه. فصاح باحتدام، يمانع في الرضى عن العطيـــة : ولكن عليّ ان ازيد في حلاك ، يا آمنة ، لا ان احرمك بريقها . وما قمت بسوى ما يقدر عليّ الوفاء لبني امي ، فصنت بيتي من نهمة الغزاة !

ورشقها بنظرة الوله .فهو عبد هذه الروعة المتجلية باعتداد . وادركت آمنة بنت علي ما به منها ، فارتعشت واحمرّت . وسطع فيها سحر غلاّب ليس للالباب ان تدفع عنها سلطانه . فكاد ابن عثمان بن جردزده يهتف ، مستنجداً بها منها : هل من رحمة ، ايتها الآسرة الاكباد ؟

غير انه ما انفك يتمالك ، على ما به من ولوع سلبه الامان . ولم يتلكأ في الهجوم على الغزاة الا ليسمعها تدعوه فيلبي . والآن ، وقد خطـــا في مودتها خطوة وسيعة ، بات يرقب ان ترنو اليه بمقلة الهيام الاثيل. فهل لها ان

تفعل ، وغده وقف على رغباتها ، فلا يحجم عن الموت في تحقيق مناها ؟

ولقي في راحتيها المشرقتين مواضع للتقبيل ، وفي انامله اللدان ، المخضبة بالحناء ، قدرة خارقة على هزّ اوتار القلوب . واشتهى فيها القامة الممشوقة ، غير البدينة ، وليس على شغف بذوات الارداف الثقال ، الضخمات الصدور ، كأنهن حاملات الهوادج ، الغليظات الاعناق ، كأن في رقابهن مطـــارح للانيار

واسترسل الى الاشراق الغرير ، المنيع الفتكة . ووقعت الاعين بعضهـا على بعض ، فتطاير لاحتكاكها شرر اصاب حبة القلبين ، فالهبها . وللنار من النار وشيجة من فتون تحبو الى المواصلة . ووقف محمد بن علي ، بين الاملودين الرخصين ، يبسم لهما بسمة الارتياح ، وما يدري اي صبابة تتقد فيهما ، فترنح أعطافهما ، وتميل بهما الى الاندماج في مصطلى الاشواق

ورقصت الحنجرتان ، وقد غصتا بريقهما لفرط الحنين . وما ندّ عن الصبي ابرهيم ان في آمنة بنت علي ، من متوقد النضارة ، ما يقيمها زينة الحيّ ، بلا عديل . فهي اكرم روعة في الحميمة ، على متعدد الروائع في البيت العباسي الكميل

وشغف بالصدر المنتبر ، الشامخ ، وقد تاه عفواً على دولة الحسن ، كأنه سنامها . فتمرّ به الريح مرور المتعبد بالهيكل ، فتخشع . وتود لو كانت باجمعها افواهاً تترنم بالجلال المنشور ، وتبلّ الشفاه العطاش الى نهلة الصباحة

ولفتت الساق النسيقة السبك ، المنمنمة الصياغة ، الشماء ، عينه ، كأنها في حد نفسها عالم من استهواء . واصابه دوار أحس به بكونه خرج عن نطاقه . فهو في شرود من استحكم منه السراب . على انه ليس حيال سراب خادع ، بل

ازاء واقع راهن . وكاد يتعتع في قولته ، وهو يشكر لمحمد بن علي ، سيد العباسيين ، وقطب الحميمة ، حسن ظنه به . قال وعينه تترجح بين آمنة واخيها : ليس لفتى ينشأ فيكم ، ويجري في عروقه دمكم ، ان يتخاذل في رد المضيمة . وهبتم لي كرم المهزة ، فما نبا بي الوسع !

فهتف محمد بن علي هتفة التأييد يقول : اليوم خضدنا شذاذ الآفاق ، يا ابرهيم ، وغداً سنطحن لصوص الحكم . فاشحذ نصالك . ليس يوم الانتقام ببعيد !

فهاجت في سليل بزرجمهر احقاده على العرب . وصاح وما يفتأ يذكر وصايا بكير بن ماهان : لاصوّحن ديارهم ، واحرقنّهم بمقابحهم ، وانثرنّهم رماداً . لا عاش من يغتصب الحق من اربابه الميامين !

فرضيت آمنة عن الصرخة المتوعدة . وابدت بحماسة الموائم : ان تكن من مثل هذا المعدن الصلب ، يا ابن عمي ، فلا حياة لبني أمية المفترين على المجد ، وقد استحوذوا عليه بالباطل !

فاذاع بنشوة من عزة : لا حياة لهم ، يا آمنة . اقيمي مما اعالنك به على صفاء بال !

فاهتزت استبشاراً بغد سعيد . وابتسمت للصبي ، المتبختر في ثوب الجبار ، ابتسامة الارتياح . وقالت بمديد الاستئناس بما تعي اذنها : لن يفسد الدم النبيل . فكن للمكاره رصداً . وادفعها ، عن بني قومك ، بقوة ساعدك المجدول . كرم محتدك يأبى ان يهون !

فقرأ في مقلتيها المعاهدة على الالفة . هي له في نضرتها وجهارتها ، فلينقذها من الانزواء في التقفر ، وليرتفع بها الى حيث تمهد لها قسامتها ، ويحفزها اليه

عرقها الشريف . فوقف ابرهيم حيالها كالمشدوه . الا ان عينيه دلتا فيه على كونه بات موثقاً بهواه . فما يصبو الى ما يعدو هذا الرونق المتألق في آمنة . ولاجل احرازه سيفني نفسه في ركوب الاخطار

وبكير اراده على الزواج بنساء العباسيين ، فتتوطد بهم صلاته ، ويبيت اهلًا لاعتلاء المنصب الاسمى . حتى اذا ما طمع في الخلافة ، يجتذبها ، فلا يصدمه في طماحه من يقول له : لست من اهل البيت . حذار ان يركبك الغرور !

٥

جلس محمد بن علي بن عبدالله العباسي في داره ، في الحميمة ، يقص على من حفل بهم المكان ما استجلى من بطولة ابرهيم بن سليط ، ابن عمه دنيا وزخر المقام بمتعدد الوجوه . فلم يغب عنه عبدالله بن علي ، ولا ابو جعفر ، ولا ابو العباس ،وقد عادوا من اداء فريضة الصلاة في المسجد الاقصى

قال محمد ينشر عليهم النبأ الطريف : والله ، تجرأ علينا غلاظ الاكباد، فاغاروا على الربع . وما كنت ارقب هذه القحة في ابن انثى . ألا يكرم فينا الاوغاد قرابتنا من الرسول ؟ ... وهفوت الى سيفي أنتضيه . وصحت بأخي صالح : « هلمّ لرد الانكاس ! » . ودعوت جميع من في الحي لدرء المحنة. فكاد الاجلاف يتغلبون علينا ، وقد شهروا من رهاف الاسنة ما تحطمت دونه شفارنا . وخشيت على قومنا ، من فادح الهزيمة ، لولا ان تهب ريح كانسة ، فتقشّ الانذال هبوات اظلمت بها ضمائرهم . وجالت باصرتاي في العاصفة المنقذة، فاذا بنافثها ابن عمكم المغوار ، ابرهيم بن سليط!

واشار بيمناه الى الصبي المقدام ، معلناً باجلال : وكيف لا يكون منا وما يصول هذا الوكد في سوى شرايين عباسي ؟

فاطرق ابرهيم حياء ، وفي وجنتيه ضرم من احمرار .وهتف عبدالله بن علي وابو العباس للبطل الباكر الحنكة . وقطب ابو جعفر . ما كان ليرضى

عن هذا الاعجاب بالمغموز النسب ، وما يتوسم فيه المليح . ومضى محمد بن علي في التبسط في الاطراء ،فقال : من مثل هذه الطينة اريدكم جميعاً ،وانتم مجبولون عليها . فاحموا انفسكم من فتكات الغاشمين ، وقد اتقدتم بعزية ابرهيم . والله ، ما رمانا بالاجلاف غير الاجنـــاف ، اولئك المستوين في دمشق على سؤدد اغتصبوه !

ومال على الصبي ، البادي الخجل ، يقول : اضحت شجاعتك فينا مضرب المثل ، يا ابن عمي . محوت عنا ، بوضاءة صنيعك ، ما جنح الى تلطيخنا به ابوك . وكم من ابن يجبر عثرة من نجله . بنو العباس يفخرون بما استطلت فيه من عزة . وكلهم يرجو ان يراك في الرعيل الاول من هـادمي صرح الزور !

فتصاعد التأييد من كل فم . وما امسك عن الموافقة سوى ذلك الاسمر الطويل ، الضامر ، الحادّ العين ، الاجبه ، النافر من الصبي ابرهيم ،وهو في عرفه دعيّ . ولم يكن لابي جعفر ان ينشط لسماع الثناء ينهمر سيلاً زحافاً على ابن سليط الثبت ، وابوه شوّه اعراض العباسيين

واشتد القطوب بابي جعفر ، حتى لم يكن يهدأ بمستقره . فنهد الى الفرار من الجو المحموم . بيد ان طول الاناة قهر فيه الحدة ، فتظـــاهر برحابة الصدر ، كأن ما يسمع لا يغيظه . ورمقه ابرهيم بعين مستوضحة ، فلاح له منه انه يبتسم . غير ان ابتسامته مجهودة ، مفؤودة ، يشيع فيهـــا الكره ، وتتحايل على الظهور بمظهر الاستخفاف ، كأنها تهزأ بالسعي الحميد فاكمدّ سليل بزرجمهر . على ان الكمدة ذهبت عنه ، وناظراه يجلوان عن ابي جعفر ، ليقعا على عمته آمنة . فالتباهي بالمأثرة فشا في الغادة الجيداء ،

كأن الثناء يلقى اليها ، وكأنها صاحبة المعروف

ورنت الى الصبي ابرهيم بعين الوله . ورانت على محياها بشاشة مرحة أضاءت جوانح الغلام الفارسي ، الموغر الصدر ، المضمر للعرب شراً . وتوالت لفتاتها اليه . ودهمها ابو جعفر ، في نظراتها اللهاب ، فانتفض ، كأن يداً نثرت على جرحه الملح . أتهوى عمته ذلك المعتلّ العرق ؟

وكاد يثب على آمنة فيهزّ فيها كبدها الملتوية ، العمياء . على انه خشي ان يعزى اليه الغلّ والحسد . وماذا ينعى على عمته ؟ ... هل له ان يتهمها بالخروج عن الحشمة ، وهي ابنة اربع عشرة ، ليس للفساد ان يجاول ضميرها ، وما لنظرة تطلقها ، وتردفها ببسمة ، ان تدل فيها على كابي الميل ؟

وتماسك مغلوباً على امره . ما اقصر باعه في انقاذ ربعه وقومه من الصبي المنحول اللون ، وبجانب هذا الصبي عمه ، المزعوم محمد بن علي ، قطب العباسيين ، ووالد ابي جعفر . فيفسح للثعبان في صدور المجالس ، واعماق الدور ، ويبيح له الدلال ، والتجاسر على الانتماء الى آل البيت . فان تكن الدعوة العباسية بحاجة الى الانصار ، وان يكن للذرارة بعض الاثر في النجح ، وهي في العين قذى ، فليكرم العباسيون انفسهم عن بعوضة تستنسر ، وما تدبّ في سوى الدرن . قال ابو جعفر في ضميره : ما ارى في هذا الملحق بنا غير فارسي كافر يسعى لهدمنا . فادعى كونه ابن سليط ليجيد الانسلال الى احضاننا ، وينفث سمه في اكبادنا . على اني له بالمرصاد . ساتبين امره ، واكشف عن نفاقه . اني عليه لعين لا تنام . بيدي سازيح عن خفاياه الستر ، كي ارى ماينطوي عليه من نية ، وما يبطن لعمتي آمنة من حس . فليس يبدو لي منها على طيب مخبر . وما يفتأ ابي يبالغ في مسايرة هؤلاء

المصانعين ، الزعانف . وفي ظنه انهم حجارة في مداميكنا . وسها عنه انهم حجارة رخوة ، لا تلبث ان تتفتت عمداً ، لينهار جميع ما تعبت أيمانُنا في تشييده من بناء !

واضطغن على اولئك المنسلّين الى كبد الامة العربية ، تحت ستار الولاء . ورسخ في ذهنه انهم ما يجنحون الى سوى هدمها ، مع كل ما يجهرون به من مخالصة . فالنيات تضيق بالبغضاء . الا انها مغلفة بالمكر ، وبالخبث . وليس لمن هووا عن عليائهم ، تحت النصلة العربية ، ان يرضوا عنها ، ويقيموا منها على حفاظ . فافسدوا الدين بما نشروا من بدع ، وما يزالون يناكدون رجال السيف ، كي يطووهم ، ويعودوا الى مجدهم المسلوب

وخلع عنه الايمان بنصاعة كل اعجمي . فما ثمة ، في عرفه ، غير مآرب تجول جولتها للقضاء على العرب ، وحرمانهم ما بلغوا من سؤدد منيف . قال واسنانه يصطك بعضها ببعض : ولكنهم غير مفلحين . فكل رأس يعلو فيهم ، سنحصده . وكل لسان يعترض ويماكر ، سنقطعه . بل نحن لن نصبر فيهم على قحة المعارضة ، وما ان يفتروا في الطاعة ، حتى نذيقهم الويلات !

واوجعه ان ينزل ابن سليط الربع العباسي . فما دلف اليه بسريرة وضاءة . وودّ ان يدحرجه عن مرتبة تبوأها في الشمل . بيد ان ابا جعفر يرهب اباه ، وما يسلك محمد بن علي مدرج الغباوة والطيش . قال : على ان ابي اخطأ ، مع سداد رأيه ، في ركونه الى النغل . فاذا تعامى عن عيوب اللقيط ، فسأفتح عليها ناظريه !

واشاح عن ابرهيم . وابصره في حلقة ابي العباس ، اخي ابي جعفر ، وعبدالله ابن علي ، عمه ، يمالئهما ويخلبهما بمنمّق البيان ، فعقد ناصيته . انهما ليجهلان

اي نفّاث وبيء هبط الحمى ، على زعاف الكيد . عباسي في العلن ، وخصيم في الخفاء، لا يستطيب غير تدويخ من سهّلوا له الى اوكارهم ينفحونه باسرارهم ، ويسكنون اليه في التدبير

ولكن ابرهيم بن عثمان ، بن سدوس ، بن جردزده ، استهان بامر ابي جعفر ، وقد تملق الجميع ، ليتقي خطر هذا الاسمر العبوس . وما همه منه وقد امسى له وحده كارهاً ؟ ... فالحي على بكرة ابيه ينصره ، ما عدا ذلك النافر ابداً ، وليس يأوي الى رضى . غير ان ابا جعفر ليس البيت العباسي على مترامي شأنه . فاين يكون الهجين وثمة اخواه ابرهيم ، وابو العباس ، واعمامه من امثال صالح ، وعبدالله ، وداود ، وكلهم للهيجاء همام مقدام ؟

ونمت الجفوة في القلبين . واستطال جذعها . وامتدت فروعها . وبلغ من استخفاف ابن سليط بابي جعفر ان سخر منه بقوله فيه : ابن البربرية !

وسقطت المذمة الى ابي جعفر ، فزأر : لامتصّن دمه . أيعيب عليّ الكدرة في عرقي العربي ؟ ... ألا ليسأل الزنيم عن ابيه !

وكاد يثب عليه فيبري عظامه . ولكن اباه امسك به عن النزوة . قال يلجمه : أيروقك ان نصاب فيه بالخسران ؟ ... انه لباتر مسنون في اضالع شانئينا ، فلنغمده في الصدور ، حتى اذا ما بلغنا المأمول نظرنا في امره . ما أراك الا ناقماً عليه ، فهل ينافسك في سؤلة ؟

ففارت سخائم ابي جعفر ، ونبر : أيكون لي الهزيل منافساً ؟ ... لا والله ، ما ارتضيه عبداً . واني اطيق ان اجري واياه على قدم واحدة ؟

فاعلن محمد بن علي بشدة : ان هذا العبد لذو مضاء لايتوثب في سوى جوارح الكميّ الحميّ ، يا ابا جعفر . وددت لو ان جميع الاحرار من قومنا

في صلابة هذا العبد المغوار !

فخجل ابو جعفر من بيان أبيه الرهيف ، وتمتم : ولكني سأذيقه حتفه ، وليتنصر له من ينقذه مني !

فجلجل ابوه بمتوقد الحنق : انا منقذه وحاميه . وان يداً تمتد اليه بمساءة لقاطعها ، ولا ابالي كونها احب يد اليّ !

فاختلج ابو جعفر ألماً ، حتى خيل اليه ان بشرته تتمزق عنه ، وقد ضاقت اوصاله بضغائنه . على ان الناطق بالقولة المتوعدة ابوه ، ولابيه عليه سلطان مقدور . فاطرق ، وتراجع ، وفي خاطره دمدمة صارخة ، صامتة ، ما يعيها سوى جنانه . بلغ ابن سليط ، اللقيط ، من مترامي الشأو ، وهو المخاتل في يقين ابي جعفر ، ما ضنّ به الزمن المنافق على السراة المساميح

على ان الفم اذا انطبق ، اجلالاً لوالد مهيب ، اروع ، فالاحقاد لم تنم في صدر الابن. فظل ابو جعفر ينظر بعين ممتعضة الى الدعيّ ، الراتع في بني العباس في غمرة من اليمن . ولكن الحصافة فسحت في الاحتمال الرشيد . ما على ابي جعفر اذا صبر على القحة ريثما يدرك الصبوة ، فيشتد ساعد العباسيين ، وتزلزل بشانئيهم الارض ، وترتفع الراية السوداء عزيزة ، منصورة؟

واستطاع الفتى ، البعيد النخوة ، ان يكسر من حدة نفرته ، وان يداري النغل الراسي في الحميمة ، كأنه والرهط العباسي سواء بسواء . غير ان سليل يزرجمهر لم يكترث للمسالمة العارضة . فما انفك يتجنب من لا يرى فيه صفيّاً . فيجالسه ، ويؤاكله ، بيد انه لا يفضي اليه بذناياته . وما يجاوز الحديث التوافه . كأن الانحدار الى الحوابس محظور على من لا توثقها مخالصة

وادهش ابا جعفر هذا الكره المستشري فيه عفواً . أتنفر الارواح

بعضها من بعض في نظرة ، كما تتقارب في نظرة؟ ... فما هو السر في الميل والجفاء ، والرضى والبغض بلا حافز ، ولا حاتم ؟... بل ان الميل والجفاء ليتقدان في المهج قبل ان تلوح للعين الملامح . فاي خفي يقدر النفرة ، كما يقدر الطمأنينة ؟ . . هل من عارف فاهم ؟

واجهد ابو جعفر نفسه في الالمام بهذا المبهم المستغلق ، فما اتسع له الى درايته ، مع رهافة بصيرته . نقم على ابرهيم بن سليط لدن رآه ، فما حداه على النقمة ؟.. أيكون لمظهر الصبي ، اللطيف الطلعة ، يد في الازورار الفاشي ؟... أحسد ، أم ريبة ؟

على ان ابرهيم شرد في اثر اشواقه. آمنة اضحت مطلبه. لا ليبلغ بها السدة ، وحسب ، بل ليشفي منها لواعج فؤاده . فالحب يكويه . وتمنى لو أوتي الوسع ، فيتزوجها ، وتسكن مهجته . ولن يقعد به الزواج عما جهز له نفسه من تدويخ وتدمير . فسيعصر عرب عصر الحجر للسمسم والعنقود . فلا يبقي منهم غير دماء تسيل ، وجماجم تبحث عن اعناقها . وسيرضى عنه بكير بن ماهان . بل سيرضى عنه بنو قومه الفرس ، وسيوطد لهم عرشاً هوى ، ومجداً ذوى . فما وفق له «قورش» ، الباني الاول في وحدتهم ، سيوفق له ابن جردزده ، سليل القطب الهادي ، الضليع

وباتت عينا ابرهيم في خدور العباسيين تبحثان عن آمنة بنت علي . وعرضت له الصبية اللدنة ، البضة ، بمباهجها ، تزيد في اغرائه بالحسن الرفيع ، وكأنها تحاول فيه الالمام بمدى فتنتها . فتطلق فيه مقلتيها الزاخرتين بنداء الحس ، المتطايرتين مع جمودها نبالاً فواتك ، لا تصونان للخليّ حرمة ، ولا تكرمان في الارواح مناعة . فتداعى ابن سليط تحت وقع السهام الحداد .

واقر بالهزيمة . آمنة اطول منه باعاً ، وابلغ اثراً

وهفا اليها منكس السلاح ، يرتجي الامان : رحماك ، لا تجوري على متيم يكاد يصميه حبك التهيار . ضعضعت رشدي بما سددت الي من مكنون اجفانك المراض !

فابتسمت . انها لذات سيطرة على الاكباد . وما كانت صفراً مما يعاني ابرهيم من اعتلال جأش . فهما في عباب الوله أليفان . قال الصبي ، ولم يظفر منها بسوى بسمتها : أليس لهذا السقم دواء ؟

فضحكت ، وقد شاقها ذلك في الاسترحام . قال وما انفك يفيض باشجانه الوثابة ، كأنها ينبوع دفاق : اني لافني الليالي في ضنى من خالع السهاد . أما تأوي الى ضميرك رعشة من حنان ؟

فامسكت عن الضحكة والبسمة . وتكلمت جادة تقول : هل اصابك مني هذا الاحراج ؟... سلم خاطرك من البلبال ، يا ابن عمي . ان آمنة ليوجعها ان تزعج فيك متوطد الدعة . امتلك صفاء لبك . فما وقعت على محال !

وابت ان تطيل في دغدغته ، وقد لاح لها منه انه يكاد ، لفرط هيامه ، يمحي . فهتف ، وقلبه الفرحان ، بعد كمدة ، يصدح في شفتيه : أأرجو خيراً ، يا آمنة ؟... ألا أخيب فيك ؟

فتنهدت ملياً ، وقالت : أتخيب في من أحلتك منها المحل المرموق ، يا ابرهيم ؟... ما افتأ اذكر تلك الكرة الموفقة . واقتدائك في اقدامك ، واعجب بالصبي المغوار ، وما كان لذوي الحنكة من الرجال ان يضارعوه في دفع المحنة . ان للبطولة نصيباً من أسر الالباب . وانت ، وقد بدوت لي ترفل في مجاسد الابطال ، لقيت من نفسي هوى ، فأنست بك . ليس

الشوق وقفاً عليك دوني ، ونحن في رحبته صنوان !

فقلقلت نهيته بما ازجت اليه من بيان الحنين. لكأنه وقع على ما لم يكن ينتفض منه فيه بريق أمل . وصاح وهو يترنح ثملاً بخمرة المنى : أحييت ابرهيم ، يا آمنة . فشكراً لليد البارئة ، وللخاطر المنقذ . انا اليوم في اكرم ساعة من زمني . وما كنت اطيق البقاء في الربع لو التوى عليّ الامر ، وامسيت منك على إنفاض !

وما انطوى مقاله على مكر . حبه رجح رسالته . ففي آمنة من قوى الاستهواء ما تيّمه ، فامسى عبد هواه .قالت ابنة علي بن عبد الله تسايره في صبابته : ان في القلوب الهائمة من معادلة الشغف ، يا ابرهيم ، ما تستوي فيه الكفتان . ونحن على مماثلة في الكلف . فلا تعدوني في الوسعة ، ولا اتقدمك فيها . والمواءمة في الحنان تميل بنا الى الرسوخ في موداتنا . ولكن احذر العيون . فليس لمن في الربع ان يدروا بما تغلي به العروق . وباعد في ان يلحظ عليك ابو جعفر ، ابن اخي ، لفتة فاضحة ، والا كان نصيبك مني النوى .فيقصيك اخي محمد عن الربع . ونعاني من الحرقة كل ضنى. ابو جعفر فينا لسان قاطع ، ويد شادخة . فما ان تلوح له ظاهرة شاذة ، حتى يركب جماحه ، ويصرّ على التنكيد . وليس لنا ان نحتمل فيه بادرة العداء !

فقطب وهي ترمي اذنه باسم ابي جعفر . واعلن بامتعاض : لا ادري ما يوسوس لابن اخيك فيحفزه الى منافرتي . اتفق لي ان اصادق جميع من ضمهم الحي ، ما عد هذا الحرون . ينظر اليّ بعين تيّاهة . ويصعر عليّ خده، كأني منتهك الحرمة . مع اني منكم ابن عم لحاً . ولكن هو الغرور يزين لابن اخيك الغطرسة ، فيتعالى . كأن القوم لديه عبدان وصعاليك .ألا مهلاً

في غلوائه . ما انا فيكم بالزريّ ، ولا الكسيح . محتدي محتدكم . ولابن اخيك ان يضارعني في النزال ان يكن ذلك الكميّ !

فتأوهت متبرمة بصدود ابي جعفر . وقالت : كانا يشكو طغيان ذلك الناشىء على زهو وأشر . فيخيل اليه انه العباسيون بجميع قضيضهم . وما لسواه ان يعتدّ برأي ، ولا ان يفاخر بمأثرة . مع ان في نسبه مغمزاً . وهو ابن جارية ، لا ابن حرة . و مع ان في العباسيين انداداً له ، بل سبّاقين . وحسبك اخي عبدالله ، واخي صالح . وهما في العترة العباسية من المتفوّقين حنكة واقداماً . ولكنه الغرور ، كما اذعت . وانه ليعبث بنهية ابي جعفر. فيتثمل نفسه قطباً ،وما يبرح رخو الجناح .وما لمستَ فيه من مناكرة لك ، تجلى لي في باله . فانه لحاقد عليك ، وما اعرف لهذا الحقد دافعاً . أتكون نافسته في طلبة ؟

فهتف شعلة من غيظ : هل ابدى فيكم نفوره مني ؟

فمالت الى الكتمان . بيد ان ثقتها بابرهيم بن سليط خرجت بها عن التحرّز . فاعلنت لا تمسك على السر : ليس لي ان اقصّ عليك ما سقط منه الى اذني . على اني لم اكن راضية عما اطلق من نفاثاته. فاهاب باخي محمد ، بيه ، الى انكار كونك منا ، آل البيت ، والى الحذر منك ، زاعماً انك تضمر لنا شراً . واطال في اغتيابك دون ان يلقى من ابيه اذناً صاغية .فما انفك اخي محمد يدعوه الى الاتئاد ، ويطنب في كفايتك ، ويتوسم فيك طالع خير !

فصرف باسنانه ، وابدى الحنق ، ونبر : والله ، لولا حرمة العرف المنيف، وكرمى عينك، لبريت من النبال ما يقدّ اضالع هذا الداعي عفواً

الى الهيجاء . الا اني لن انهش لحمي بانيابي ، ولن اخضب يدي بدمي . فلا يحرجني المتشامخ عليّ في الباطل ، وليس له في النزال ان يجاريني . آمنت بان الدهر لا يصفو لمخلوق . وما للعيش ، مهما بلغ من بسطة الرغد ، ان يحلو بتمامه ، وثمة مرارة تشوبه . على اني ساصبر على المضض يكويني ، ولي من حبك ما يدفع عني وطأة الحقد الكريه !

فوضح لها انه لا يماري . قلبه يجري في كلامه ، كأن في ألفاظه خلجات فؤاده . قالت تبدد عنه وقع الغضب : اجل ، عليك ان تصبر . وساعينك على ادراك الوطر . فالجفاء يرمينا بالخيبة . وما احسبك ترضى بها الصبابة رطبة ، قريبة عهد بالبزوغ . سنلتقي ابداً . ولكن على احتراس . فليس للربع ان يدري ، قبل الاوان ، بما نحن فيـــه من أُلفة . وثق بمودتي . فلن يعتريني فيها نكوص . ولاطف ابا جعفر . فلا بأس ان تلاينه ما دمت تعيش في ظلال يتفيأ . أتجهل ما تقدر عليك المجاملة ؟... في المؤانسة الرشيدة قضاء على الشحناء والبغضاء !

فشاقته حصافتها . انها لتلمّ بسياسة الناس ، كأنها رضعت الدهاء قبل الفطام . على ان كرهه لابي جعفر لم يسعفه على التخفيف من حنقه ، فقال : لست في طبع الثعلب . فاراوغ واخاتل . واطعم من يناكدني السلوى ، على حين اذوق منه العلقم . فاذا ابديت لابن اخيك لين الجانب ، وهو يجفوني ، تهضّمني ، ونعى عليّ الانفة . وما انا ممن يبيح كرامته لكل جلف . ولست اخفي عنك انه سعى لرتق الفتق ، ولكن ضميره ما يبرح على غلّ . وهذه المهادنة ، المبطنة بسوء النية ، لا يؤخذ بها مثلي . فساظل في مصادمة الناقم ، بلا علة ، حتى يفيء الى الحق !

فضحكت وقالت تبدي الاعجاب بالحمية المتنفخة، وبالرغبة في المناجزة : ولكن جهادكما يفرض عليكما وحدة الرأي ، والرسوخ في الوئام . واني نقهر الخصوم ونحن على شتات ؟

فاعلن بمضاء المستبسل : ان اكن وابن اخيك على مقاطعة ، فاني وسائر الربع على وطيد سلام . وستجدينني في الطعان ليثاً هصوراً . ولن اتقاعد عن نصرة ابي جعفر ان يكن بحاجة الى وكدي. فان نصلة تناحره لمردودة الى صدر من يتطاول بها عليه . فالاحقاد ، في معترك السؤدد ، تتلاشى لصون الحزمة الواحدة . ولا غنى عن الوفاق الاكمل يسيطر على الربع . اما الحساب الشافي ، فسندعه الى ما بعد اغماد السيف في جفن النصر !

فصاحت بجم ّ الاغتباط : عشت ، يا ابرهيم . انك لتستل ّ منا هتفات الاكبار مع لدونة عودك . فاي قرم همام يصول بين حوانيك ؟... انت من نسل الصقور، ورب الكعبة. لم يخدعنا ابوك وهو يقول انه من سلالتنا. لا مراء في كونك ابن عمي لحاً !

ودنت منه . فهبّت انفاسها على وجهه ، وأثله عبير المسك . والتهبت جوارحه بشعلة الوجد المسكوب ، في دمه ، ناراً لا ينطفىء لها وهج . فامسك بالذراع اللدنة ، السيّالة الفتون ، وتنهد . وقال بصبوة الى بليل الحسن : ساقف ايامي على الجهارة الفائرة فيك ، يا آمنة . فما كنت لاعيش لسوى هذه الروعة الصيّاحة في اوصالك الحافلة بالنداوة والانسجام. فكأنك جمعت ، في مذخور اناقتك ، كل ما يستفيض في العباسيين من نبل سجية ، وكرم رواء !

وجذبها اليه في انتفاضة من غشيان السحر ، يطمع في ضمها الى صدره

المتواثب الخفقان . بيد انه تهيّب الجلال المنشور . فاكتفى بان يطبع بشفتيه شعرها ، فيستروح مندلع العطر . وتطايرت نفسه صبابة ، فتمتم وما ينفك يتنهد : اني لاشعر بانفاسي تضيق بي ، يا آمنة. في شراييني جمر ، وبين اضالعي غليان من نزوع الى بواكير رونقك. آه ، يا سالبة النهية ، هل لي ان ارتوي يوماً من بهائك النمير ؟

وتراءت له الصعاب الواقفة به عن الشهوة . انه أبي عالم يمور بالمثبطات. فالحوائل امامه ، ووراءه ، وعن يمينه ، ويساره . فمن هو في الرهط العباسي غير نكرة ؟... وسيظل نكرة حتى على اعتلائه السنام. فلن يقرّ به العرب سيداً ضخماً . واين السؤدد في من ابوه لقيط ؟... وتمثل عين ابي جعفر الفاحمة ، العميقة النظرة ، تجاوله بقسوتها البكاوية ، فارتعد . حسبه ان يصدمه هذا المتجبر كي يهون به الذرع

على ان صلابته التالدة اقصت عنه المخاوف ، فثبت في المناضلة عن خلجة هواه . سيقاتل في جبهتين ، في تقويض مناعة العرب ، وفي ابتزاز اغلى درة في العقد العباسي . قالت آمنة ، وقد اضطرمت بلهجة الحنين : ستجدني ابداً في نصرة امانيك . فلا يدركك اليأس ، وانا انفحك بالتأييد المكين . اخي محمد لا يصدني عن رجاوة . فثق بالغد الواعد التباشير !

وافترقا على مراع الامل ، وبودهما لو بقيا على مساقطة الغزل المرنّح الاعطاف . وابتهجا بالحب النامي ، في القلبين ، على دفق من خصب ، الشادي كأنه الصدوح ، الريّان كالزهرة المرتوية بندى الفجر . وطابت لهما الحياة الطافحة بالمواهة ، كأن الصخر والرمل عبثا ، في شرعهما ، بالجفاف والعقم . فكل ما حولهما يضحك لهما ، حتى ابو جعفر المترصّن ، الجهم

وحبا ابرهيم الى حلقة عبدالله بن علي يقول، وقد بدا له فيها ابو العباس:
ألا ما يكون من امر هؤلاء الامويين اذا دروا بما نبّيت لهم من قهر ؟... لو اباح لي قطبنا الهادي ، محمد بن علي ، ان انطلق اليهم في غزوة جيّاشة ، لاقلقت دمشق الساكنة الى افتنائهم باضوائها . اذلوها بدلالهم الارعن ،وما كانوا ليرعووا عن غيّة تاهوا في مجاهلها !

فضحك عبد الله بن علي ، وكان يستلطف الصبي ابرهيم. وقال ابوالعباس يساير في المطمع هذا الشره الى حطم شوكة الامويين : ألا ماذا كنت تفعل، يا ابرهيم،ونحن نجاريك في الرغبة، و نعهد اليك في مصاولة المفسدين؟... هل كنت تدكّ حصونهم ، وتدوّخ كماتهم ، وتفتتح لنا قواعدهم ،فندخلها آمنين ؟

فصاح بما يجول في اعصابه من نشوة الحماسة : وحقك ، يا ابا العباس ،ما كنت فيهم الا السهم المتلاف . فلا ابقي ، في كرامهم ، على رجع نفس . بل احصدهم جميعاً لا ارحم ابن يوم. واغير على قبورهم فابدد بقاياهم، وانثر ترابهم في مهب السوافي ، فلا يدري بهم حريص على ذكرى ، وينساهم حتى التأريخ !

فهتف له السيدان العباسيان باكبار : عوفيت !

على انه اكبار مازجته رعدة من هول . وجمدت عليه اعينهما بدهش مرتاع. أيقدم هذا الصبي، الطريّ العود ، على ذاك الويل كله ؟...واستوضح عبد الله بن علي : أتنهد الى النسف بلا رأفة ، يا ابرهيم ؟

— بلا رأفة ، يا عبد الله . فما انا بالغبيّ كي استبقي اثراً يرمز اليهم . عليهم العفاء . لا اموي على سطحها ، يا ابن أمي !

فزاد في الترويع ، وفي الاكبار . وقال ابو العباس بصوت قعدت به الرهبة عن الامتداد : لكأنك تخطّ لنا نهجنا ، يا ابرهيم . انك لذو قسوة ترضى عنها ارواحنا . من طينتك نريد الاعوان !

فتدارك عبد الله علي بن قولة ابن اخيه ، معلناً : ولكنه ليس من اعواننا ، يا ابا العباس ، بل منا . انه لمن اصلاب العباسيين . ولا عجب ، وهذه حاله ، ان يذود عن كرامته ، ويقاضي الامويين في الجليل وفي الدقيق . وعلينا جميعاً ان نسلك هذا الصراط الرشيد . انما لم تبصرا هشاماً بن عبد الملك ، فيما يقبض بيمينه على هامة زيد بن علي البتراء ، ويهزّها على مرأى من الحشد الطامي ، مفاخراً باحتزازها ، متوعداً بالقضاء على كل من تحدثه نفسه بالانقلاب على الامويين . اما انا فقد ابصرته ، وازددت على الامويين نقمة ، وعلى استئصالهم عزماً . ولكأن ابرهيم ، ابن عمي ، ينطق بلساني ، وهو يجلو ما ينتوي . عشت ، يا ابرهيم !

وهتف له تكراراً . وتحدث عن زيد بن علي ، فقال : انه لمن الحزمة الميمونة . وليس كونه علوياً يبعده عنا . فكلنا ابناء اعمام . هو من صلب علي بن ابي طالب ، ونحن من دوحة العباس . اما الامويون ، فكم من المراحل تفصلنا عنهم . فاذا جمعتنا قريش ، فلم تشبك بيننا ، في سوى ضؤولة ، عطايا الارحام !

وهز برأسه وهو يقول ، كأنه لا يفتأ يبصر هشاماً يقبض على الرأس المضروب العنق ، ويعرضه على مزدحم الحفل : منذ ذلك الحين انطوت نفسي على السعي للانتقام المبيد . وما انفك اتعلل بالشهوة المضمّخة بالطيب . ويلوح لي ان الزمن يمهد لنا الى الرغبة الانوس ، الشافية من الذل . فلنمعن

في الدعوة الى النجاة من الكابوس الهاصر ، وقد اثخن في تهشيم الضلوع !

وسكت الثلاثة ، كأنهم غابوا في غشيان الحقد. فالسعي للطمس ديدنهم جميعاً . على ان ابرهيم بن جردزده لن يكتفي بمحق الامويين ، بل سيتبعهم العباسيين ، كي يغنم الفرس المقادة ، وتلين لهم ناصية الدولة ،فيعود اليهم العز المفقود . بل سيتضخم عزهم ، بما يندمج ، في عقد السيطرة، من اصقاع امتد اليها الاسلام . اما الخليفة ، فلن يكون غير ابرهيم نفسه ، ابن جردزده في الفرس ، وابن سليط في العرب . فيتزوج آمنة بنت علي بن عبد الله بن عباس ، ويبيت من اصهار النبي . واني للمسلمين ، في المشارق والمغارب ، ان يزيغوا عن صهر الرسول ؟

واختلف عبد الله بن علي ، وابو العباس ، في خواطرهما عن سليل بزرجمهر. وما ارادها ابرهيم غير قاصمة يلتوي تحت هواصرها ظهر كل عربي. فحامت صبوتهما على السيادة الغريرة ، الباهرة الجلوة . وتراءى لهما ان المقعد الاول يفسح لهما في صدره ،فتقر" فيه جوانبهما، وتمسي الدولة العربية عباسية اللون ، لا اموية ، ولا علوية . معاوية وعلي انطوت رايتهما، واضحى الامر لبني العباس ، وفيهم كل اصيد اشوس ، حقيق باعتلاء الاريكة السامقة

وما برحت آمنة قبلة عين ابرهيم . فستكون شريكته في سلطانه ، وباسمها سيجمع العرب تحت لوائه . فتحقق له طلبتين ، مشتهى قلبه ، وحلم ضميره . فالفرس ما ماتوا . وعليه ، هو سليل بزرجمهر ، ان يقيل العثرة ، ويضمد الجرح النزيف

وأطل على الحلقة محمد بن علي ، وابنه ابو جعفر . فهتف محمد بابتسام رحيب : الله مع المؤمنين !

فنهضوا له يحارونه في البسمة ، وينحنون بين يديه . فقال : ألا ما بكم في طول تفكير ؟

فاجاب اخوه عبد الله : اننا لنوطد للشهوة الراسية في الصدور . ابرهيم، ابن عمنا ، يتوق الى المحو ، كأن ليس في الكتاب سطور !

فاطرى همة ابرهيم، وعالنه بقوله: وهل للدرن ان يبقى، يا ابن عمي؟... كلمتك هي الصواب التم . لا اموي على ظهرها . صدق الصبي الرشيد !

فامتعض ابو جعفر من هذا الاكرام يلقاه النغل ، وعبس . وتبين فيه ابوه العبسة ، فاستوضحه : ألا ماذا ترى انت ، يا ابا جعفر ، وما تلوح لي غير معتود الناصية ، كأنك لا ترتاح الى بشر ؟

فقهقه الجميع ضاحكين ، وفي ضحكاتهم وفر من التهكم على الغضبان سرمداً . ولمس فيهم ابو جعفر السخر به ، فاشتد عبوسه . غير ان الملاطفة فرضت عليه بسط اساريره . فقال وفي حنجرته غصة : والله ، ما يبدي ابرهيم غير الحق . لا حياة لرهط ،بسوى فناء رهط . فاذا خفق لنا علم ،فلا بد من طي علم المستنسرين زوراً وطغياناً . القضاء على الغاصب انجع دواء في الانتصاف للحق الهضيم !

واتسعت الحلقة حتى ضمت جميع من وسعهم الحي. فحفلت بابرهيم اخي ابي العباس وابي جعفر، وهو من ينتدبه ابوه ليخلفه في بث الدعوة ،وبصالح ابن علي ،عمه، ، وبداود بن علي ،عمه الآخر ،الذرب اللسان ،ومدره قومه . وتطارحوا الاحاديث الحافلة باطايب المنى . واجمعوا على الافناء. فلن تقوم قائمة لجماعة بسوى اجتثات جماعة ، اقراراً بمذهب ابي جعفر . فالسيف خير أليف وحليف!

٦

في الحميمة مفاوز وواحات . فسحات مديدة من الرمل ، ثم اشجار ، وصخور . جداول وبساتين ، وما حولها فلوات لا يبلغ البصر مداها . فما درجت تلك البقعة العجراء على لون واحد ، وقد تعددت فيها الاصباغ . على ان الجفاف يسود معظمها . فالارض على قطوب ، كأنها تتنكر للتنزيل

وما اختار الوليد بن عبد الملك الحميمة للعباسيين منفى ، ومأوى ، لسوى كونها قاتمة الطلعة ، غارقة في التقفر ، كأنها المهمــه الجديب . وادرك بنو العباس ما يريد بهم الخليفة الاموي . غير انهم مجبرون على الانحناء للرغبة الصادعة ، والا فالسيف يتكفل بالعناد الجموح . ولم يكن العباسيون من الجهالة بما يهيب بهم الى مناطحة الصخرة ، وما حانت ساعة تحطيم الكابوس ، وخلع النير . فالحكمة ما ندّت عنهم ، وهم من اتباعها . والحكمة علمتهم ان الامور مرهونة باوقاتها

وفي هذه الفلوات يدرجون ،غب الاصيل ، للترويح والتمويه . ويسيرون فيها زرافات زرافات . وتنطلق في مطاويها نساؤهم اسراباً اسراباً ،ويشخصن الى واحة باسقة النخيل ، مراع ، كأنها افلتت من نداوة الخمائل لتحترق في اتون الهجير . على انها تهب النشاط للمهدود الحيل ، وتجود بنسمات مراض ، تدفع الضنك عن المتبرم بذلك الجو الكالح ، المكدود

والانشراح يبلغ مداه الابعد، ساعة تبدو نساء الحميمة في الواحة

الضحوك ، المجلوّة القسامة . فيسرحن في الماء كاشفات عن سيقانهن الطويلة العهد بالاحتباس في السراويل المنفوخة ، كأنها الكير . ويأخذن في مداعبة المياه الساكنة، فتنبسط هالات تلو هالات . ويعلوها الزبد احياناً وقد خضخضتها الايدي والارجل، غروّعتها. وتتناثر آونة ،والغيد يرشقن بها بعضهن بعضاً ، في مزاح انيس ، شهيّ

ويختبيء الحيوان ، اللاجيء الى المأوى الآمن ، حذراً من الانسان المباغت . وتركن الطيور الى الهرب ، وليست تأمن شر الضيوف . وتنزل غيد الحميمة الروضة ، النابتة في الجفاف ، مطمئنات ، لاهيات . فيأكلن ما يحملن من زاد ،وقد انتشين بصفاء البيئة الماتعة ،وعذوبة الينبوع السلسال ، واخضلال المشهد الحفيّ

وما كانت الحميمة لتنعم بالبهجة في سوى واحتها . فتبدد فيها عنها القطوب .او اذا خرجت قوافلها الى ضفاف نهر الاردن تبترد بمائه الساجي، وجاوزتها الى بيت المقدس ترعى في تلاله واوديته الغبر ، وفيها تخشع اشجار الزيتون ، كأنها في ابتهال النسّاك الزاهدين

وذات صباح ، من ايام الربيع الفواغم ، وقد عبق الجو باعراف الصعتر ، والشيح ، تنفثها البطاح ، وبروائح الرغام المبلل بالمطر الباكر ، ترجيها الى الانوف ،خشنة المجسّ، نسمات غير محتشمة ، انساب الى الواحة، اللينة المهاد ،شبحان تكاد تطويها الصحراء لفرط ضؤولتهما. وما لاحا فيها بما يعدو الخال في المحيا المكفهرّ. ولم يكن للناظر اليهما ،من ابناء ذاك الصقع ، الا ان يجزم كونهما مقبلين على الخميلة المشرقة في الصلد اليبيس

وولجاها وهما يلتفتان الى الوراء ، كأنهما يرقبان من يدلف في اثرهما ،

بل كأنهما يخشيان عين حسيب . وتكلم احدهما بصوت يشيع فيه القلق ، مستوضحاً : أما انتفض لك منه خيال ، يا حبابة ؟

فغرزت حبابة عينيها في الافق الوسيع ، وابانت : لا ، يا مولاتي . فما في الرحاب ظل يلوح ؟

ــ اذن اين يكون ؟... أما تعاهدنا على اللقاء في هذه الرياض ؟

وتوهجتا غيظاً ووهلة . فقالت حبابة : علينا ان ننتظر . فما وعد ليخلف ، وانت مناه . فمنذ علقك وهو يتهالك على ارضائك . ولكما في رحبة المودة بعيد شوط . أما انقضى عليكما في مراحلها ثلاث سنوات ، اذا لم تخذلني الذاكرة ؟... انه لعهد مديد . وما كان فيه ابرهيم غير الفتى الصادق الذمة . وهل له ان يظفر بابنة الاكرمين ، وان يتناءى عن النفحة الزكية ؟ . . . آمنة بنت علي زمردة في هالة من ياقوت . واني لطلاب الصبابة ان يسقطوا على اخت لها ؟... وابرهيم بن سليط اسعد البشر ، وقد خلعت عليه فيض مناعمها . وهل له ان يشيح عن العطية السمحة ، وانت تقلدين بها جيده ، فيسمو ، وترصعين بها صدره ، فيتفجّر منه النبل ؟

فاغرورقت عيناها النجلاوان . انها لشقية هذه القابضة على الفرائد من جميع اطرافها . كرم ارومة ، وطفاح رونق ، وغضاضة سن ، ودفق ثراء . فما يعوزها ؟... غير ان الشهوة تعدو هذه الفواتن ، وثمة قلب يحس ، ويحب ، ويصبو الى الاقامة من حبه في امان الهناءة ، ونعمائها . بيد ان الاقدار تناكده . فما ان يلتمع الرجاء ، حتى يحجبه طامس الدهمة

وليست هذه المضطرمة الاشواق غير آمنة نفسها . آمنة ذات الاشراق الاسنى ، في الحميمة الشبيهة بالحمم ، كأنها بقايا بركان . ارض احترقت وما

تزال تحمل طابع النار

وهتفت حبابة ،الجارية الحبشية ، ويعزّ عليها ان تبكي مولاتها :أتتلهفين على ما يميل بك الى الطمأنينة ؟... ولكني ما رأيت التوفيق يطيع ذا هيام كما ينحني في معالنتك الخضوع . لك ان تطربي ، ومقادته في يمينك . وهل للبدر ، في رحيب مداره ، ان يجزع ، وقد تجرأت على حجبه غمائم عابرة ؟

فاشتد بآمنة البكاء. ان المحبين لفي ويل دائم. ارادوا الحياة صافية ،ماتعة، فما سقطوا على زمن مغيث . أما للاشواق ان تعرف طريقها الخالي من السدود ؟

وما تفتأ آمنة ، وجاريتها حبابة ، تذكران ما اقبل فيه ابو جعفر من مستطير الوعيد، كأنه يرشق السهام .فصاح بعمته ، وموجدته عليها تتضرم: هذا الخروج عن الحياء فيك يؤلمني في المنيع من سويدائي ،يا عمتي .فما غاب عني ما تبدين من شغف بالنغـــل اللقيط .وانت ارفع من ان تهوني ،وليس الاسفاف من شيمتنا . فاذا لم ترعوي ، وتتحرّجي من الضلالة، لقيت عسير الحساب .وما فينا من يرتضي ان تلتوي عن مهيع الحصانة !

وحدجها بعينيه الصاعقتين ينذرها بالمحق . فارتعدت وعرتهـا الصفرة . بيد انها ابت ان تبدو ذليلة حيال ابن اخيها . ففزعت الى الانكار ، وهو من ذرائع الضعيف ،كأنه طبع فيه .والمرأة ضعيفة . قالت آمنة تدحض ما تأذن به : ما لهذه الحوادش تطلع بها عليّ ، يا ابا جعفر ؟ . . .أتسيء الظن بعمتك ، وما لريب ،في اشأم خاطر ،ان يتطاول الينا ؟... ابرهيم بن سليط ابن عمنا . وقد يكون انحدر في مولده عن مستوانا ، الا ان دمه دمنا . انه لشبيه بك في اصله العباسي ، وشبيه بي. فانى اعرض عنه وقد نشأ في حجرنا،

وامسى من اندادنا ؟... اما الضلالة ، فليست ، وحتك ، من شيمة عباسية نبتت في تربة خصبة بالاباء والعفة . واما الرصانة ، فما انا بحاجـة الى من يهيب بي اليها ، وعنانها في يدي . ألا أقصر عن تهمة ما انت فيها بالموفق الرمية . طاش حدسك ، يا ابن اخي !

فهدر ، وقد ردّت الى نحره سهمه : أيطيب لك نفي الواقع ؟ . . . ألا كوني منا ، ولسنا من المتجانفين عن الاقرار بزلاتنا . وتماسكي عن الخفة ، والا اصابك الكرب . فما تزال شكائم نسائنا في ايدينا !

وصبّ عليها نفاثاته . فما قعدت عن الدحض متشامخة ، معتزّة بنقاوة الاحدوثة . قالت برباطة جأش مثلى : دع عنك التهويل ، يا ابا جعفر . فما نشأنا أعزّة كي نكبو . واذا شئت ان تنال من ابرهيم ، فصنْ عمتك من الافتراء . وما ادري ما يقيمك من ابن عمنا على منافرة تزيغ بك عن الهدى !

فاعلن باستخفاف صافع ، الا انه يشفّ عن مستكلب الحقد : أأقيم وزناً للثعلب ؟... ولكني ابصرت !

ـــ ابصرت ماذا ، يا ابن اخي ؟

ـــ نظرات وبسمات لا ترشح بالوقار . وسمعت احاديث بريئـة من الحشمة !

فهتفت به غضبى : محض بهتان . عمتك اكرم من ان تنفض منها ملاءة الجلال . انك لتتجنى على الحق في ما تذيع ، ايها النبيل العباسي !

ـــ أما استهواك اللقيط ، يا آمنة ؟... ان غنجك ، حين يبدو النغل لعينيك ، شاهد على ولوعك به . لسنا حمقى ، يا عمتي . فخفي من غلوائك ، والا ندمت. في العباسيين نبال ، وشفار !

فارتعدت . الا انها ظلت تنصر كرامتها.ما شذّت عن النهج السويّ.

قالت وفي ناظريها وشفتيها لهيب : انك لتذهب بعيداً ، يا ابا جعفر . سوء النية يعميك . ان يكن صدرك يضيق بابن سليط ، فليس لك ان تسلك ، للقضاء عليه ، هذه التعاريج . فالفتى فينا من الميامين . فاتقّ الله في التجني على الاروع البريء !

فدمدم عليها : ما هو بالاروع البريء في سوى يقينك . وما يحفزك الى الاشادة به سوى حنينك اليه . على اني واقف دون كل خطوة تجمع بينكما . لست ابا جعفر ان لم اقطع عليكما الطريق . حسبنا ان يدنس ابوه احسابنا . فلن نرتضي ان نكابد شر الوصمة مرتين . اعتدلي ، يا عمتاه ، ولا تحمليني على غسل اللطخة بالدم !

وارتعش سخطاً . وهدد بالنحر . سيزهق الارواح ان لم تتماسك عمته عن هواها السقيم . فصاحت آمنة ، وهي تمور غيظاً وارتماضاً : لا تنطق بالكفر . اذا بدا لك مني الشذوذ فندد به . اما ان تنقضّ بالتوبيخ على ذوي البراءة ، فانه للخطل السحيق . ادعوك الى الاتئاد في تشويه السمعة . فلا مجال الى التبكيت الا وقد فاجأت المسيء باساءته ، والمجرم باثمه . اما ان تقيم الظنة على الوهم ، فأنى تستجيز التشنيع والتنكيل ؟

فسدد اليها عينين تشتعلان كرهاً واضطغاناً . وزعق بمقت واستهانة : اراك تستطيلين في دعواك خلوص الضمير . الا مهلاً ، بيني وبينك صادق البرهان . فالادلة القاطعة ستكرهك على الجهر بالكبوة . وعند ذاك يحلو الحساب . فكوني له على أُهبة ، وما اراه ذا اجل بعيد !

فرهبت مقاله . واحست بانكسار في قلبها ، كأن ابن اخيها نذير شؤم

عليها . وانصرفت عنه مبرطمة ، موتورة ، تقول : ان تكن تملك هذا الوسع ، يا ابا جعفر ، فلا تنم عن المباغتة . اني لاحثك عليها ، وادعو لك فيها بالفلاح الوشيك !

واطلت كلماتها بشاحط السخط . فاحتدم ابو جعفر وتمتم بصوت أبحّ : سترى ، يا عمتي !

فأبت ان تكون دونه في الاستئساد ، واعلنت بماضي الاستخفاف : سترى ، يا ابن اخي !

واصطرع الخاطران ، كأنهما في جولة صدام . واجتهدا في قهر بعضهما بعضاً ، على ازراء بالشموخ المستعلي في الروحين . وانطلقت آمنة الى خدرها كالسهم المارق من الرمية ، تتلظى نقمة . وازمعت مناكدة ابن اخيها ، وليس له ان يعترضها في ما ترى من حقها ان تجري فيه بملء رضاها . فما ترتكب فاحشة ، وهي تبث ابن عمها خلجة جنانها . ستكون لابرهيم بن سليط ، مهما سعى ابن اخيها للقعود بها عن وثبة اشواقها . له ان يذيع في الحي امرها ، وان ينادي بنبذها . بل له ان يريق دمها ، الا انه لن يقوى على الامساك بها عن حب توغلت فيه ، وبات نكوصها عنه محالاً .

بيد ان عزيمتها الشماء لم تسلم من الرهبة . فليس ابو جعفر بالمغمور في الربع ، ولا بالركيك . فانها لتعرف من صلابته ما يهيب بها الى اتقاء خطره . وهو من اولئك المفطورين على الاقدام ، والصلابة . سريع الغضب ، سليط اللسان ، داغر الحقد . فاذا ما ثار حنقه ، اوجع . واذا ما نقم ، انتقم واباد .

وهال آمنة ان يثأر منها لحميّة العباسيين . ولم يغب عنها ما يرتع فيه

من وطيد مكانة ، ومسموع كلمة . فالحميمة تتفادى من مناكرته ، ليقينها بسعة حجته ، وخشونة طبعه . أفلا يقسو على عمته ، ويحطم فيهـا سامق الزهو ،وحميدالصيت ؟

وهلعت آمنة بنت علي.انها لترى نفسها في ورطة صعبة المخرج .فالحوائل تنازلها وتصدها عن مبتغى بليل ، خميل ، فـداه الروح . ونفرت من ابن اخيها . ابو جعفر في الربع طلعة ويل

واجمعت على ابلاغ ابرهيم بن سليط ما دهمها من متعبة.فليأذن بما هددها به ابن اخيها الملم " بما تترنح به من وجد .وتحينت السوانح .وظهر لها الفتى المالىء الحي بوارف دهائه ، واصيل همته . ونادته بصوت يرتعش ، ويحبو الى الهمس : ابرهيم ، عندي لك حديث مستفيض !

وتبين في قسامتها الالم ، فارتاع . هل ساورتها نازلة ؟ . . . ودنا منها بعينين جامدتين يسودهما الارتباك . أي ملمة سطت على الغادة اللعوب ، فبددت فيها مواهة الانس ؟... واستفهم بخفوت : ألا ماذا ، ايتها الآمنـة الامينة ، هل من كربة تعصف بنا ؟

فقادته الى ما وراء جدار عالي المداميك ، يشرف على فسحة مقفرة . وقالت بكمدة جيّاشة النبرة : وقف ابو جعفر على سرنا !

فاتسعت عيناه وتأتأ. هل درى ابو جعفر ؟... أيقف ابداً بالمرصاد؟... واستوضح ابرهيم بمندلع الغيظ : هل درى ؟

واوجس شراً . قالت بوجل : كشف الخبيء . وتوعدني بالقتل اذا مضيت في مبادلتك المودة !

فهدر حانقاً : أيتوعدك بالقتل ؟... ألا من يكون في الربع كي يستحل

لنفسه هذا السلطان ؟... اراه يعدو شأوه ؟... أيقضي عليك بالاذعان له ، وأنت عمته ؟... انك لارفع منزلة ، وكلمتك فيه هي الكلمة القاطعة. واني يدعي السؤدد حيث يطأطىء الرأس ؟... ما عرفت في قحته ، وفي غلاظة حسه . وبماذا اجبت ؟... هل نمت عن رد سهمه اليه ؟

فابانت بمضض : لقد انكرت . ورميته بالافتراء الشائن . قلت : « ما اسمعك الا تندد بابرهيم ، فأي ثأر لك عنده ؟ » . فحفزني الى قطع مودتك. فجاهرته بالمقال الصادع : « ولكنه ابن عمي ، فكيف اعزف عنه ؟ » . فدمدم عليّ مزمجراً : « أيكون هذا المعتلّ النسب ابن عمنا ؟... ابوه بالغ في تدنيس عرضنا ، فلا تزيدي في قبح اللوثة ! ».فصارحته بان دمك دمنا ، وبانك منا . فزعق : « لا تحمليني على غسل اللطخة بالدم ! » . قلت : « لا مجال الى التبكيت الا وقد اخذت الطالح بجريرته ! » . وتباعدنا وكلانا يغلو في التحدي . فاذا ما ابصرنا معاً بطش بنا !

— أيفعل ولي سيفي ورمحي ؟

وصاح فيه المضاء . أيتهدده ابو جعفر ؟... قالت آمنة تخفف عنه وقع المكايدة : ولكنه ليس سيد الربع كي تدين له القولة الفاصلة . سيد هذه الفجاج اخي محمد ، ابوه .وان الغرور ليركبه اذا ما عرض له في خاطر انه قطب العباسيين . وانا عمته . واني لارجحه في الحظوة !

فاعلن ابرهيم بن جردزده ، والتيه الفارسي يتأجج فيه : ليناز لني ان يكن يستطيب المناجزة ، وليدرك منيف شأنه . والله ، ثلاثاً ، لاجعلن من كبده ممراً لنصلتي . أيعادلني في المواثبة ، وانا سيد من هزّ رمحا ، وانتضى حساماً ؟... انه ليفاخر بما ليس فيه . فليحذر قسوتي عليه ، والا

عض" المندلع من امعائه . ما كان ابن سليط بالمتقهقر عنه في طيب النجار . ألا اكون عباسياً قحاً ، وجدي جده ؟... ليس علي بن عبد الله بن عباس سوى جدنا معاً . فاين الايثار في الاحساب ؟... ليسكن فيه أثره ، والا سكنت فيه خلجة الحنان !

فدعته الى الاتئاد في الغضبة ، هاتفة به : هذا ابن اخي ، ويحك ، يا ابرهيم !

فاجاب والغل" يستطير فيه : وهو ابن عمي ، يا آمنة . الا انه مال الى اختطاف انفاسي . فدعيني احاسبه في دمي !

قالت وقد رهبت استطارة حفيظته : ولكنك ما تفتأ تعلن ان دمك دمه ، فهل تقضي على نفسك ؟... هبه لي . انا عمته . آمنة بنت علي تخاطبك ، يا ابن سليط !

وليست على جهل به . فهي تعرفه على جائح صولة . سهمه لا يطيش . وعزمه لا يهون . يقتحم العرين ويجدل الليث ، كأنه يصرع ظبياً . فالغزو عنده مجلس خمر . والاعداء في رأس سنانه اشلاء . والفلوات ميادين جواده . يطوي البيد ، ولا كلال . ويسهر الليالي في الطراد ، ولا عياء ، ولا لهاث . ويجيد انتهاز الاوان المواتم . فلا يسلم مناوئوه من احابيله ، وهو يصطادهم كالزرازير ، افواجاً افواجاً . وليس لهذا القنّاص ان يرحم في مناوأة

ولكن حبه لآمنة اخمد فيه الفورة . انها لتتشفع اليه في ابن اخيها . قال يسايرها في المشتهى : غلبتني فيه على امري ، يا ذات البهاء الاوفى . وحقك ، لن اصيبه بخمشة ، على ان يلاين في جفائه التليد . فلست له عدواً ، وانا الخدين الامين . فما يؤلمكم يؤلمني . وهل لي ان اخرق عرضي بيدي ؟

فنشطت لسمو روحه . انه لمن ذوي الخلق المنيف . وقالت تكبر فيه

النبل الطامي : عوفيت. ليس الكريم بمن يحمل الحقد . ابو جعفر على دمامة روح . فكن انت على نقيض طبعه ، والغد ملء يديك . فما يسود من يغلي بين حوانيه الضغن والحسد . اني ليائسة من سموق ابن اخي هذا . فلن تقوم له قائمة في المجدّين ، وما يطيق ذا ضلاعة . ألا اين ترى ان تجمع بيننا اويقات النجوى ؟... فهل يسدّ علينا ابو جعفر المسالك، فنضيق ببث اشواقنا؟

فسخر بدعوى ابي جعفر . قال : كل مجال مباح لنا . وليس لابن اخيك ان يقف بنا عن منازعنا . ففي كل ناحية لنا ملاذ ، وفي كل مجلس لنا وسعة . فاني شئنا اقمنا !

فطلبت اليه برفق ان لا يجازف بها ، وليست تأمن شر المناكد . فهتف بمتوقد الحزم : أترهبينه ، وانا درعك ؟

فقالت ببعض الخشية ، تستغيث به من الغطرسة الفاشية في ابن اخيها : ولكنه على فادح غلاظة . فاخاف ان ينتهك احدوثتي بما يشينها . لنقم منه على حذر ، وسيرصدنا بعين تنبو عن الرحمة !

فاطرق لهنيهة خاطفة ، يبحث فيها عن المأوى الآمن . ثم اعلن ببهجة ، كأنه وقع على المنشود : ألا تكون الواحة ذلك الملجأ الواقي ، وفي اكنافها الدعة والسكون ؟

فجارته في الاطراق ، كأنها تسأل نفسها ، هل تسقط على الامان في الواحة الظليلة ، الرطبة الاحناء ؟... واعلنت بعد روية : لا بأس ، ليكن فيها ملقانا . ولكن هل ننجو في افيائها من عين ابي جعفر ؟

فاذاع بغيظ : وهل له ان يغالي في الرعونة ، فيلحق بنا الى الاقاصي ؟

فابت ان تمضي في اظهار المخاوف . وقالت وقد ازمعت المخاطرة ،

معتمدة على نجدة طالعها : ستجدني هناك . ولك ان تضرب الموعد ، فاجيب !

وكانت الواحة المثوى الرغد ، المبيح للاشواق مدى انطلاقها . وما فتئت حبابة ،الجارية الحبشية ، رفيقة مولاتها الى المزار الرفيق الجناح . وانقضى عهد مديد على هذه المصادفات العابقة بلاعج الحنين . على ان ابا جعفر احس بان عمته تنأى ، عن الربع ، في مواعد تتفق عليها وابن سليط . وكمن لهما في صعيد الواحة ، وفي نيته ان يبطش بابرهيم وبآمنة معاً . غير ان المقادير صانت العاشقين من اذاه ، وقد سلكت آمنة وجاريتها طريقاً ، وجرى ابرهيم في نهج آخر ، مبالغة في الحذر والوقاية

وابصر ابو جعفر ، وعيناه على دروب الواحة ، ابرهيم بن سليط ينسلّ من اسوار النخيل . فرقبه حتى دنا منه . وحدجه بباصرتين تغليان موجدة ، مستوضحاً بصوت أجشّ : اراك تكثر من التردد الى هذه الفجاج ، يا ابرهيم ، فما يشغلك فيها ؟

فزوى ابرهيم ما بين عينيه ، واعلن بتمارض الهزء : وهل لك أن تلمّ بجميع اموري ، يا ابا جعفر ؟ ... ما اراني ابدي حيالك هذا الفضول . فهل سمعتني استطلعك خفاياك ؟ ... لي في هذا المنبطح هوى جئت اقضيه ، فهل شفيت بهذا البيان نهمك اللجوج ؟

وما انفك يرنو اليه ساخراً ممتهناً . فاستشاط ابو جعفر غضباً ، واشتدت سمرته لفرط الحدة . وغارت عيناه ، كأنهما تتحفزان لنفث الحمم . وصاح ، وفي صيحته اظفار خوادش : ألا دع عنك الاستطالة ، ولسنا نجهل من انت . واياك ان تجهل من نحن ، وما تعدو كونك ملحقاً بنا . هذا الاشر

فيك يتجاوز تخمه . فاعدل عن قحة تطعمك ما لا تطمع فيه . نحن السادة في هذه الوسعة من الارض ، وعلى مثلك ان يحتشم فينا !

فما انجلت عن ابرهيم نبرة التهكم . قال يستهين بمن يزدريه : مهلاً ، يا ابا جعفر . انك لتجري في معبر لا يعود عليك اقتحامه بغنم . كل ما اعلم اني منكم آل البيت . وابوك شهيد على صحة انتسابي اليكم . وان يكن سليط ، ابي ، ابن غيّة ، فانت ابن جارية . وما كنت اقوى على النفاذ الى سر حقدك عليّ . فهل خاصمتك في شهوة ؟ ... وهل افتريت عليك في بهتان ؟ . . . . جئت اليكم مساعداً اميناً ، فهل ترى من حسن الرأي ان تناكدني ؟ ... ليس لهذه المكايدة ان تكتب لكم السؤدد ، ومن شأنها اقصاء الانصار . فاين طول الاناة ، واصالة الحجا ، وهما ركنان لا غنية عنهما في تشييد الدول ، وسياسة الناس ؟

فجلجل ابو جعفر ، وقد خلع نياطه ابن سليط ، وهو يغمز منه كابن جارية ، فيعدله به ، مع كونه ابن نغل : انت فينا كاللغو ، وما ترفع هاوياً ، ولا تقوّم منآداً . وليس التحاقك بنا الا شراً علينا . فيعيّرنا بك عارفوك الانطواء عن العفة . ولا يشوقك ، مع هذا العيب الاثيم ، المتأصل فيك ، الا ان تطاولنا في نقاوة ارومتنا . فتغرّر بآمنة ، عمتي ، وتستدرجها الى الرضى عنك حبيباً ، فزوجاً . ألا اتقّ الله في نفسك ، والا نزلت بك الدواهي غير مشفقة . فاذا جاءني عنك انك رفعت ، الى عمتي ، عيناً مستدرجة الى حرام ، زلزلت بك وبها الارض . ما تعوّدت غيد الهاشميين ان يدلفن الى منقصة !

فهتف يدحض الظنة : رويدك . ليس ابن سليط بمن يهاب المنايا . فان

لم تعجم عوده في النضال ، فلتنطلق يمينك في سبر الغور . ألا اشهر حسامك ونازل من تطعن عليه ، وتعبث به . وحق من صاغني من عدم ، لن ارتضي هذا التحامل عليّ تواثبني به بلا هوادة . فانصفني من نفسي ان تكن تجدني عليك ثقيلاً . اما عمتك ، فهي في نقاوة ماء المزن . وليس لعين ان تجرؤ على النظر اليها بريبة . واني للحقير اذا خطر لي ان أختلها عن نصاعتها. فلا تتهم الابرياء في طهرهم ، يا ابا جعفر !

فاخترط ابو جعفر حسامه لا يتباطأ . وحاكاه ابرهيم في المهزة . وصاول غمر غمراً . وتساقطت النصلة على النصلة . وتطاير الغبار من تحت الاقدام الضاربة وجه الرمل بجائح العنف ، كما تطاير الشرر من احتكاك الشفرتين الماضيتين . واحس ابو جعفر بأنه يكاد يلتوي . الا ان صرخة علت في الثغر مزمجرة ، مروّعة ، استنقذته وهي تهتف بحنق ودهش: على رسلكما. أتقيمان على نفار يستدعي المحو ، وانتما من ابناء الاعمام ؟... ألا ارحما شبابكما !

وانقضَ عليهما الصارخ كابوساً مدوّخاً . فتنفس ابو جعفر ، وحمد الله على النصرة . هبط الانقاذ في الاوان . وامسكت النصلتان عن المطـــاعنة. والتفت المتبارزان الى الفارس المهيب بهما الى الكف عن الصراع . وعرفاه. فهو عبدالله بن علي ، عم ابي جعفر . وترجل وهو يصيح بهما لائماً ، منددا : أتتقاتل كي يشمت بنا الامويون ؟. . . ألا ما يدعوكما ، وانتما الصفيّان ، النسيبان ، الى المناكرة ؟ . والله ، اقلقتما روعي . فما بنا يا ، ابا جعفر ، يا ابن اخي ؟... وانت اي شدة تحملك على تلطيخ شفرتك بدمك ، يا ابرهيم ، يا ابن عمي ؟... أذئاب نحن ، فيأكل بعضنا بعضاً ، ام اخوة وخلصـــان ، فنتآزر ونتساند ؟ ... ألا أغمدا سيفيكما وتعانقا . فليس لابناء الاعمام ان

يقيموا على عداء . ويحكما ، ماذا ابقيتما للامويين من طعنات ؟

وحفزهما الى التصافي . ليس لهما ، وهمـــا سليلا دوحة واحدة ، ان يتصادما . ومال الى الوقوف على الدافع الى الخصومة . فاي بغضاء تستعر بين الحواني ؟... هل يتناحران في جليل ؟... قال بمتفاقم العتب : كلاكما واعد الغد ، فما يحملكما على التطاحن ؟... هل لي ان انفذ الى صميم النفار ؟

فقال ابو جعفر ، وقد ايقن ان ابن سليط من ذوي السواعد المجدولة ، فلا تأخذه مجاولة : لا شيء ، يا عماه !

ولاح لعمه يرتجف . فالمواثبة هزت روحه . وصلابة ابن سليط اهابت به الى الخشية . فالتفت عبدالله الى ابرهيم يقول بدماثة في المنطق : هلا اوضحت لي ، يا ابرهيم ، ما جمح بكما الى المصادمة ؟... قادني الحظ الى الفلاة في اثر جواد شرود ، فانقذتُ بعضكما من بعض . ألا ما هذا الجنوح الذميم عن مدرج الحلم ؟

فاعلن ابن سليط بشموخ العابث بسامق الجبروت : والله ، يا ابن عمي ، ما اعرف للجفاء علة . طويت صدري على المكارم اسخو بها على قومي ، فتبرم بي ابو جعفر عفواً ، كأني من المفسدين . ألا ماذا بدا له من اعوجاجي كي يقلوني ؟... ان اكن ذلك الثعبان ، الزاخر الشدقين بالسم ، فليسحقني ، وهو في حلّ من دمي !

فضحك عبدالله بن علي ، وقال يمهد الى المسالمة : يعز عليّ ان اسمعكما تتخاطبان بهذا الكلام الفجّ . ويؤلم روحي ان اشاهدكما في اعتكار ضمير . فلا تصفو مهجة لمهجة . ووددت لو ألقيت اليكما سمعي ، وانتما تعاهدان على مفاجأة الخليفة الاموي في دمشق . أما سقطت اليكما اخبار

الخليع الوليد بن يزيد ،وما يصحو من سكر ، ولا يكرم رباً ، ولا نبياً، ولا كتاباً ؟ ... ولى هشام بن عبد الملك ، ولن يقوم في الامويين من يسدّ مسده .فشمّرا واضربا السكّير المارق في كبده،واقبضا على المقاليد. ان ساعة الحق لتدق ، فحذار ان تفوتكما النهزة . ومن يغفل عن عدوه ، ليلهو بنفسه ، ضاعت ايامه عليه !

وسعى للتوفيق بينهما . فقال ابو جعفر باضطغان الموتور : دعني من ملاينة من لا تنجع فيه غير الشدة ، يا عماه . أبجنا لهذا الدعي الالتصاق بنا، فاستطال في الغي . ما لمثله غير السيف اللهوم !

فصاح ابرهيم بمستعر الحفيظة : لسانك ، يا ابا جعفر . والله ، انك لتغلبني فيك على امري .أتأبى الا ان تمضي في المناوأة ؟...بحياتي ،ياعبدالله ، افسح لنا في المناجزة !

فقبض عليهما عبدالله بن علي هاتفاً بقسوة : لن افسح لكما في سوى العناق . فتصافحا ، نعمى عيني ، وليطبع كلاكما على خد اخيه قبلة الرضوان . فما انتما من سوى ذرية محبوكة العرى ، وكأنكما شقيقان !

وغالب فيهما ما يستوحش بعضهما من بعض . وفرض عليهما المصافحة ، فالمعانقة ، وهو يقول بارتياح الى تبديد الاحنة : الآن طاب لي الايمان بالغلبة . فالقوة في الوحدة . والانخذال في الشتات . وهل لنا ان نذل قاهرينا، ونحن على مقاطعة ؟ .. ما اريد لقومنا ان يتفرقوا ابادید ، فيمسوا احاديث !

وقادهما الى الربع مستبشراً خيراً . على ان الغلّ ما زال مستحكماً من القلبين الفتيّين . فاذا تظاهرا بالمواءمة ، فما نبذا الموجدة ، وهي

ترجحها مكنة . وما كتم عبدالله بن علي ما اتفق له ان ابصر . فسرد في مسامع الحي ما توهج في عينيه من رمضاء . قال بمرارة المكدود : ما حسبت نفسي اقع على تلك الصدعة ، وانا في مطاردة جوادي الارعن ، النابي عن الحمى ، وقد جاوز الواحة . فكدت اعمى والنصلتان تتجاولان ، فتنفثان الشرر . وهل لمن وحــدت بينهما المشارب ، والاصلاب ، ان يتناحرا ، فيسقيا التراب ذكيّ الدم ؟ ... كلاهمــا على ضلاعة . واني لاضنّ بنا وبهما ان تشبّ بين جوانحهما لواعج الاوتار . وحفزتهما الى المصالحة ، وكان ما ابتغيت . فانفحوني بالتهاني ، وقد وفقت بين اخوين !

فتعالت الضحكات كصاخب الموج ، وثابة ، بعيدة القهقهة . وحدق محمد بن علي الى ابنه ابي جعفر ، والى ابن سليط ، يقول ببسمة ملوءها التبكيت المجلوب بطراوة المخمل : أهذا ما اعقد عليكما من رجاء ؟ ... خيبتماني في اتكالي على اخائكما : ألا ما للخناس ينفخ في عروقكما خبيث الدغل ؟ ... أنسيبان ، ام خصيمان ؟

وآمنة سمعت ما يهتف به اخوها . وشهدت بجانب الواحة ، من وراء فجوات الكثبان ، ما نشب من نزال بين ابي جعفر وابرهيم . فهلعت وكاد فؤادها يطير شعاعاً . أتبدو للمتبارزين ، فتفصل بينهما ، ويدري ابو جعفر انها كانت على موعد وابرهيم ، فيرسخ في يقينه سوء ظنه بها ، وتقوم في الربع القيامة ، وتجتاحه الفضيحة ؟ ... وكلما وقعت الشفرة على الشفرة احست آمنة بان للسيفين مغرزاً في اضالعها . وتهمّ بالوثوب الى المتصارعين بدافع الخوف عليهما . ولكنها تذكر نفسها ، فتبقى مكانها ، وهي على غليان من لهفة . فتتمزق وما تستطيع صراخاً . وتوجع ، وما تقوى على افصاح .

وتئن ، وترهب صدى أنّاتها. واشتهت نجاة ابرهيم تؤثره على ابن اخيها ، بل رامت سلامتهما معاً. وما زال عنها الرعب الا وهي تبصر اخاها عبدالله بن علي يقبل على المشتبكين في المصاولة ، ويمسك بهما عن التناحر الاثيم . فتنفست عالياً، واستندت الى منعطف الكثيب، وهي تغمغم بارتياح في اذن جاريتها: شكراً للاقدار ، يا حبابة . فقد اقصت عنا شبح كارثة اكول !

وتجلى لها ما يقاسي ابرهيم من حقد ابي جعفر. وهالها ان يبلغ بينهما العداء هذا المستوى من الفحولة ، فقلقت على ابن سليط. لن يفسح له ابن اخيها في المناءة بخفقة ولوعه . وشعرت بان الصدمـــة زادتها شغفاً بابن عمها ، فقالت في ضميرها : ساذود عن حرمته بنفسي . له قلبي ، وحياتي . فاذا ما عراه الضير ، فاني لا انتشله منه بيدي . فدته روحي !

وصممت على الفداء . ستبذل ايامها في درء الغواشي عمن تجنح اليه . ورغبت في مرآه. اين هو لتعالنه بنزوعها الى السخاء بدمها في رد الاذى عنه؟... ورنت اليه من احدى الكوى ، وقد ضمه المجلس الحافل باقطاب العباسيين . وابصرها فتنهدت ، ودمعت عيناها . فكاد صوابه ينخلع . أتذرف الدمع ، ولمثلها يضحك الرفاه ، ويحلو الجذل ؟

ومال الى مرآها ، والى سؤالها عن الشجو العادي عليها . فما يدفعها الى اللوعة ، وقد وهب لها من نفسه اصدق هيام، وبات منها على متوقد الجوى؟... واشتهى ان ينفضّ المجلس ، وان يخلو له الجو ، ليهفو الى من نظرتها فتنة، وكلمتها تنزيل . وما ادرك المرجاة الا بعد انقضاء فترة استطال مداها . ونهض لا يخشى العيون ، كـــأنه اعتزم الكشف عن جبينه . ودلف الى حيث تعوّد ان يلقى الحسن المخمور . وأطلت آمنة بصباحتها الغضيرة ،

وهتفت به بمرير الجزع : هل اغلظ لك في القول ، وشهر عليك السيف ؟

فهز برأسه استخفافاً،وقال:أيتراءى لك ان السيف يخيفني ؟... ان للشفار من هذا الصدر درعاً خاضدة. فما لنصلة تمتد الي" الا وجدت في" حاطمها. ولولا حرمة العباسيين ، وانا منهم في البحبوحة ، ولولا فرط هيامي بك ، لنعت رمال الصحراء الى الثقلين ابا جعفر ، ابن اخيك !

فغمغمت لهفى : مهلاً عنه . ان ظلك ليرهبه ،وقد أمضه حسن بلائك . فاصبر ، ولا تعر"ضني للكربة ، والا قضيت نحبي . اصبحت لا اطيق . ان يكن ابو جعفر فجاً ، فكن انت يانعاً . وهل يضيمك ان تكبح ، لاجلي ، ما يدهمك فيه من وتر ؟

فزفر وقال من صدر زاخر بالشجن : لاجلك كل ضير يهون !

فاستوضحته في ما يشجيها: وهل لنا ان نتلاقى بعد هذا الاحراج ؟

فاجاب لا يبالي : سنلتقي ابداً ، كأن لم يعتكر صفاء الافق بسحابة . وان يكن لابن اخيك طويل مخلب ،فلينشبه في هذا النحر !

وازدرى عنجهية ابي جعفر . وآمنة عبثت ،نعمى عينه ،بالخطر المتوعد، وقد امست لهواها طليقة الاعنة . قالت وما اشتاقت الى سوى خلوات الوجد تحيا بها ، وتأنس بمواتعها : واين يجمع بيننا الزمن ؟

فما اجهده الايضاح . قال كأن لا خشية تمسك به ، ولا رزيئة تصول: ليس لنا ان ننفر عن منتدانا !

— في الواحة ؟

—فيها . وماذا علينا ونحن نعود اليها ؟... أتهولك المفاجأة ؟... والله ،ما احفل بزيتها وقطرانها . فهل تأخذك في التلاقي رهبة ؟

فرنت اليه بذهول ورعب . أيغالب النوازل ، ولا يحترس ؟ .. . اما يشفق عليها وعلى نفسه من الداهية ؟ ... وتجلى لها في نظراته الحزم ، وفي وقفته التحدي . فجارته في الازراء بالمكاره ، مجذوبة اليه بقوة الاستهواء ، المضطرمة في روعة منظره . وقالت بعزم جموح : انا في رضاك . متى تقرّ الموعد ؟

— بعد غد اذا شئت !

فوافقته على الزمان والمكان . لا سلطان عليها لابن اخيها . فالسيد هو ابوه . ودرجت في اليوم المضروب الى واحة النخيل ترافقها جاريتها حبابة . وانتظرت ، فما بدا ابرهيم . وتلفتت الى كل ناحية ، فما لاح لها منه اثر . فقلقت وارتعدت . هل رصده ابو جعفر ، فاودى به ؟

واستغاثت بجاريتها ، وفي نضارتها سهوم : ألا ماذا اتفق له فتأخر عنا ، يا حبابة ؟

وحبابة مثلها لا تدري . فانعقد لسانها وجلاً ، مع سعيها للتخفيف عن مولاتها . وخافت ان تتكلم ، فتتعتع في قولتها ، وتزيد في هلع آمنة . واقامتا في الواحة على وجوم ، وكأنهما في جحر الافاعي ، وكل ما حولهما فحيح

وما انفكت اعينهما تثب الى كل صوب ، كالفراخ المروّعة . ودار الرأسان في كل ناحية ، كالاكرة على لولب . وصمتت الصحراء ، كأنها المقبرة . وزمّت الواحة شفتيها ، كأنها خلعت عنها الهينمة ، والزقزقة ، والخرير ، والنداوة . وباتت في الرمل الجافّ كئيبة ، كالحة ، اشبه بجذع نخلة يبيس

٧

كتسبيحة العندليب ، في فم الضحى ، علا من صدر الواحة صوت جليّ ، تنبض فيه بواكير الرجولة ، هاتفا : آمنة ، آمنة!

وتألق فيه وهج الرفق ، وندى الحنين . وسقط على آمنة وجاريتها كأنه الماء الرسيل ، يروي الهيوف . فتنفست عاليـــاً ابنة علي ، وارتفع صدرها المنتبر ، وانخفض ، وصاحت بملء فمها : ابرهيم ؟

فامتدّ الى سمعها الجواب صافياً كالفلّ النصيع : اني لهو . تعالي !

فركضت الى مصدر الصوت ، تلهب قدميها اللدنتين ، النسيقتين . وابصرت ابن سليط يبسم لها بسمة الحب الطافح بالايمان ، فاشتد اندفاعها اليه ، وبودها ان تضمه ضمة الافتتان والارتياح . انه لفي نجوة من الشر ، فيا لفرحتها !... وصاحت وقد امست بقربه : خلخلت نياطي . أتدري ما انزلت بي من رعب ، وانت تتباطأ عني ؟ ... ألا ماذا دهاك ؟

فاجاب وما ينفك يبتسم : زعمت ، لتضليل الظنون ، اني شاخص الى نهر الاردن . وبعد لفّ ودوران انتهيت الى الواحة . ولم اشأ ان ادخلها من ناحية الخيمة ، فولجتها من وجهها الآخر ، لئلا تقع عليّ عين . أتكونين في قصيّ ارتياع ؟ ...وحقك ، ما ابتغيت الا ان اصونك من الشين والمتعبة ، فاكرهت نفسي على سلوك التعاريج !

وقبض على راحتها البضّة . وفاحت منها رائحة المسك ، فانتشى ابرهيم ،

وغفل عن لوءم القدر . بل ازداد هزءاً من قحة المباغتات ، وامسى وقفاً على شوقه وغرامه ، يفنى فيهما ، ولاجلهما . قــالت آمنة ، ولم تكن دونه استرسالا الى الهوى البليل : شخص لي انك في ملمة . وهدّ جاشي ان اكون وبالاً عليك ، فما تماسكت عن الارتجاف ، كأني في عــاصف الزمهرير . اصبحت أوثرك على نفسي ، فلا تجازف بمهجتك في سبيلي ، وانت اعز عليّ مني !

وألقت رأسها الى كتفه ، وتأوهت . انها لشقية في حبها ، وليست تقوى على التظاهر به . واذا ما درجت اليه احتجبت بالسدول ، كأنها ترتكب فاحشة ، مع وافي حيطتها من اجتراح الاثم ، وما زالت على طهر قميص .

قال ابرهيم ، وقد طغى عليه من طامي الحنين ما تضاءل به عن التعلل بالمنى : أنظل ندلج في هذا الليل البهيم ، يا آمنة ، فلا يطلع علينا صباح ؟... متى أُقبل على اخيك محمد بن علي ، فأقصّ عليه مبلغ نزوعنا الى الالتئام ؟... اصبحت من امري في بلبال ، يا ابنة عمي . وعليّ ان اتكلم . وما يسكت عن مطلبه غير الماكر ، والجبان !

وانها لتضارعه في المبتغى . وما تميل الى سوى النجاة مما تلقى من رهبة واحراج . واشهى ما تصبو اليه ان تلمّ بمصيرها . قالت تؤيده في الملتمس : افعل ، افعل !

فاجاب ، وما كان بالمتردد في المسعى : في هذه الليلة ساخلو باخيك ، ونتفق على امر . انت لي . ولن تقعدني عنك المتالف . واذا تصدى لنــا ابو جعفر ، بعد موافقة اخيك على زواجنا ، فلن يقع على سوى الاخفاق . وسنضحك منه طويلاً ونحن نحرز الوطر !

فابتسمت ، كأن يشوقها ان تغلب في ابن اخيها طمحاته ، وان تظفر بالاماني اللطاف . قال ابرهيم ،وقد انتفض خاطره بغشاوة من ريبة :ولكن أينصرنا اخوك في الشهوة ، ام يخذلنا ؟... أيبدو لك منه انه يمانع ؟ . . . اعرفه على اكرام لي ، وعلى اجتهاد في اجابتي الى رغائبي . فهل يتبدل وانا اسأله في قلبي ؟

فارتبكت في الايضاح . أيزف محمد بن علي اخته الى ابن سليط ؟. . . انه ليعادله في المنتمى ، وكلاهما عباسي . ولكن اين الاصل من الفرع؟. . بل اين الصافي من العكر ؟... ان في ممتد ابرهيم بن سليط للوثة تتجانف عنها نقاوة الدم العباسي الصرف ، فهل يتعامى محمد بن علي ، ويجيز الادغام المأمول ، وقد جنح اليه قلبان يتلظيان وجداً ، ويعبثان بكل حائل عنيد؟

واضطرب ابرهيم بن جردزده . هذا الاحتيال على العباسيين إن يكن يقرّه بكير بن ماهان ، فما يؤخذ به اقطابهم ، وفيهم ذوو رأي ، وصدوف عن المعاير . وان هم اقتنعوا بصدق انتساب ابن جردزده الى سليط ، ذلك النغل المعتزي اليهم ، فلن يعقدوا على احدى فتياتهم لمن اعتلّ نسبه ، وفشا في معدنه العيب

واوجست آمنة شراً ، وهي الواقفة على مدى نفرة قومها من الزنخ في النسب ، وما يفاخرون بسوى صحة النجار . فقالت تكشف عن منازعها : الكلمة الفصل بين شفتي اخي محمد . ولا يبدو لي منه انه يرشح بممانعة . على انه اذا فعل فستجدني ابــداً في مودتك . نشأت على هواك ، وسأموت عليه !

فاتلقت فيه الاب . وابصرها تبكي ، فاشتد به الالم . أليس له ان يهنا

بمتعة الفؤاد ؟... وافاض بالزفرات ، وقد هاله ان يصدمه التوفيق في خلجة غرامه . أما يساير الزمن ، وله في كل بغية جفوة ؟... وتعانق الصفيّان . وقال ابرهيم يزيل عن آمنة الكمدة : هلا وثقت بالحظ ؟ . . . قد يكون لهذا المكابر في العطف على الارواح فلتة من رضى . فيجمع بيننا ، ويخمد في مناوئينا فائرة المشاكسة ، فيسلس لنا العيش ، ويطيب الرفاه !

فابانت ، والدمع يترقرق من عينيها الدعجاوين لؤلؤاً ناصعاً ، رطيباً : يضيم روحي ان اخيب في الشهوة ، وقد بتّ احيا لها . فاذا لم ادركها ، أفسد الخذلان عليّ الرغادة . واني لارى في قومنا من الحرص ، والعنت ، والعنجهية ، ما يقيمني على شفار ونيران ، كأن النحس يدرج في خطاي !

فهاج فيه الاعتزاز بمكانته ، واعلن بشدة : ولكني في خدمة اشواقك، يا آمنة . اذا اشاح اخوك ، محمد بن علي ، عن مبتغى جناني ، فاني لاستعدي عليه السوانح للظفر بك . والسوانح في قبضتي . وسيبدو لك اني مذللها . فلن يستعصي الدهر على ابن عمك ، ولي من عزائمي ما انيخ به الشرود الجموح !

وفزع الى ساعده وباتره في تدويخ الحواجز . فلن يبيح للمقادير ان تعبث به ، وسيخضد شوكتها . قالت آمنة ، وما ابتغت له الا الفوز ، وفي نجحه فلاحها : اني لواثقة بكلفك بي . فانت على صدق في الحنين . بيد ان ثقتي تنبو عن الدهر الموارب . فما يحبو الغادر في صعيد سويّ ، وما يألف غير النكوص والتعريج . أترى اكرم من هوانا ، واوطد من وفائنا ؟... كل ما فينا ينادي بضرورة التئام شملنا . على اني اخاف القدر الرجيم ، وما ينهد الى سوى المناوأة ، كأن يروّعه ان ينعم بالرغد ذو

حس!

فكادت تفت ّفي ساعده . وهتف بها : وما يقيمك على هذا التشاؤم الكالح الاسارير ؟... صدعت همتي !

فهزت برأسها ، كأن المصاعب تلوي فيها نضارة الرجاء . وقالت : يخيفني ابو جعفر ، ابن اخي . فظهر امس لي بمظهر الراغب في التقويض . كأن ايامي اضحت وشيكة الذبول. رشقني بنظرة كرأس السنان. وامتنع من الجلوس الى المائدة ، وقد ابصرني اليها . وانقضت السهرة ولم يفاتحني بلفظة . واذا ما وقعت العين على العين، تطاير من بين اهدابه الكره الحاصد، كأني له في القاهرين . وابو جعفر ، كما تعلم من امره ، ذو مشيئة في الربع . وتهولني نقمته ، ومايفل ّلها غرب !

فصاح جانحاً الى الازدراء : أيخيفك ، وهو السقاطة ؟

فامسكت به عن الاستطالة في التحقير ، قائلة له : لست اختلف عنك في الموجدة عليه . بيد ان مكانته فينا تتكرم عن الزراية. فاذا صبا الى ايذائنا، ملك الوسع . أما تقوى على استمالته اليك ؟

فدهمته الحيرة . أيلاطف ابا جعفر ، وليس بين الضلوع انتفاضة من مخالصة ؟... وابان مكرهاً: ما دام يخيفك، فساحاول ان اصافيه . ولكن هل يصفو ، وهو الحرون ؟

وحار في امر هذا الصعب المراس. ليس يدري كيف يستعتبه ،والضغن فيه منيع . قالت آمنة : اذا اتفق لك ان تصافيه ، فلا تتهاون في المسالمة . ولن يكايدك ، وانت له الخدين . أما انا ففي جنوح اليك لا يخمد ، ولا يبلى . وساقيم ابداً بانتظارك ، كما يرقب الصادي المـــاء ، والساري طلوع

الصباح . ولن اهنأ الا ونحن على طيب متعة ، وهوى حلال. فدتك روحي من أليف وسيم ، كريم ، تنزّه عن العيوب !

وتنهدت . ان في نفسها الى ابرهيم بن سليط مديد نزوع . وهل لها ان تقيم منه على سلوّ ، ويكاد يكون ، في عرفها ، زينة الربع ؟.. . لم تقع على نديد له في الحماسة ، والنجدة . فكل غارة قام بها خصوم العباسيين ، على الحميمة ، ردها هذا الاروع الاغرّ ، وقد رجحت شجاعته سنه . وكل سعي للتنكيل بالامويين كان له فيه جميل الرأي .ونادى ببث الدعوة في الحجيج . فلينطلق انصار العباسيين الى مكة والمدينة ، وليشروا على من يشهدون فيهما ،الشهر الحرام ،راية العصيان .ومن يتمخض ذهنـــه بهذه الدوامغ فلا يعزى الى الحثالة ، ولا يغضى عنه لضؤولة في الحجا ، او لعياء في الوكد

وابرهيم بن سليط حرص على آمنة حرصه على ما انتدبه له بكير بن ماهان من مجهود . ان هي الا ريحانة القلب ، وبهجة الخاطر . قال : بأبي انت وامي ، لو لم يكن لي في الحميمة سواك ، لكفاني . وكيف لا اذود عن هذه التربة بدمي ، وانت تثوين بها ؟ . . . لا ، والله ، ساكون لابي جعفر من اوفى الخلان . وساحمله على الايمان بولائي له ، وبجهادي في رفع لوائه ، وانبساط جناحه. واذا ما مضى في ايلامي، وفي اقلاق غضارة أنسي ، فساسكت عنه ، كرمى عينك . اني للمجامل في كل هوى ، على ان يرضى ابو جعفر ، ويكفّ عن الايذاء !

فهتفت له تكبر فيه الفداء الغرير .قالت ورأسهـــا الى رأسه: سلمت ، يا ابرهيم . انك لتزجي اليّ الدليل تلو الدليل على خالص حنانك . دمت لمن ترى فيك النجيّ الامين !

وكادت الشفاه تتلاقى . وهذا السخاء في التفادي يحلل لذوى العناق . الا ان صيحة ،كالفحيح ، وخزت الخاطرين الغائرين في خدرَ الصبابة. فاستيقظا من نشوتهما على بغتة.والتفتا معاً بوهلة الى الصائح الملهوف.واذا بهما يبصران الجارية الحبشية ، حبابة ، في مندلع الذعر ، وقد وثبت اليهما وفي شفتيها نبأ يتكشف عن شر مستطير

ألا اي فاجعة تنذر بالانقضاض ؟... وحدجاها باعين نائثة ، وسيعة . ورقبا ان تتكلم ، فتفضي بما يعروها ، وكلاهما على لاذع النار . وانفصل بعضهما عن بعض لاتقاء طلائع نائبة يلمسانها ،مع جهلهما اياها.وتمتمت حبابة، وكل ما فيها يميع : ابو جعفر ، ابو جعفر !

فهزت فيهما بقوى الهمة وهي تتلفظ بالاسم .أيكون ابو جعفر بالمرصاد؟... هل تأثرهما لهتكهما بعد خيبته بالامس فيهما ؟... وخاف ابرهيم على آمنة اكثر منه على نفسه . فما يبالي امر ابي جعفر كمنازل يصاول قرنه . الا انه خشي ، من هذا المكتوي بغلّه ، على الفتاة العباسية النقيـــة العرف ، وما زلت بها قدم ، ولا التوى لها شموخ . ورمى الجارية بنظرة رمداء يهيجها الالم والغيظ ، واستنبأ : واين هو ، يا حبابة ؟... خذلتك القدرة !

فاشارت الى مقصبة تقتعد كبد الواحة . وقالت وفي جوارحها رعشة ، وفي كلماتها لعثمة : هناك بدا لي ، هناك !

وظهر القرم العباسي العنيد بضغينته ونقمته . وخندق في جبينه الشر . وجاول صدره طرب شرس . وما كان وحده ، وقد ظهر وراءه صالح ابن علي ، وداود بن علي ، عماه . فزعقت آمنة من كبـــد توشك ان تمسي رماداً : يا ويلي !

وسقطت الى الارض جلموداً دحرجته الى الهوة رعونة السيل . وهفت اليها حبابة صارخة : سيدتي ، سيدتي . انهضي ، انهضي . واحبيبتاه !

وشعر ابرهيم بن سليط بوقع النازلة ، كأن صاعقة قطعت حسه ، فلم يتحرك ، ولم يتكلم . وصرخ به ابو جعفر من حنجرة اثخنها الدغل جراحاً : والآن ، يا ابن الخبيثة ، هل من سبيل الى الانكار ؟

فلم يجب ، وما انفك يلوذ بالصمت . لا جواب عنده لهذا المتجسس عليه . وجلجل صالح بن علي : أتخوننا في نسائنا ، يا ابرهيم ؟... والله ، ان في جنبيك لقحة تنبو عن الحلم . أما تدري ان في الاغماد نصالاً تستأصل هذا الذي فيه عيناك ؟... ألا تحتشم ، فتنصب احابيلك لاختي آمنة ، ابنة عمك ، ايها الزنيم ؟

فتفتحت شفتا ابن جردزده للكلام ، وصالح بن علي يخاطبه بلهجة الناقم ، الموتور . قال وجبينه يستعر بالحمى ، ودمه يجيش ، وقد فوجئ في اشقى وقفة : وحقك ، يا صالح ، ما رميت الى فاحشة . لقيت عفواً آمنة في هذه الخميلة ، فدلفت اليها اسألها عما تحتاج اليّ فيه . فلماذا التهديد ، ولا منقصة ، والمناكرة ، ولا خصام ؟.. أتأبون عليّ ان احادث ابنة عمي ؟

فدمدم عليه ابو جعفر ، وغبطة الظفر تنفحه بعزمة الضيغم ، ولهبة الحقد تشعل فيه فاحم الحنق : انك لمفطور على الكذب ، ايها القبيح الوجه . فما ولدتك امك في ساعة رضى . أتجرؤ على القول انك صادفت في الواحة عمتي بلا موعد ضربت لها ؟... ان تكن تملك هذه الجسارة ، فمن الراهن انك ممن عششت في جذورهم الضعة . الآن طاب لي انقاذ الفضيلة منك ، وانت خدش في صفاء سحنتها !

فاستل ابرهيم بن جردزده صارمه مزمجراً : حذار ، ابا جعفر . ان بين شدقيك لصلاً ينفث الوبيء . فاعتدل اذا شئت صونه . والا فليكن ما لا بد منه ان يكون !

فما توانى ابو جعفر في اختراط حسامه . وصال الباتران . فصاح داود ابن علي ، وهو المصقع ، الخلوب : ألا صبراً . عجلت ، يا ابرهيم !

وعلت صرخة لفتت اليها الجميع : رويدكم ، عليّ الدرك . ليس لكم ان تتطاولوا على ابن عمنا بلومة . بنفسي دعوته الى هذه الظلال !

فلقد استيقظت آمنة على صليل النصلتين ، كأنها مفتوحة العين ابداً على كل ما له بابرهيم بن سليط مساس . واطمأن ابرهيم وهو يسمعها في صرختها المنافحة عن دمه . وتفاقم في ابي جعفر العبوس . وودّ لو ينصرف اليها بفيصله ، فيرويه بذوب روحها . ودنا منها اخوها صالح يقول : بحقي عليك ، يا آمنة ، أما كنتما على موعد ؟

فابانت ، ولم يحتمل طبعها المماكرة : اخي ، نشأت فيكم على الصدق الصراح ، ويؤلم روحي ان اخرج عما بشتم روعي من خلق وضاء . انا وابن عمي على مخالصة . الا اننا بريئان فيها من كل دنس . وان اكن اراوغ ، فلتتخطفني اسيافكم . ما نزلنا الواحة لسوى المباحثة في موقفنا . أنعالن اخي محمداً بامرنا ، ام نمضي في حبنا على كتمان ؟ . . . واجمعنا على الافضاء الى اخي محمد بميولنا ، وهو قطبنا . فاذا ايدنا في المبتغى ، عشنا على هناء . والا فليكن ما تقدر الاقدار !

ــ أتذيعين الواقع ، يا آمنة ؟

ــ صالح ، انت ادرى الناس باختك . فهل ظهر لك منها انها تنطوي على

نفاق ؟

وتجلت فيها الانفة . وعلا صدرها يتشامخ على الافتراء . انها لفي وضاءة الافق الصبيح . وما لعيب ان يرقى اليها فيشينها . ونظر اليها اخواها صالح وداود فراعهما نبل السجية ، وصفاء النبرة . فقال داود : والى اخي محمد سنحتكم فيك . فليس لنا ان نتقاتل في ما لا رأي لنا فيه !

وفصل داود الخصام . الكلمة للقطب الهادي . وتنفست آمنة على مدى رئتيها . انقذت ابرهيم من الغضبة الطامسة . ولا بد للعباسيين ان ينتقموا منه للشرف المستهان . على ان اخاها داود بدد بحنكته السحابة العارضة . فليلجأ الحبيبان الى من يقبض بيمينه على مصير العترة العباسية . فاذا وافق ، فالرأي ما يبدي . والا فلتقرّ الامور في اجفانها ، ريثما يتفق لها من يحلها

ولكن ابا جعفر نزع الى البتّ الوشيك . فليناقش فوراً ابن سليط الحساب ، وقد تعمد اجتثاثه ، مع يقينه انه في حضرة من لا تأخذه نصلة ، مهما برعت ورهفت . قال وفي جبينه وعروقه ناهش السعير ، والجهد والغيظ يسيلان منه قطرات سماناً : أنبصر العار ونتجاهله ، يا عماه ؟... وهل للحمية العباسية ان ترضى عن هذه الغضاضة ؟... والله ، ما اطيق ان اكتوي بوصمتها !

فصاح به داود : على رسلك . ليس الامر في يدي ، ولا في يدك ، وهو وقف على ابيك . وما الكلمة يعلنها ابوك ان نزيغ عنها . وماذا وقع من دميم ، يا ابن اخي ؟... ابن عم هام بابنة عمه ، واتقيا في هواهما الفاحشة ، فازمعا الاسترشاد برأينا في مصيرهما . ضع عنك التعرض لحق تفتئت به ، ومرجعنا فيه ابوك !

واخرسه . وايقن داود بكونه اجاد الصنيع . فان يكن ابرهيم بن سليط ذلك النغل ، فانه ليمتّ الى العباسيين بصلة مكينة الاسباب . وان يكن من العار على بني العباس ان يتزوج احدى بناتهم من في دمه خباثة ، فليفصل الامر وجيههم وسائسهم محمد بن علي ، وهو القيّم على التراث . ولن يكلف اخواه صالح وداود انفسهما ما لا يجيز لهما مقامهما في الاسرة ، وما لا يرتضيان به الاساءة الى اختهما ، ولا الى ابن عمهما ابرهيم

وذكرا حاجة العباسيين الى الفتى المقدام ،السمين الضلع ،النيّر الذهن . فكل ما يلوح فيه من تباشير يشفّ عن بعد همة ، ورسوخ بطولة . فما يتقهقر عن غزوة ،ولا يجبن في نضال .ومن الظلم السخاء به على الفناء لسوء ظن قد يكون باطلاً

ومشى الجميع في طريق الحميمة . داود يصحب ابرهيم ، وصـالح ابا جعفر . وسارت آمنة وحبابة في المقدمة . وأسرّت الفتاة العباسية الى جاريتها ، وهما تتقدمان الموكب ، بقولها : اذا نزل بابرهيم شر ، يا حبابة ، فاني لمنتحرة في اثره . ألا فيعلم الجميع اني على دين ابن سليط !

وما تماسك ابو جعفر . فعالن عمه صالحاً ، وهما يدرجان في صعيد الحميمة ، بقولة تطفح بالموجدة : كيف تقوون على احتمال الداهية ، يا عمي ، وفيها نيل من طيب الارومة ؟... أموقنون انتم بكون هذا النغل منا ؟.. فما يدريكم من هو ، وقد يكون لقيطاً ؟... وهل للقطاء ان يسطوا على طهارة انسابنا ؟... اقتلوه ، وعليّ تبعته . والجرم يغفره لي الله ، وما أثمت في نكر ، وقد جلوت الخنى عنا . وان تكن آمنة ، عمتي ، ممن يقدر عليهن الشرف الاثيل التكفير عن شذوذها ، فاهدروا دمها وابيحوها لي .

ولن اعفّ عنها !

فما فتىء صالح يدعوه الى التؤدة : على هونك ، يا ابا جعفر . ان نكن أُصبنا في كرامتنا ، فما لغامز علينا ان تطول له شباة !

وقال ابرهيم يخاطب داود بن علي : ما لابي جعفر ، ابن اخيك ، يحقد عليّ ، يا ابن عمي ، حتى ما يطيق ان يبصر لي بظل ؟... والله ، اني لافني ايامي في الذود عن حياضنا . أفما لهذا الكادح في الخير اثر من فضل ؟... واذا ما اوثقتني بآمنة انتفاضة الحنين ، فهل للقيامة ان تقوم ، وكلانا على معادلة في دوحة العلياء ؟

فقال داود ، وليس يميل الى خصام ، ولا الى تأييد :اخي محمد منصفك ، يا ابرهيم . فسوف تسمع منه فيك الرأي الرشيد . ومـا لسياسة اخي البكر ان تنطوي عن النضج . ولا مراء انك منا ، وحق من براها من عدم . فلا تقلق ان فارت في ابي جعفر غلواؤه . وللشباب نزوات لا دافع اليها غير الخفة . على ان الزمن كفيل بان يلوي من جماحها . فثق بالزمن ، وكلنا يحفظ لك الود الامين !

فزفر متبرماً بما يعاني ، من كدّ وتبريح ، في هواه الخميل ، كأن الاماني بعيدة ابداً عن المهجة . وقال يعالن نياته داود بن علي : وتربة اجدادنا ، يا ابن عمي ، ولست احلف بالباطل ، اذا انتابت غاشية من عدوان اختك ، فاني لمفتديها بنفسي . ما لعين ان تنظر اليها شزراً ، ولا لفم ان يسدد اليها سبة . والا اكرهتموني على ما لست استطيب . آمنة مثال الكمال والاباء . فاذا ملتم الى ايذائها فاسفكوا دمي . وليس لي ان اراها في وجل وقهر !

ارتجى ان يلمّ في سيد الربع ، محمد بن علي ، الحكم البصير الوفيّ . فلا

يجور عليه في صبوته ، بل يتسامح ازاءه في المشتهى . أما بدا له من ابن عمه ، ابرهيم بن سليط ، انه ذلك المقدام الكميل ، حامي الحوزة ، ومفرّج الكربة ؟... واني يجازف بالكمي" الحمي" ؟... لا ، انه لواثق بحنكة القطب العباسي ، وبسامق رأيه . فلن يشيح عن بغية يتلفت اليها الخاطر المستهام ، والعباسيون بحاجة الى سيف قاطع ، تزداد به نصالهم ، وتتسع آمادهم

وحثّ ابرهيم الخطو الى الحميمة . ووصل اليها في الطليعة ، وفي نيته ان يتقدم الجميع في بثّ الظلامة ، واعلان المأمول . ولكن ابا جعفر سبقه الى سيد العباسيين ، يعاجله بالقول الحانق ، السيّال الغلّ : لم يبق من مجال الى الصبر ، يا ابتاه . هذا الملحق بنا جاوز فينا الوسع . فالاحتمال وهى . وبات لا يجمل بنا غير القطع !

فحدق اليه ابوه بعينين ناتئتين ، وفكر شتيت ، واستوضح بذهول : ألا ماذا اصاب ابا جعفر ؟ ... هل من فادحة تعرونا ، يا ولداه ؟

على ان رؤية ابن سليط ، وصالح ، وداود ، وآمنة ، في اثر ابي جعفر ، دلت محمداً على بعض ما ينتفض في قولة ابنه من جفوة . وسـاءل نفسه أيكون ابو جعفر قبض على ابرهيم وآمنة في معصية ؟ ... واقلقه الخاطر الشادخ . ورقب ايضاحاً يجلو الحلكة الخانقة . قال ابو جعفر وهو يرتجف غيظاً : ليس لنا ان ننام على المعاير تلسعنا في جباهنا ، يا ابتِ . فالعباسيون قوم يضنون بكراماتهم ان تسفّ . وهذا المغموز الاصل ، اللاجىء الينا في ادعاء الحسب ، دهمْته وعمتي آمنة في واحة النخيل . وكدت اقطع الرأسين تأديباً وعبرة ، لولا شفاعة اخويك صالح ، وداود . فعهدا في الامر الى درايتك وعدلك . فانقذ العباسيين من الشين الطاغي . والا فأبح لهم رحابة

الانتقام لانفسهم ، ولن يكلفوك انتضاء نصلة ، ولا ازهاق روح!

فزعق وقد تطاير سخطاً ،وماج استكباراً :أتعلن ماذا ،يا ابا جعفر؟.. هل ابصرت الفاحشة ترعى في سويدائنا ؟

ــ ابصرتها معاً في ظلال البواسق . وعماي شاهدان على ما لطم عيني من كافر ، اثيم!

فهتف ابرهيم بن سليط : ألا اوضح ، اوضح ، يا ابا جعفر . كيف بدونا لك في الواحة ؟...هل لك ان تعالن اباك بما رأيت منا ؟...ان عميك صالحاً وداود لشاهدان . اجل ، واني لراضٍ بشهادتها . فاذا لاح لكم منا اعوجاج فقوموه بسيوفكم .وهذه عنقي امدها للبتر ، ان يكن موقفنا يدعو الى اساءة الظن بنا . فليتكلم صالح وداود !

وتحمس . وبات كتلة اعصاب ثائرة. واستعلت فيه الانفة تتنكر للزلة . فقال ابو جعفر : ما هي بالمرة الاولى افاجئه في الواحة . فلقد سبق لي ان شاهدته يؤوب منها ، وانا على شك في امر شخوصه اليها . وكاد يخترمه سيفي لولا عمي عبدالله ، وتنصله من التهمة . ودعاني الى محاسبته في الملموس . فما ابطأت في ان اقبض عليه متلبساً بالغواية . واني لادعو الى الانتقام منه للشرف المهين !

فابتسم صالح وداود . ودلت ابتسامتها على ان ابا جعفر يغالي في القولة . وصرخ ابن سليط : من الظلم نشر هذه الاضاليل . اين الغواية وآمنة ابصرتني في الواحة ،فدعتني اليها ؟...وهل لبعضنا ان يشيح عن بعض ونحن من ابناء الاعمام ؟... ليس لمثل هذا الكلام الجزاف ان يروج في الربع ، وما في عروقنا غير عفة ونقاوة !

فالتفت محمد بن علي الى اخويه ، مستوضحاً بحدة ترفدها رغبة جيّاشة في الاستقصاء : ألا ماذا ، يا صالح ، ويا داود ؟... ماذا تراءى لكما من ذميم ؟

وكان قد اطمأن الى ابتسامتهما الفياضة بالتؤدة . فلو بدا لهما ما يشين لغسلا بالدم المذلة . قال داود : ان ابا جعفر لفي مغالاة في بيانه ، يا محمد . ابرهيم وآمنة جمعت بينهما الواحة . الا انهما ما كانا وحدهما فيها . وثمة حبابة الجارية الحبشية . ولو ظهر منهما ما يدل على انتهاك المصون ، فما كان لمواضينا ان تستقر باغمادها . لا والله ، يا ابن ابي . والامر ، كما انجلى لخاطري يتحامى الاسفاف ، وفي القلب جنوح الى هوى يوثقه الوعد بزواج وفيّ !

فهدأت فائرة محمد بن علي . الا ان ابا جعفر ، ابنه ، ما كان ليسكن ، وقد ظل يفور . فصاح ، والحنق لا يلتوي عنه : ما الرغبة في الزواج غير ستار لحجب الدنيئة . ان الشقيين ليستهينان بوضاءة عرقنا !

فما استطاعت آمنة الا ان ترفع الصوت في النضال عن احدوثتها . ولقد صرخت بابي جعفر صرخة هادرة ميّادة : انا اسمى من ان اتسفل الى وصم عرض العباسيين بالرجس ، يا عبدالله . فاعتدل في مقالك ، واتق الله . اذا ضمتني وابن عمي الواحة ، فما التقينا فيها لشين . اخي داود كفاني مؤونة الايضاح . فما اعلن الا حقاً . كنت اتحدث وابن عمي بضرورة مخاطبة اخي محمد في العقد لابرهيم عليّ !

فجلجل ابو جعفر : أتهيمين بالدعيّ ؟

فدمدم عليه ابرهيم : اخفض من مذمتك ، يا ابا جعفر . والله ، اصبحت من امري على نفاد صبر . هي ميتة واحدة . ولا يريدني ضميري ان اعيش

ذليل الناصية !

وهوت يده على مقبض سيفه . وما كان ابو جعفر دونه في المضـاء . فزأر محمد بن علي ، والغضب يستعر في وجهه وقلبه : على رسلكما . اغمدا النصلتين في الجفنين . ليس لكما ان تخرقا جلال هذا المقام باقتتالكما في حضرتي . ابعد ابا جعفر ، يا داود . وانت ، يا صالح ، ادخل بابرهيم مثواك . اما انت ، يا آمنة ، فاقتربي مني !

وشاء ان يخاطبها على انفراد . فما لعين ان ترى ، ولا لاذن ان تسمع . واستشاط نقمة وهي تدنو اليه . وهدر بصوت عريض يبطن الويل : أتجهلين من انت ؟ ... أما تدرين انك سليلة قوم اكارم توثقهم بنبي المسلمين شبكة ارحام واصلاب ؟ ... ألا ما بك ضعت عن نفسك ؟ ... أتكون هضيمتنا موكولة اليك ؟ ... ما حسبتك على عيب . فما هذا الاسترسال الى الانحطاط عن محتدك ؟ . . . أما لقيت غير لقيط يعزى الينا تهيمين به؟... أما في الربع من العباسيين وانصارهم ذو وجه نبيل يستهويك ؟... والله ، خيّبت ظني . على مَ تعقدين الضمير ؟ ... أعلى كناسة تهون بها ارومتك؟... صدمت أملي !

فاعلنت بقوة من لا يشعر بمنقصة تعروه : اعرف ابرهيم منا . فهو ابن سليط ، عمي . وكلكم في الربع اقرّ له بكونه عباسياً قحاً . وما اراني انزل عن رفعة حسبي ، وانا اجد في ابن عمي مرتجى بالي . وابرهيم جدير بي ، حتى مع هوانه في النشأة . ففي نفسه شريف مطمع ، وفي جبهته حمية ، وفي دمه عزم لا تكل له مناعة . وجالت عيناي في من ضمهم الحي من الغطاريف الصيد ، فما عرفت فيهم ، على وفرة الابطال ، لابرهيم نداً . فكيف لا

اهواه ، ولا اعتد له على نفسي ؟... ان ابن عمك لحقيق باختك ، يا محمد !

وما جهرت بما يعدو الحق الابلج . ابرهيم خليق بها . قال محمد اخوها ، وهو يؤيدها في الرأي فيما بينه وبين ضميره : ولكن من انبأنا انه منا ؟... ذهبتُ الى كونه ابن سليط مجاراة له في زعمه . فهو من ادعى الانتساب الينا . ولم يكن لي ان اصدمه في الدعوى . ونحن بحاجة الى نصرة طفل ابن يوم . فكيف اخلع عني هذا المقدام المهيب ؟... الا اننا اذا سايرناه كصفيّ ، ندب ، فلن نبيح له الارتقاء الينا ، والا فسدت به سلالتنا . وما للمغموز النسب ان يغير على الحسب النمير . فاذا كنت تهوينه ، فليس لي ان اذم فيه الهمة ، ولا الجدارة ، بل العرق . هبيه ابن سليط ، فهل لك ان ترتمي في حجر من انكر جدي ، على ابيه ، كونه من صلبه ؟... جدي ، عبدالله ابن عباس ، لم يعترف لسليط بكونه عباسياً . بل هم الامويون ، خصماؤنا ، مالوا الى تلطيخ وضاءتنا . فوافقوا سليطاً على افترائه ، كي يقاسمنا ارزاقنا . وجلّ ما اذاع جدي ان والدة سليط كانت جارية له ، فوهبها لعبد من عبدانه . الا انها لم تحبل عنده ، بل عند من زفها اليه . وطاب لها القول ان السيد العباسي استولدها ، لا عبده . فهل نوافقها على افكها ، وما كان له جدي الا داحضاً ؟... اذكري كرم النجار ، يا اختاه ، ولا تعرضينا للخسة . ان العباسيين لمدعوون الى اعتلاء السدة . فهل يروقك ان تتجني عليهم في ما قعدوا عن اجتراحه ؟... اين حرصك على نصاعة الاعراض ؟

فخشعت حيال القول المجلوّ . ليس لها ان تلطخ صفاء العترة العباسية . ولكن ما تفعل بهذا الخافق بين الضلوع ، وهو آمرها ؟... قالت تشكو اخاها الى نفسه : انتم غررتم بي . نسبتموه الينا ، فاكبرت اقدامه .

وبدا لي على كفاءة منتمى ،فما امسكت عنه مودتي .واني لي ان انسلخ منه، وقد اعطيته مهجتي ؟... موتي اهون عليّ من التباعد عنه ، يا محمد ؟... هلا ابحتم دمي لاسيافكم ، ودرأتم عني فجيعتي بقلبي ؟

ونفر من عينيها الدمع . وابصرها اخوها محمد في حرقتها فعزّ عليه ان يكوي قلبها بالحرمان . ما اعلنت كذباً وهي ترمي قومها بالتغرير بها .فلو لم ينشروا عليها كون ابرهيم من دوحة بني العباس ، لتفادت من اطلاق ميولها مرخية العنان . والتفت محمد بن علي الى خلجة الاشواق في القلب الموله . فهل لها ان تستنيم الى ارتياح ، وقد ذبل فيها الرجاء ؟... وايقن من تجارب امسه بان الحب صؤول ، لا يسهل قهره . فيكابد صاحبه في القطيعة امرّ الشدائد ، وانكد الاهوال ، ولا يسلو . فكأن الحياة ، في لونها الباسم ،موقوفة على هذه الخفقة الحافلة بالطيب وبالمتعة .فاذا اختلّت في انتفاضتها ، اعتلّت الروح ، وخبث العيش ، فيمسي ضرباً من باهظ العناء

ومحمد بن علي لا يكره اخته آمنة ، ولا يريد لها العذاب ، بل يدللها ، ويداعبها ، وهي في سن اولاده . ويحمل اليها النفائس ، كأنه ابوها ، لا اخوها . ويدعو الى اكرامها ، وما يرضى ان يحبس عنها حاجة . وآلمه ان تندى مقلتاها بموجع الشجن . فاستوضحها خفايا جأشها بصوت لين ، رؤوف : أتحبينه ، يا آمنة ؟

فتفاقمت فيها لوعتها . وتعاظم نحيبها . ولم تجب . فاعاد عليها اخوها السؤال : أتحبينه ، يا اختي ؟... اطلعيني على صفايا منازعك ، ولا تخافي . ما كنتِ في العباسيين غير الابنة المدللة ، المرموقة . فاكشفي عن صادق احساسك ، وانت في منعة من الدواهي . أتحبين ابن سليط ؟

فلم ترفع اليه بصرها . بل اجابت وهي مطرقة ، وعيناها تعتصران مواهتها : أحبه ، كأنه صميمي . فالحياة باتت عندي نظرة اليه ، وقعدة بقربه . اذا كنت تريد لاختك الهناءة ، يا محمد ، فاعقد له عليّ !

ولم تكتم هواها . مهجتها وقف" على ابن سليط . واطال اليها اخوها النظر ، وحار في ما يعتزم . ان تزويجها ابرهيم بن سليط يهيب بالحي الى المناكدة . فلن تسلم الصفقة ممن يعترض عليها ، ويدعي الغبن . وحاول القطب العباسي ان يصرف اخته عن خرق العرف . ابن سليط دونها مقاماً . وليس لمن ربيت في احضان امراء ان تتدحرج الى اعشاش صعاليك . قال محمد : ولكن العقد له عليك ، يا اختي ، يثير في الربع صيحات النفرة . فلن يكتب لنا فيه الفوز ، وثمة ابو جعفر وامثاله من الحردين . وحجتهم علينا اننا سخونا بك على من يهوي عنك رفعة . فهل يطيب لك ان تقيمي عليّ في بني قومي قيامة لا سكون لها ؟ ... ابن سليط ليس من طينتنا . وربما لم يكن منا !

فنبرت لا تستنيم الى هذا المقال الخاضد مناها : ولكنكم ادنيتموه منكم حتى امسى صفيّكم . بل ألصق بكم من انفسكم ، وكأنه هامة من هاماتكم . وخلعتم عليه من امادحكم ومناعمكم ما جنح بي الى اليقين انه من اندادكم . فشغفت به . واني اقاوم شغفاً ران على جوارحي ، فاستأثر بها ، لايبيح لي عنه عدولا ؟ ... ما اعرف ابن سليط سوى ابن عمي لحاً . وما اراني كبوت ، وقد احببت من تجمعني به وحدة العرق !

فابتسم محمد ابتسامة المقتدر ، الطويل الاناة . وقال بلهجة لم تخرج عن اللين المفروض على السيد الممسك بالزمام : ولكنك تخاطبينني ، يا آمنة ،

كأنك ولية امرك . فهل غاب عنك اني صاحب الرأي في اسرتي ؟ ... انا لا أجد في ابن سليط عديلًا لك ، يا اختي . فاجتهدي في استلاله من خاطرك، لئلا ندرج في صعيد لن يكتب لنا فيه الفلاح !

فابانت بشدة : اني اخاطبك كاخ لي . واراني مدفوعة ،بحافز الثقة ،الى مكاشفتك بشجوني . والا فالى من اشكو امري ؟... ابرهيم يتزل مني منزلة النجيّ الاثير . واذا شئت ان تنيلني مطلب قلبي ، جمعت بيني وبين من احنّ اليه !

ــ حتى مع اساءتي الى محتدي ؟

ــ لا اساءة هناك ، بل رحمة لقلب شجيّ !

وتناهى دمعها في الانسكاب . فخلعت جاش اخيها . قال محمد وقد رقّ لها : أمهليني ريثما استشير اخوتك وابناء عمك في ما يجنح اليه لبك . فليس لي ان ابتّ وحدي المشكل الصعب ، وانا اخشى اللومة . وما كنت في العباسين قطباً كي اهوي بهم عن مراتبهم . فهل يضيرك ان استشير ؟

فتمتمت بخوف : ولكن هناك ابا جعفر !

ــ ابو جعفر ليس الحي باكمله ، يا اختي . ففي الاسرة ارباب رأي لا يتقدمهم في المشورة هذا الصلب العنيد . وساكون بجانبك . أفلا تثقين باخيك ؟... سانافح عن ميولك . الا ان الكلمة للكثرة. فاذا كانت بجانبك ، فهنيئاً لك الظفر . والا فاعذري ابن ابيك !

ــ ألا تقوى على اقرار الامر من تلقاء نفسك ، كقطب ماضي القولة ، لا يفلّ له سعي ؟ ... ومن سواك في العباسيين ؟... ومن يجرؤ على مصادمة ما تذهب اليه ؟

فاعلن لا يستمسك بالتبجح الغَرور : لي الله وضميري . والاثنان لا يبيحان لي الخروج عن سنّة الشورى . فنحن في امورنا على مســـاواة في اقرار الصائب ، الصالح . والدين ينهانا عن النزوع الى الطغيان !

فايقنت ان لا سبيل الى تحويله عن وجهه ، وهو من ذوي الحكمة والحنكة ، ويأبى في نهجه العثرة . فقالت ولم تجد لها غنية عن الاسترسال الى المشيئة العليا : وكلت اليك امري . فاشحذ نبلتك وصوّبها الى حيث شئت من مقاتل اختك . واني لراضية عن حكمك عليّ ، مع ايماني بانك تبتغي لي الحياة !

واباحت له الكلمة الفصل . فكل ما يعلن لن يلقى منها غير التأييد . سواء نزل الحكم عليها راحة وسلاماً ، او كبريتاً وناراً . وليس لها عن رغبة اصحاب الامر والنهي فيها نفور ، وهي الموثقة بحسبها ، وكرامتها ، باسباب لا ترتضي الوهن ، ولا التفريط . فالرأي ما ينشر عليها من حكمهم ابرام ، وطاعتهم تنزيل !

٩

هؤلاء النجباء من بني العباس ، المكتوب لهم في ناصية الدهر الوثوب الى الشوامخ ، يعتلونها سادة اعلامـــاً ، والشاعرون بسموق منتماهم ، وقد تحدروا من عصبة ازجت الى الناس هادياً رشيداً ، التأموا في مجلس يعبق بالوقار ، وقد بدا من ملامحهم المكدودة انهم يحسون بما يرسو على عواتقهم من جسيم التبعة . فما هم في حلقة مرح ، بل في محفل اخذ على نفسه حسم معضل له بجذور الاسرة مكين عروة . فدعاهم اليه رب الشأن العالي فيهم ، محمد بن علي ، ليفصلوا في امر العقد لابن سليط على آمنة ، اختهم ، وابنة عمهم ، وعمتهم

وهم هنا باجمعهم . من شيخهم حتى فتاهم . وما خلا المجلس من سوى القاصرين عن الرشد . وتصدر محمد بن علي المجمع الرزين ، القاتم الجو . وافاض بما عنده . فاعلن بجلال السيد المهيب : ما حشدتكم في هذا النادي لسوى مداولة الرأي في ما عرض لنا من خطير . ابن عمنا ،ابرهيم بن سليط ، يطلب اختي آمنة للزواج . ولم اشأ ان أُقرّ المطلب ، وحدي ،على وجه قد يسيء الى بعضكم . فناديتكم كي تتباحث في ما يروقني ان تشاطروني اعباءه . فماذا يبدو لكم من شهوة ابن عمنا في اختنا ، هل لها ان تنعم فيكم بالتأييد ؟

فنبر ابو جعفر ، ورقب ابوه ان يسمعه في طليعة المتكلمين ، الحانقين : لم اكن ارصد من القابض على العنان فينا ان يتردد في الجزم . فما للطامع

في فلذات اكبادنا ، وليس منا ، ان ينسلّ الى خدورنا . ليبقَ حيث هو ، وما كنا لنمهد ، للمغموزين في انسابهم ، الى حمانا الحميّ . في الربع من فتيات انصارنا كثرة . فليختر منهن ابن سليط رجاوة لبه . ومـا كان للضبع ، ذات الوجار ، نصيب من العرين !

ووفق ابو جعفر في نبرته . فانطوت على الحجة الدامغة، والانفة المثلى . ما للعترة العباسية ، النقية الوجه والصميم ، ان تداخلها مسكة من كدر . وكأن الفتى ، الحاسم القولة ، سدّ على الجميع ، ممن يرجحونه رأياً ومنزلة ، مجال الكلام . فرهب من ينصرون ابن سليط ان يقال فيهم انهم يتسامحون في احسابهم ، فلا يضنون بها على الخدوش تغزوها ، وتدميها

وتململ ابو العباس ، اخو ابو جعفر ، من هذا التضييق الغليظ على ابن سليط . وكان لعبدالله بن علي ، عمه ، مثل هذا الموقف الشفيق على الفتى النازل حماهم ، عارضاً عليهم سيفه ، وبأسه . والتفت ابو العباس الى اخيه يقول : ليس لنا ان نؤلم مهجة هذا المتصل بنا بقلب صادق النزوع ، يا ابا جعفر . صارحناه بكونه منا ، فلنمضِ في بثه العطف ، ولنعقد له على عمتي كي نضمن رسوخه في المواءمة . وقبيح بنا ان ننادي به ابن عم لنا ، ثم ننكره لدن يبتغي الاندغام في اصولنا !

وعبدالله بن علي ، اخو آمنة ، ايد هذا المذهب في ضرورة العقد على اخته لابن سليط ، مع شديد نفرة عبدالله من اللوثة تطغى على العرق الصافي . قال : ما ارى في ابرهيم ما يحملنا على الازورار عنه ، والاستنكاف عن التمكين له في وشائجنا . فبلونا ماضي همته ، وطروح شأوه . وانه لحقيق بالاندماج فينا . واننا لنزيده ميلاً الينا ، واخلاصاً لشهواتنا ، ونحن نبيح له

الامعان في الدنو منا ، والالتصاق بنسبنا !

فهب ابو جعفر يفند هذا السماح الملتوي . قال وهو يرتعد غيظاً ، ويملأ المجلس دمدمة : انكما لتسايران في الباطل . ابرهيم بن سليط ليس منا ولقد انتمى بنفسه الينا ، فاوهمنا كونه ابن عمنا . ومن لنا يؤيده في زعمه ، وقد عطل من صحيح الدليل ؟ ... ومع مجاراتنا اياه في الدعوى ، هل يجدر بنا ان نزفّ ابنة اكرم سلالة الى دعيّ ؟... ما وافقناه على الاختلاق لسوى اجتذابه الى موالاتنا . وليس له ان يجاوز ما بلغ منا . وهو اقصى ما يطمع فيه ذو جهد . وان نحن واءمناه على مـــا يستطيل فيه ، اضحكنا منا اعداءنا . وقال فينا الامويون اننا ابتذلنا ذرية النبي ، ونحن نبيحها لكابي النجار . فهل ترتضون هذه الوصمة تهوي بنا عن منازل ننهد الى ارتقائها ؟

واصاب منهم مكمن الحمية . فصاح معظمهم نافراً من ملتمس ابرهيم : صدق ابو جعفر . ليس لنا ان نكبو حيث ترمقنا العيون لتفسد علينا السمعة . لنبحث لابن سليط عن فتاة من ذوي الجاه المغبوط من اعواننا ، فنزوجه اياها !

فقال محمد بن علي ، قاطبهم وهاشيم : ولكنه لا يبتغي غير آمنة ، اختي وآمنة لا تتجانف عنه ، وقد راقها فيه الاباء والفتوّة . فكيف نغضبهما معاً ؟... أما ترون ان للسياسة مشيئة قاهرة ليس من الحكمة التغاضي عنها ؟

فصاح ابو جعفر : ما اعرف العباسيين بحاجة الى ملحق بهم لا يأمنون جانبه . واي مكرمة ترتجى من نغل ؟ ... اما عمتي ، فاذا خطت خطوة زائغة ، فلتزوغنّ عنها خفقة الجأش . ما نحن ممن يبصرون العيب ولا

تطيعهم أيمانهم في اقتلاع جذوره !

وأخفت فيهم كل موافقة . فما لطلبة ابن سليط ان تحبو الى النور . وقال اخوه ابرهيم ، وهو ابن محمد بن علي البكر ، ومن ارباب الدهاء في السياسة ، وفي استمالة الحردين ، الموتورين : دعوا لي سميّي . فعليّ ترويضه وصرفه عن المطلب العزيز . ولن تخيّبني عمتي آمنة في ما اعددت لها من مرهم . دواء الاثنين في متناول يدي . فاذا ايدنا اخي ابا جعفر ، في منع عمتي عن ابن عمنا ، فعلينا ان نظهر لابن سليط انه بين الجوانح منا . فما لخاطره ان تدهمه الرضوض !

فشاقهم ان يخلعوا عنهم عبء المهمة . وفوضوا امرها الى ابرهيم بن محمد ، وهو من الحصافة على قدر ، ومن الكياسة على وافر القسط . فلا ينأى عنه جليسه على سوى وفور رضى ، وسعة طمأنينة ، وقد احس بأنه نزل من السيد العباسي الداهية لبه ، وبات من الناعمين بثقة الربع . فاذا دهمته خمشة ، فكأن بني العباس باسرهم نشبت فيهم الاظفار الرهاف

وهذه الفطنة ، في خطب ود الناس ، اهابت بالرهط العباسي الى الايمان بالغد المطلّ . فان لمحمد بن علي من يرثه في السياسة والدراية ، كما ورث اباه علياً . فاذا ولى ، فلن ينشأ العباسيون على يتم ، ولهم في ابنه ابرهيم خير قـــاعد للغواشي ، يصدّها عن قومه وحماه . ووهبوا له عمته آمنة وابن سليط ، ابن عم ابيه . فليتدبرهما بالرفق ، وبلطيف المشورة ، بما لا يخلع فؤاد العمة ، ولا يبعد عنهم الفتى الضليع

واغتبط ابو جعفر بما احرز من نصر . قهر ابن سليط في سويدائه ، وهزّ روحه . فلن يتبختر في الحي على عجب ، بل يلوي هامته ، ويتوسد

الزاوية محجوباً عن العيون . فالعظمة المتلألئة فيه ، كأنه وجه الربع ، سيدهما الكسوف . وما هام ابو جعفر بسوى هذه البغية . القضاء على الفتى المزهوّ ، وما لمثله ان يستأسد في مسبعة تضيق بالليوث

وبرح المجلس جذلان الضمير . لم يطش سهمه ، وقد احرز في اسرته مكين الغلبة . فان يكن ابن سلامة البربرية ، وهي أمة ، ففي دمه فورة من النبل التليد . وما في العرب والعجم من ينكر عليه رفعة المنتمى . انه لعباسي صراح ، لا غش فيه

ودرت آمنة بنت علي بما اجمع عليه ذوو الرأي ، من الاهل الاحمّاء ، فودت لو تداولت منعاها الافواه . وما جزعت على نفسها بمقدار جزعها على ابرهيم بن سليط . فاي مناحة ستنعقد في قلبه ، واي غاشية ستدهمه ، فتكسر فيه طلاقة الهزة ، ودعة المهجة ؟... وليست تطيق آمنة رؤية ما سوف يعروه من كمدة ، وقد واثبه الاخفاق والخزي . وهل يبقى في الربع بعد النكبة الصاهرة ، وما ابقت فيه على عجب ؟ ... وخافت عليه من الحرقة ، وستقوّض فيه كل مناعة . فيحس بانه لصيق بالقوم ، غير اصيل . ويبكي زمناً اضاعه سدى في من شاء لهم الرفعة ، فارادوه على الضعة ، وما هو بالوضيع

وطفرت آمنة الى حجرتها ، تذرف الدمع بالجفنات ، كأن في عينيها انفجار ينابيع . وناحت طويلاً على نفسها ، وهي تخفي وجهها في طيات الاغطية . وشهقت واعولت انتحاباً على حظها المجهود . ظلمها قومها . وسمعتها حبابة ، الجارية الحبشية ، في التياعها ، فهفت اليها تقول بفائر الوجل: مولاتي ، مولاتي ، رفقاً بعينيكِ . اوشكتا ان تنطفئا في عادية الشجن !

فما التفتت الى هذه المتألمة لالمها ، وما كانت تسمع ، وهي في شرود حس . سقاها بنو أمها العلقم ، دون ان يسكبوا في حلقها بضع قطرات من شهد ، تخفيفاً للوقع القاصم . وسبحت آمنة في عبراتها المنطلقة على تفجع عالي النحيب . مُنيت باندى امل ، واشهى حنين ، وقد ضربها في نياطها ادنى الناس اليها . وانه لدامغ ظلم الاقربين !

وشعرت بحبابة تناديها واللهفة تكاد تخنقها : مولاتي ، مولاتي ، لا تظلمي نفسك . كاد ينهار فيك الوسع !

فاعلنت بصوتها المتقطع ، الرازح باثقال الدموع : شاطريني لوعتي ، يا حبابة . ابكي معي . كان لي قلب فذوى ، ورجاء فجف . كنت اعيش لهدف ، فامسيت ضائعة الخطو . اين التراب ينهال عليّ فيكفنني ويطويني؟... ضاق بي الاستقرار بدنيا من عذاب وويل . وهل لك ، يا حبابة ، ان تجهزي عليّ ؟... فالنكبة هدت ركني ، ولم يبق عليك ، كي تنزعي روحي مني ، الا ان تسحقي رأسي بحجر ، بضربة عصا ، بركلة . انقذيني من رزيئتي ، بقتلي . وطيري الى ابن سليط ، وابلغيه اني مت فداه . انفاسي اضحت بين شفتيّ ، واكاد ألفظها . فساعديني على نفثها ، واريحيني من مسكنتي . عفت عنك السماء !

وما توانت حبابة في اطلاق الدمع . فدفعته جارفاً ، كأن النازلة تساورها في حبة قلبها . مولاتها شقية في بالها . أفّ من ابي جعفر ، كم يستطيب غمس النبال في الاكباد . فلكأنه يعيش لنحر الاشواق ، ومحو صبيح العلالات . وما فتئت آمنة تستنجد بالجارية الحبشية ، قائلة لها : ادفعي عني لذعة الضيم ، يا حبابة . اطفئي ، باختلاس ايامي ، الجمرات المحرقة

دمي . وهذا الدم المحترق يغلي في عروقي فيكويها ، ويذيبها في ألم كافر لست اطيقه . خير لي ان اموت مرة ، من ان اموت ابداً . ولماذا بقائي في سمط الاحياء، وقلبي قضى ، ورجائي ذوى، ويومي فسد، وغدي اعتل ؟... اقتليني - فكيف اقوى على سماع شكوى من هام بي ، وهمت به ، وما أذن لنا الدهر في التئام ؟... أيعينني صبري على مرأى ابرهيم بن سليط في كمدة اليأس الناخع ؟... لا ، يا حبابة ، فاذهبي عني باوجاعي ، وانتشليني من عذاب لن يعرف له نهاية . فاني دون الصبر على برحائي . وانطلقي الى ابرهيم ، لدن اجود بانفاسي ، وابلغيه اني لقيت حتفي . فليخفف من لهفته ، وليتكاره على نسياني !

ولكن حبابة لم تكن تقوى حتى على الحراك ، لفرط الاسى . ان هي الا ناسجة براقع تلو براقع من الدمع ، اشبه بسيدتها . وساد النواح والشهيق الحجرة ، كأنها مأوى المكدودين ، الهالكين . واقبلت شقيقات آمنة اليها يجتهدن في تلطيف تعسها . ولكنهن لم يفلحن في الجهد ، والالم ما برح يحزّ في النفس المرضوضة

ونقمن على ابي جعفر . ولكن لاحيلة لهن في هذا الطاغية منذ الفطام ، كأنه شبّ على المشاكسة ، ومحق كل غضير ، غرير . ودلفن الى اخيهن محمد بن علي لائمات ، شاكيات : ما هذه القسوة على آمنة وابرهيم بن سليط ، يا محمد ؟

فقال بابتسامته البليلة ، المبددة كل حنق وحقد : سيعالج ابرهيم ، ابني ، الامر بما يبدد الفائرة . فلا تقلقن . هما في ذمة ابرهيم !

وانهن ليعرفن في الابن سلاسة الاب . فلا عنف ، بل روية ولين .

وما من شدة تستعصي على الملاينة . وبهذه السياسة الرفيقة المظهر ، السديدة الخطو ، الحازمة في ما تهدف اليه ، مع وفرة المسايرة والملاطفة ، خطب القطبان العباسيان المودات ، واكتسبا القلوب . وتساءلت شقيقات محمد بن علي عما تنطوي عليه نيات ابرهيم ، ابن اخيهن ، في صدد اختهن آمنة. أيزوجها ابن سليط ، ام يجري في نهج اخيه ابي جعفر؟ ... واستطلعنه الرأي ، فما جلا الخفي . قال ببشاشته الوارفة: ستكون آمنة راضية، ولن يخزى سميّي ابرهيم!

وتعبن في استدراجه الى الافصاح ، فما غنمن ما يرجح الابتسامات والمباسطات . قال يدعوهن الى الطمأنينة : ليس لي ان افتي في ما يؤذي الصفيّين . آمنة عمتي . وابرهيم ابن عم ابي . وسوف ينعمان بالشهي !

وساد قولته الغموض . سينعمان بالشهي . واي شهي ؟ ... فما اوضح . فالحكمة تدعو الى التمويه . وسياسة العباسيين ، في ذاك الحين ، حفلت باللف والدوران . فكل ما تصبو اليه ان تنفذ ، تحت ستار الكتمان ، الى مآربها . وليست تملك القدرة على الظهور ، وفي اريكة السلطان خصومها ، الضاربون عليها حصار الحديد والنار . فلا حركة ، الا احصوها . ولا همسة ، الا القوا اليها السمع الرهيف . ولا ندحة عن التخفي في هذا الجو المستيقظ ، القلق ، المبثوث العيون . والعباسيون حذقوا هذا الضرب من التستر في ركود ريحهم . فتعلموا الهمس ، والمداهنة ، والطلاقة . فهم اصدقاء كل من يلوذ بهم . وما للمخاشنة ان تأوي الى الفاظهم ، واساريرهم . واذا ما جمحت ببعض الالسن ، فهناك ألسنة سواها ترتق الفتق ، وتأسو الجرح ، وتجبر الخاطر الكسير

وما افلح في مهمة المجاملة والملاطفة كمحمد بن علي ، وابنه ابرهيم .

فاجتهدا في مواطأة الجميع على ما ينفح الدعوة بالقوة ، والغلبة . فالجميع لهما اخوان واعوان . وابن سليط من هؤلاء الاصفياء ، ولن يبيحا له المجال الى الانطواء عن حزمة الكيد للامويين

وخلا الابن بابيه يقول : ليس لي ان اسفّه رأي اخي ابي جعفر . فقد اصاب . ما لعباسية ان تدرج الى اكناف دعيّ . فليس ابرهيم بن سليط ، مع موافقتنا على كونه ابن سليط نفسه ، غير نغل . وهيهات ان يتسع للانغال الى حوضنا . ويكفي ان يذيع عنا الامويون اننا ازرينـــا بكرم محتدنا ، كي نهون في عين الامة العربية . فتزدرينا ، وتخذلنا . على اننا اذا ايدنا ابا جعفر ، في منع ابن سليط عن نبعتنا ، فليس لنا ان نخشوشن ، فيجنح الفتى عنا ، وهو الصليب البأس ، الشديد على المناوئين . فاني لاراه ذا غد بشير بخصب الجنى . وخير ما نزيل به خيبته ، في عمتي آمنة ، ان نعقد له على احدى ذوات الملاحة في انصارنا . وفي الحميمة سرب يافع من هؤلاء الوسيمات ، الراتعات في حصانة وكرامة . ولن نعيا عن اختيار احداهن لابن عمنا ، ونحن نبخل به ان يبدو في الخاسرين !

فاستوضح الاب ، وما كان الا واثقاً بفلاح ابنه الريّان العود ، على رهافة بصيرة ، في تسيير الامور بالسداد والتأني : ومن تراها تجمل به من بنات الانصار ؟ ... علينا ان ننفحه باندا‌هن ، واسماهن !

فاعلن ابرهيم : ماذا يجد ابي في ابنة عمر بن اسماعيل ؟

وكأنه وقع على من لا يغلو فيها المهر . فهتف ابوه يوافقه على الاختيار : احسنت . انها لغادة عطرة الفوح ، وضاءة العرض . لا تقلّ في نقـــاوة حسبها عن الصفوة . وسيكون بها ابن عمنا غانماً !

ومضى يقول فرحان ، نشيطاً ، كأنه اهتدى الى حل اللغز : ساناديه كي يصغي الى ما اعددت له من منيف . ان في ابنة عمر بن اسماعيل لدونة عمتك آمنة ، وروعتها !

وصفق بيديه يدعو خادمه . وصاح به لدن لاح له : اسرع الى ابن عمنا ابرهيم بن سليط ، وجئني به . ابلغه ان بي اليه حاجة . فليقبل على الفور !

فاطاع الخادم ، وليس عن المشيئة المعلنة مذهب . وجاب الربع وعاد يقول : ولكني لم ابصره ، يا مولاي !

فرشقه محمد بن علي بنظرة قاطعة ، هاتفاً به بغيظ : ألم تبصره ، ام توانيت في الفحص عن مقره ؟ ... ما اراك الا فاتراً ، نؤوماً . انطلق في الحميمة على متسع ارجائها ، وانقب ارضها في البحث عنه !

وخشي ان يكون ابرهيم بن سليط نأى عن الربع . وفي نأيه ما يقلق في العباسيين صدق السعي . فقد يهفو الموتور ، الملمّ بالخفايا ، الى الامويين ، ويميط اللثام عن الاسرار . ويا ويل بني العباس من خصمائهم ، اذا درى المتوسدون مراتب الاحكام ، من بني امية ، ما يحاك لهم في الخفاء . فلن يبقوا على ظل لعباسي . فتعاد فاجعة كربلاء . بالامس العلويون ، واليوم العباسيون . ويخلو الميدان للامويين ، وقد اجتثّوا اصول المنافسين جميعاً

وارتبك محمد بن علي . ورقب ، على بحران ، عودة خادمه . هل نزع ابن سليط عن الحميمة ، واغذّ في المسير الى دمشق ? ... وليست دمشق بالبعيدة عن منفى بني العباس . بضعة ايام وراكب نعليه فيها . واذا امتطى جواداً فما يحتاج الى ما يعدو اليومين ، او الثلاثة . قال القطب العباسي يخاطب ابنه

ابرهيم : ماذا يبدو لك منه ؟... هل رحل عنا ؟... ان يكن تناءى ، ففي احتجابه خطر يتوعدنا. أما يبدو لك ان اخفاقه ، في حنينه ، ازجاه الى الامويين يسرد لهم ما نبيّت من اغتيال وختل ؟ ... جار عليه اخوك ابو جعفر ، فاضاعه ، وخسرنا به النصير الثبيت !

على انه ما انفك يرجو عودة الخادم موفقاً . ربما لم يغادر ابن سليط الربع العباسي . فتوارى في احد المضارب على حرد ، او دلف الى الواحة يخفي فيها مضض الهزيمة . وبات السيدان العباسيان اعيناً على الباب وآذاناً. ونهض الاب الى الطريق كي يرى ما انتهى اليه رسوله ، وفي نفسه ما يحدثه بان مصيبة وقعت ، وستجرّ بعدها مصائب

وتأفف من رعونة هؤلاء اليفعان ، وقد ملكوا الحماسة ، وفاتتهم الخبرة . يغالون في المطلب ، ويكفرون بالتأني ، كأن نيل المطالب طفرة . وجهلوا ما ينتصب حيال المنى من عراقيل ، وما يعترضها من صعاب . ولا تدرك بغية الا بعد جمّ العناء ، وفادح الشقاء . فمن سهر ، الى اجهاد ، الى بلبال

وابصر القطب العباسي خادمه يندفع من بعيد اليه . ولكن بجهد الخائب ، المهزوم . فصاح به : هل ضاع عنك اثره ؟... أما لقيته ؟

فاجاب وهو يلهث ، ويخاف ان يغضب عليه مولاه ، ويعيّره كونه وجه شؤم : ما ابقيت على عش الا نقبت فيه عنه . ولا على زاوية الا اقتحمتها في الوقوع عليه . فما تكشفت المخابىء عن وجهه . لكأنه توارى في ليل !

فارتاع محمد بن علي . فالغد لا ينجلي عن طلعة رؤوم . ان يكن ابن سليط ركب الى الامويين يذيع الخفايا ، فيا للمنايا ما أعجلها ، ولئن يتماسك الرابعون بمقعد السلطان عن حصد رقاب الدساسين . وهتف سيد العباسيين

بخادمه : الى الواحة ، الى الواحة . فهو فيها !

وانخلع قلبه . وأحسّ بشفرة السيف تتغلغل في وريديه ، فتجتثّ عنقه.

وصاح بابنه ابرهيم : ضاعت آثاره . لنبحث عنه في كل منبسط ومنحنى !

وانتشر في الربع ان ابن سليط توارى . فتقلصت الملامح . واتسعت العيون بنقمة وجزع . أتدهم الخيانة الصفوف ؟... وانتقلت الحميمة باسرها الى واحة النخيل . اين الفتى المصاب بقلبه وبانفته ؟... ولم يجدوه . فصرخ بهم القطب العباسي : ادركوه حيث هو . اريده حياً او ميتاً ، وفي لسانه منعانا !

وشزر ابا جعفر بنظرة عضوض ،ادرك الابن مرماها . لولاه لم يضطرب الحي ، وتتعرض الارواح للعطب . فابدى ابو جعفر بغيظ : أيغدر بنا الدعيّ ؟... والله ، لالحقنّ به الى صدر دمشق اختطف نبضة جنانه ، حتى وهو في حرم الخليفة الاموي !

فقال ابوه : وسادفعك في اثره ،فترجع به اليّ حيث تقع عليه . شمّروا في ادراكه ، والا تداعى كل ما جاهدنا في توطيده ، وكنا في الهالكين !

وماجت السبل بالواثبين الى اقتفاء الاثر . وبدت لهم الواحة كالصحراء، وليس فيها لابن سليط نغشة ، كأنه غار في الرمل . واشتد القلق بمحمد بن علي . ما قامت سياستهم على سوى اللين ، فكيف اباحوا لابي جعفر ان يطبعها بطابع العنف ؟ . . . فقال اعمامه عبد الله وصالح وداود : غلونا في الايذاء . فكان علينا ان نعد ، وان نماطل في الانجاز. على ان لا خوف علينا من ابن سليط . ففي صدره من الموجدة على الامويين ما يمسك به عن اباحتنا للارزاء !

وابو العباس من هذا الرأي . ليس للعباسيين ان يخشوا سعاية الفتى المغتاظ بمن نشأ في ظلالهم ، واحتفوا به قريباً ونصيراً . قال : انه لعلى حرد ، وقد حرمناه شهوة الروح . غير انه سيعود . وليس لمن انطوى على خلقه ان ينمّ علينا . انا الزعيم بكونه حريصاً على سرنا !

وسكت ابو جعفر . غير ان نفسه تأججت لوماً واضطغاناً . فـلام خاطره على قسوته في التحطيم ، وقد اذلّ روحين ، وصدع قلبين . واضطغن على هذا النائي عن الربع على سوء دخلة . أما اساء العباسيون الى مهجهم وقد انزلوه سويداءهم ؟

لم يكن للزنخ السريرة ان يأوي الى الحمى المصون . وعاد ابو جعفر الى هتفته الحانقة : ابيحوا لي الانطلاق في اثره ، وانا اجرّه اليـكم مخضود العرام !

فلم يجب ابوه نفرةً . وقال اخوه ابرهيم : ليس لنا ان نركب الهلع . ابن سليط منا ، ولن يذيع سرنا . فاقيموا من امره على صفاء بال !

ودعاهم الى السكينة ، مع التزام الحذر . فالاحتراس حميد خلة ، حتى في اخضلال الامان . والخشية ليست من ابن سليط ، بل من هؤلاء المفتئتين بالحق الصراح . اقتعدوا السنام عنوة ، كما كانت حالهم في الجاهلية ، واستهانوا بعترة من فتح ابصارهم للمعرفـة ، وبصائرهم للنور ، كأنهم ما يزالون في شقاوتهم ، يعبـدون الاصنام ، ويستعبدون الاحرار ، ويتجانفون عن اصحاب الظلامات

١٠

ما تنفك القوافل تجري في البوادي الرحاب ، على اكتناز حشد ، ومديد وثبة . فهي خطوط العمران الممتدة بين الامصار تنفحها بالزاد وبالكساء . فتدفع الفاقة ، وتقضي الحاجة . وانها لتجتاز الفيافي ركباً تلو ركب ، زاخرة بالنوق ، والبعران ، والبغال ، والحمير . وينشدها سائقها مختلف ضروب الحداء ، حثاً لها على المسير ، وتشجيعاً لمن تضمهم من هواة الرحلات ، وطلاب السفر ، فتطوي الرمال الغبر ، ووجهها منائر الحضر

وما كان للتجار في العراق ، واليمن ، والحجاز ، والشام ، ان ينعموا بفيض الثراء لولا هذه العروق الحية ، الناقلة اليهم ، من متعدد البلدان ، دم الانعاش . فهي لسانهم الحاكي ، وشجرتهم المثمرة ، ومعينهم الفياض . فتتخاطب بها الاقطار بلغات المعرفة والجداء . ويطلع بعضها على احوال بعض . وتتوطد بكياستها كريم الصلات . فتغزو بلا سلاح . وتفتتح بلا قتال . فيشبع الجائع . ويكتسي العريان

واتسع نشاط هذه القوافل في العهد الاموي . فتوثقت الاقطار العربية بعضها ببعض . وامتد الشأو الى ما وراء فارس ، ينشر راية العرب على الهند والصين ، ويزيد في اليسر والنماء

ونعمت الكوفة ، في العراق ، بالنصيب الاوفى من الازدهار . فهي صلة الوصل بين الشام ، والحجاز ، واليمن ، وفارس ، والسند ، والهند ، وارض

المغول . فتكاثر عليها وفود القوافل ، حاملة من ضروب البضاعة والمؤونة كل طريف ، ومتزودة منها التمر ، والحنطة ، والسلاح ، والنسيج

وبكير بن ماهان ، الوجه الفارسي العريق ، اقتعد الكوفة باموالة السمان ، يشرف على تجارته الواسعة ، ويتولى امر الدعوة المناوئة للامويين واختلطت لديه السياسة بالتجارة . فهو للاثنتين معاً . تقبل اليه القوافل باحمالها ، وباخبار ما جابت من بعيد الانحاء . فتذيع في مسمعه انباء اخوانه وخصومه . وتدفع اليه الارزاق والمغانم ، وهي تجري على مذهبه في الاغتياب والتبشير . فتحض على مخاصمة الامويين ، وعلى التمكين لآل البيت في مسند الامامة ، وهم اولى بها ممن اغتصبوا مقامها المبسوط الجلال

وبكير مؤمن بالفلاح . فالدعوة لقيت فيه احد الهداة الاوفياء . ووثق بنقاوة السريرة العباسية ، وما رآها تجاهد في سوى نصرة العلويين . فالخلافة لذرية علي بن ابي طالب ، وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته فاطمة ، والمغصوب الحق بالمقعد الاثير . وفارس باجمعها على دين بكير . وليس للكثرة ان تهون في ما تجمع عليه

وانفق بكير بن ماهان عن سعة في التوطيد للارب . وما كان يضيره الانفاق ، وهو من اليسر على خضم . على انه لم يعضد العلويين لسوى النهوض بالفرس الى الذروة . فالمنشود لديه ان تعود فارس الى عظمتها الهاوية . ولا عودة بها الى عزتها بسوى قهر الامويين ، القابضين على الموارد والفيالق . ومتى ها نوا ، هان تدبير ذوي السواعد الملتوية من العلويين والعباسيين . وكان للفرس الكلمة القاطعة ، ولن يجنوا على انفسهم ، وينطووا عن المشتهى الصبيح

وبكير يعقد على ابرهيم بن عثمان بن جردزده راسخ الامل . فهو القذيفة الهادمة في الركن القائم . وما ان تنفجر حتى يتطاير العرب في كل صوب ، ويبقى الفرس . وراق العميد الفارسي ان يفلح ابن جردزده في التغرير بالعباسيين . فاوهمهم كونه ابن عمهم ، وصدّقوه . ومثل هذا الدهاء يبشر بسعة الحيلة ، وببلوغ النصر . واذا ما اتسع للفتى ان يجتذب احدى العباسيات ، ويعقد له عليها ، ذلل الشطر الاعظم من الحائل الواقف دون الفرس لركوب السدة . فيجمع بين العرقين ، العرق العربي ، والعرق العباسي ، ويهدأ جنباه على أريكة الامامة باسم العرب والفرس معاً . وهي قمة التوفيق

وما فتىء بكير يدفع الى ابرهيم الدعاة يعالنونه بما يريده عليه في خدمة المقصد المأمول . وابرهيم يصغي ويبوح بما عنده . ولم يكن هؤلاء الدعاة ليتجنبوا الحميمة ، وهم يقبلون اليها في صلب القوافل المنطلقة في الفلوات ، تجتاز اطرافها واحشاءها . وكثر فيهم الفرس ، وقد زاد عددهم على العرب ، في جمهرة الساعين لدك السيطرة الاموية . وحجتهم انهم علويون ، وليس لعلوي ان يطيق امويا . وعلم منهم بكير ان ابرهيم يجري في الطريق الآمن ، وان الاوطار تتهادى اليه ، وبعضها يجرّ بعضاً على غنم ويمن

وطرب بكير ، وهذه الانباء تسقط اليه . ان فيها لغضير الاستبشار بالفوز المرصود . ونام على طمأنينة . الا ان ما ادهشه ان يبصر ذات يوم ، في الكوفة ، على غير موعد ، الفتى ابرهيم . فحدق اليه بعينين قلقتين . ما يزجيه الى الكوفة ، ومقره الحميمة ؟... هل افتضح امره في الوكر العباسي؟

وصاح به على سحيق البهت : ألا ماذا ، يا ابرهيم ؟ . . . هل من

فادحة ؟

ومظهر الفتى جنح ببكير الى الارتياب . فليس في ملامح ابن جردزده ما يدعو الى المسرة ، وهو المتجهم الوجه ، البائس النظرة . فابان ابرهيم ، وكل ما فيه على كمدة : اضعت ايامي في مودة من يجحد الفضل ، يا بكير. ما يزالون على عنجهيتهم ، مع انحناء ظهورهم. كأنهم يأبون الا ان يكونوا ، مع التواء عودهم ، خلاصة الخلق !

ــ وهل دروا ، يا ابرهيم؟

ــ ما دروا ،وحقك ، ولكنهم تجبروا . كدت اظفر باحدى فتياتهم ، آمنة بنت علي ، فحجبوها عني ، ورذلوني !

فصاح بكير ، وقد اضطربت لحيته ، واهتزت عمامته : آمنة اخت محمد ، وعبد الله ، وصالح ، وداود ؟

ــ اختهم جميعاً ، يا بكير . ولقد اوثقتني بها مودة منيعة الركن . الا ان ابا جعفر ، ابن اخيها محمد ، وقف لنا بالمرصاد ، وحال دون فوزنا بالمنى السماح !

فتزحزحت العباءة السوداء ، المطرزة بالقصب ، عن كتفي ابن ماهان ، وقد اوجعه ما يسمع . فامتدت اليها يداه تشدانها الى رقبته ، وقال بعزم يأبى عليه الاسترخاء : هل غالظك ابن اخيها ، ولم يقم فيهم من ينصرك ؟

فابان بمرارة ينفثها قلب يتفطر : لم اجد بجانبي احداً . بل كلهم كان معي ، عدا ذلك المحتال ، وقد ساءه ان ارجحه همة واقداماً . فحدثهم باصالة المحتد ، وبمنعة الجاه ، وبالنسب المغموز . فلم يملك احد الجرأة على الصراخ به ان اسكت ، فهو منا . وعزت عليّ الصدمة ، فلم اطق البقاء في الربع

البغيض . ونفرت اليك لاعالنك باني اكتفيت بما لقيت من ضير ، بين قوم يظلون، في شموخ ،على جميع من يتصلون بهم من الاعوان والاخوان !

ودلت كلماته ، المخضبة بالاسى ، على جسامة فجيعته بقلبه . فقال بكير: وهل احببت آمنة حباً صادقاً ، يا ابرهيم ، او انها مودة عارضة ، يا ابن اخي ؟

وابتسم بكير بن ماهان ابتسامة خبيثة ، يرمز بها الى ما تواطأ عليه وابرهيم بن جردزده من تضليل في الربع العباسي . فقال ابرهيم جاداً ، وفي جده طافح الالم : ما كان لي ، ازاء الملاحة المنشورة ، ان اتماسك عن بذل صحيح الالفة ، يا بكير . ففي اخت محمد بن علي ، من جهير الفتون ، ما يغري بها ناسكاً معتكفاً على العبادة . شئت ان اخادع ، فما اسعفني وكدي . ولم اشعر بسوى كوني اطأطىء الهامة في محراب الغرام، كأنها النار ، وكأني لا ابرح على دين المجوس !

— أمن الحور هي ، يا ابرهيم ، فاوثقك بها سحرها ؟

فافاض بوصفها كأنها قبالته ، وكأنه رسام يطبع بريشته ، على النسيج، راهن الالوان : انها لمن الحور العين ، يا بكير . وممن اشرق النور في بشراتهن ، فبتن كواكب ساطعة . قامتها املود رطب يميس . وصدرها جنة فيها من كل فاكهة زوجان . ومبسمها درّ نضيد ، يتفتح عن كنوز اللؤلؤ . ورائحتها بنفسج تليد،لا يعرف خريفاً ولا شتاء .ومقالها، يا بكير، عسجد منثور ، كأن البدائع باكملها فزعت الى ذاك القوام الاهيف ، المصقول !

وسطع في كلماته الايمان . فليس يماري ابن جردزده . وبجانب الايمان

لاح الشوق الاسيان . ان ابرهيم لمكلوم الحشاشة . واضمحلت بسمة المكر في وجه بكير . وجمد جمود الخاشع . فقد لمس في الفتى قلباً نازي الجراح ، مقهور الآمال . وعزّ على العميد الفارسي ، الغارق في المشيب المهيب ، ان تنزل النكبة الدامغة بابن جردزده ، نجّيه ، فتدمي روحه ، وتخرج به عن صفاء البال . وظل يحدق الى الفتى مشفقاً ، متألماً ، ولا يدري بما يداويه من عقابير . ان الحب لمسرف في الطغيان ، وما نجا من وقعه القـــاسي ابن ماهان . وتذكر ، وهو في كهولته ، الدارجة الى بواكير الشيخوخة ، صبابات الشباب ، وما كان منها غير ناهل وماتح ، لا يكسل ولا يهاود

وطمع في كلمات المؤاساة ينضح بها فمه . فما لتي منها ما يعدل معانقته ابرهيم . فقام الى الفتى يضمه اليه ملتاعاً ، ويقبله في جبينه ، ويقـول بحرير الاكتئاب : هل اساؤوا الى قلبك ، فحرموك المنى ؟... والله ، ما سادونا الا ليرمونا بالحرمان. كنا نقودهم بإباءة ، فاضحوا يسوقوننا بالعصا .والايام لا تستقر على حـــال ، يا ابرهيم . بيد ان السعي للانتقام يفرض علينا الصبر . فلنحتمل ، يا ابن اخي، ولنا في يوم التقويض، وما اراه بعيداً ، خير عزاء ، وستخترم سيوفنا كل جبّبر !

على ان كلمات التمويه ما كانت تنجع في ابن جردزده . قال بكير : اني لعلى اغتباط بكونهم جنحوا الى ايلامك . فان هذا الالم لمهماز يحثك على الامعان في التنكيل . قتلوا اباك ، وسلخوا منك متعة الروح ، فدوّخهم في يوم الحساب،وانزع منهم ارواحهم .لا ترحم فيهم شيخاً ولا كليلا،بل اقتلهم جميعاً،ولا تتهيب .فكلما ضربت اعناقهم اشتفيت ، وخففت عن نفسك،وعن روح ابيك . والله ، ما نعمت بالادراك الا والكابوس يهيض اضلاعي .

فهل لي ان اظفر بيوم يقصي عني الضيم الطحون ؟... اني لعظيم الامل بك ، فلا تخيّب عمك . ما ان نذهب بالامويين ،حتى نرتدّ الى هؤلاء المتنفخين غروراً ، فنقلقل فيهم الزهو ، ونقيم حداً للاعمار ، فما تمتدّ الى قصيّ امد . لن يطول اجل الطغيان ، يا ابرهيم !

فسكت الاثنان ، وما يفتأ بكير يطوّق بساعده عنق الفتى . ونشر عليهما الحزن قاتم الجلباب . ورأى ابن جردزده ان يوضح ، لهذا الفارسي المجاهد ، ما صمم عليه . فقال : لن ارجع اليهم ، يا بكير ، وفي العودة الى حماهم ما يذلّ نفسي . فلقد خضدوا انفتي بمنعهم عني فتاتهم آمنة . واني لاحس بكوني ذلك الحقير كلما شعرت بالصدمة اللاطمة ، حتى مع نأيي عنهم ، فكيف وقد امسيت فيهم ؟... وهل لي ، وانا ذلك الخائب في ما التمست منهم ، ان انظر اليهم بعين خالية من الحقارة والحقد ؟... بل هل اجرؤ على رفع العين الى عليائهم ، وقد ضربوني بجمع اكفهم في كبدي وعجبي ؟

فلم يكن بكير بن ماهان من هذا الرأي . قال بالدماثة الكامنة فيه ، بجانب ما يتأجج في صدره من حماسة ، لاحراز ما ينهد اليه من مأرب،وهو التاجر والسياسي معاً ، والحرفتان تفرضان اللين والدهاء : ساصلح بينك وبينهم . فلا تخف . وساميل بهم الى دعوتك اليهم ، والى الاعتذار لك عن المخاشنة . ولكن ابنتهم اذا لم تكن اليوم من نصيبك ، فهي لك غداً . نحن دونهم شأناً ، وهم في الاسلام سادة . الا ان هذا التقهقر عنهم ، ونحن الضعاف ، يحفزنا الى المجاهدة في التفوق عليهم ، كي نمسي اولئك الاقوياء ، ونهدم منعاتهم . واية فتاة منهم تستعصي عندذاك عليك ؟... طب قلباً .

على الضعيف ان يماكر ، ويلاين ، ريثما يقوى . وما ان يشتد ساعده ، حتى يجول ويصول ، وينيخ كل عنيد . اليوم يوم العرب ، ولكن الغد غد الفرس . فان عهد بني امية ليس طويلاً في مراتع الحكم . وبعد بني امية نحن ، يا ابرهيم . عرش كسرى الموؤود سيظهر وشيكاً الى النور !

ونفخ فيه الميل الى النضال . فالعز لا يستعاد بسوى الحزم ، والصبر ، والكفاح . فالنائم يأكل لقمته ، ولكن بخنوع . ولن يقع على ما يجاوزها . ثم هي ليست مبتلة بالادام ، ولا صافية من الحشارة . ومزدردها يغص بها . على حين يقع الكادح ، المقدام ، على الافاويه ينعم باطايبها . فما زال ابرهيم ابن جردزده مطرقاً . ما يعلن ببكير بن ماهان غير الصواب . على ان الفتى لم يطق الكسرة . فالعباسيون اقلقوا لبه . وما كانوا ليصدموه ، بذاك العنف الغليظ ، لولا حقد ابي جعفر . وساءل ابن جردزده نفسه : هل ينشأ الكره عفواً ، من نظرة ؟

ووضح له ان الكره كالحب . فكما ينشأ الحب فوراً ، يتقد الكره بلا أهبة له . فالحافز لا يرجح نزوع النفوس بعضها الى بعض ، او نزوع بعضها عن بعض . واحياناً لا يحتاج الامر الى العين كي ترى ، بل تكتفي الاذن بما تسمع . فيعلن الضمير موقفه لا يتباطأ . فإما تأييد ، وإما جفوة

وابو جعفر كره ابرهيم بن جردزده لدن ابصره . وليس لمن يكره ان يعشق ، بل يزداد في الجفاء . وهو ما لقي ابرهيم من شانئه . واني يرجع الى العباسيين ، وسيظل يقع فيهم على الناقم الحقود ؟... ان بكير ليزجيه الى ما لا قبل له به . أيلين كي ينصر الدعوة الناهدة الى سحق العرب ، واعادة مجد الفرس ؟

وتحركت شفتا ابرهيم لتعلنا بنفرة وألم : أتريدني على المذلة ، يا بكير؟... ازمعت ألا اعود اليهم . فلا تعدل بي عما وطنت عليه نفسي . ابرهيم بن جردزده لا يركب متن الحقارة ، فيهوي عن عزته . ان الفرس لذوو مكرمة وإباء ، ايها السيد الجليل !

فابتسم بكير ابتسامة صفراء ، تنضح بالهزء بالمكارم ، في جنب ادراك الصبوة . وتكفر بكل اباء ، والمآرب تفرض ، في بلوغها ، المكر والدوران . وقال يوضح للفتى ما ندّ عنه في المراوغة والاستذئاب : أيكون ما القيت عليك من امثولة ذهب سدى ؟... ما عرفتك ذلك الاخرق كي تنسى ما لقنتك اياه . فليس لنا ان نبلغ الهدف الا وقد صانعنا . والمصانعة تقدر عليك العودة الى الحميمة ، فتمالىء العباسيين ، وتختلهم عن ألبابهم . وعليك ان تتجاهل كل ما اصابك من كيدهم ، وأشرهم . فكأنك ما لقيت الاعراض ، ولا الزراية . فانت منهم . وذوو القربى لا يتناكرون . واذا تناكروا ، فلا يتباعدون . واذا تباعدوا تصفو افئدتهم ويتصالحون . وهو ما عليك ان تعتمد . ولا بأس ان تطوي حباً يهيج بين حوانيك ، ريثما يتسع لك الى سامق العزة . ومن انتظرتك بضعة اعوام ، فلا يضيق بها ان ترقبك على الامد . فهي لك . حتى اذا تزوجها سواك . وما ان تسود ، حتى ترتع في شهواتك جميعاً . أترى الرسوخ في الحكم مكتوباً للعرب ، وجميع اطراف دنياهم تتحفز لفتنة كاسحة ؟... صبرنا مئة سنة ، فلتكن مئة وعشر سنوات ، بل مئة وعشرين . وساكتب الى محمد بن علي انك عائد اليه ، وقد جئتني في زيارة ساقك اليها شوقك الى صفيّك ابن ماهان !

فصرخ يستجير به من الاكراه على الرجعة : دعني من شين الانكفاء ،

يا بكير . قهروا في صدري وثبة الجنان ، فاستبقني لوثبة الطماح ، وما تعدو نسفهم ، كأنهم عمود من الملح في زمجرة الصاعقة . انا للاخذ بالثأر . واني لاحسن الانتقام ، وأُجيد تدبيره . فادفع سواي الى المهالأة ، وقد رزحت باثقالها . احبسني على التنكيل ، واني لخير من يتولاه ، واحجب عني مرأى العباسيين العابسين . وما في وجوههم نداوة ، ولا في ضمائرهم التفات الى حسن الصنيع !

ـــ ولكني ادفعك اليهم للتنكيل بهم . ولا بـــأس ان تهفو الى هذا التنكيل تحت ستار الولاء والمعونة . فـــاظهر لهم طيب السريرة ، ولا تعفّ منهم عن ابن ساعة ، لدن تحين ساعتهم جميعاً !

ـــ انك لتحملني على ما يجاوز وسعي ، يا سيدي ومجيري !

فاعلن بكير باسماً : بل احملك على ما لا يفلح فيه سواك ، يا ابرهيم . انت وحدك ذو السيف القاطع . فكن فيهم جلاداً ، قاصف رقاب . انثر جماجمهم ، وارفعها درجات شواهق ، فنرتقي بها الى سؤددنا . كل عنق عربي الميسم ابتره بلا هوادة ، حتى تصفي منهم معابر الحضر ، ومجاهل البوادي . ما اتوسم مخايل الخير في سوى طلعتك وعزمتك . فكن فيهم فأساً فارعة . واطعم لحومهم اسود البراري ، وصلال الفلوات . فالليوث والافاعي على جوع . فاملأ اشداقها بما يفري سيفك من هامات مشمخرّة ، ومـــا هي جديرة بالاستعلاء !

فهتف وما يزال يعاند في براح الكوفة : أليس لي ان اصدم فيهم النماء في سوى هـذه النواحي ، يا بكير ؟

ـــ لا ، يا رجاوة عمك بكير . فلن تدين لنا الصبوة الا وانت هناك ،

بينهم . واني تبصر آمنة وقد جلوت عنهم ؟ . . . واني تعدّ لنفسك الغد الامين ؟ ... ليس لنا ان نظفر بالشهوة الا ونحن نحرض بعضهم على بعض . فان لم تتخذهم عكازاً ، بقينا ابد الدهر في قبضتهم . وارى اننا اهتدينا فيهم الى عكازنا . وعلينا ، فيما نتوكأ عليهم ،ان نبالغ في التفريق بينهم .فالمرجاة اضحت على ينوع . ولم يبق لنا سوى اقتطاف الثمرة . فهل ننكفىء في موسم القطاف ؟ ... كنا لهم حتى هذه الساعة ، وهي الفاصلة ، رفاقاً، فهل نوليهم الظهور ، وقد اوشكنا ان نفوز بالمنى ؟... ارجع اليهم ، وكن فيهم الفيصل الرهيف . وتعال كي اعقد لك على جميع اكوار فارس . فانت سليل بزرجمهر ، وما يحق لسواك ان يتقدمك في اقتعاد المعالي . والعرب ، على بكرة ابيهم ، عبيد لك وإماء !

فاصاب من حبة قلبه مكمناً ، وقد حدثه عن آمنة . لا ، ليس له ان يجلو عنها ، فيستأثر بها سواه . فان نزوله الحميمة يحول دون افلات الغادة العباسية منه ، وينزع بها الى مناهضة كل سعي لتزويجها فتى آخر . قال وما انفك يعتذر : ألا تراهم يمعنون في الاستهانة بي ، يا بكير ؟

وانتشر في كلماته الارتخاء . وتجلى للعميد الفارسي ما اعترى ابرهيم بن جردزده من لين ، فقال وهو يبتسم له ، ويحبوه القدرة على مصادمة الشدة : ساكتب اليهم بما يقيمك منهم في الناصية . فما تلقى بينهم غير الرحابة والاكرام . طب قلباً . حاجتنا اليهم لا ترمز الى استغنائهم عنا . فكلنا باضطرار الى مؤازرة بعضنا بعضاً ، والا تداعى المجهود بانفصام العروة . وهم على فطانة . فلا يخفى عليهم ما تدعو اليه المصلحة ، وما يفتأون يبحثون عنها !

فاستنام ابن جردزده الى مشيئة العميد الهادي ،معلناً بخجول اللين : ليس لي ان احرن في ميدانك ، يا بكير . على اني لن ارجع الى ربعهم الا وقد نادوني !

فاعلن السيد الطويل الباع ، الوسيع الذرع : وسينادونك . وما الميدان ميدان بكير بن ماهان ، يا ابرهيم ، بل ميدان الفرس اجمعين . ولاجل فارس علينا ان نكظم غيظنا ، ونرتضي الانحناء في الاستطالة علينا ، كي نفسح لانفسنا في اقتعاد المهد الوثير !

واغتبط بكير بما وفق له من تعبيد . ومال على ابرهيم بقبلة الابوّة ، الحافلة بالرضى والمؤاساة . ليس للمحطم الساق ان يمشي بلا رفيق يستند اليه . وبالغ في اكرام الفتى المقهور ، المفؤود ، مجاهداً في تفريج الضيق . قال : لا محيد عن ابلاغهم اياي نأيك عن الربع ، واستطلاعي امرك . فانهم ليخشون ، وقد رحلت عنهم ، ان تكون فزعت الى خصومهم الامويين . اقلقوك في قلبك ، وهم يحرمونك ابنتهم ،فاقلقت خواطرهم ، بانسلالك خفية من الحي . وساجيب ، لدن يقبل اليّ رسولهم ، انك عندي ، وانك على نفرة من العودة . فاذا شاؤوا ان تقفل الى الحميمة ، فليداروك . والا فانت عنهم على جنوح !

فما التوى عن الاستسلام المعلن . بكير بن ماهان لا تخيب له طلبة . واقام في الكوفة بين الدعاة الفرس يصغي ويحكي . وبات يرى ،في ما يدعوه اليه بكير ،حقاً . فما لقوم ،رسوا زمناً طويلاً ،في السؤدد ، ان يضيعوا تحت سنابك خيول من كانوا يرتجون منهم العطف ، والرفق

واذا ما بلغ حفدة كسرى ، ما التوى عنهم من مجد ، فسيعود العرب

الى بواديهم على انخذال ، ولا يبقى من العنجهية المنشورة رقيق ظل . وفي سبيل الوثوب الى الشهوة الحلوة ، المستطيلة العزة ، خفض ابرهيم بن جردزده من حدته ، ورضي بطيّ جناحه . فعليه ان يساير الزمن ، ريثما يحين الاجل. وللعرب ان يثبتوا في المصاولة ، اذا اسعفتهم الايام

وانعقدت مجالس الدس في دار بكير . وشهدها ابو سلمة الخلال ، وهو صهر بكير نفسه ، ومن ذوي الوفر الجسيم . وما يقل عن حميه ثراء واكتناز ارزاق . ودعي اليها رهط من النقباء ، وهم يشرفون على مساعي الدعاة ، ويرصدون حركاتهم ، ويحرضونهم على نشر روح الفتنة ، وخصوصاً في حجيج البيت الحرام . وتحدث الجميع بضرورة الموالاة ، حتى يشتبك العرب بعضهم ببعض . وعند ذاك يشق الفرس طريقهم ، بان يساعدوا فريقاً على هدم فريق ، ثم ينقلبون على من ناصروه ، ليقوّضوا به دعامته ، ويخلو لهم مقعد السلطان

وقال بكير ، وهو يلتفت الى ابرهيم بن جردزده : ومن لنا غير ابرهيم ؟ ... انه لينعم بالشباب ، وبالهمة ، وبالفهم ، وبالبطولة ، وبالاصل النقيّ . وما احوج مثلنا ، الى مثله ، كي ينقذنا من الاصفاد المضروبة على سواعدنا . فما تقاصر ، وهو يستقر بالربع العباسي ، عن ان يخدع اقطاب بني العباس عن امره ، ويوهمهم انه منهم ، وان اباه سليط بن عبدالله بن عباس ، حفيد عم النبي . واتسع له الى خدورهم . فاستهوى آمنة بنت علي ، اخت ركنهم محمد بن علي . وكاد يتزوجها لولا نفرة ابي جعفر ، الفتى العباسي المقيت ، العابس ابداً ، والتيّاه على الدهر ، كأن نفسه لا تطمئن الى سوى مطّ خده ، حتى على اصفيائه . وما يطيق ان يجد حوله من ينافسه

في الحزم ، ويدانيه في الضلاعة . ولمس في ابرهيم المقدرة والتفوّق ، فاضمر له السوء ، وفصله عن آمنة . فغضب ابرهيم ،ونفر عن الربع . فابيت عليه الا النكوص ، والمصلحة قبل الانفة . فاننا لفي موقف يهيب بنا الى التسامح ، والتناسي ، ريثما يصلب العود ، وتتهيأ لنا السانحة !

فانتصب ابو سلمة الخلال يقول : من حسن الرأي ان يرجع . آمنة لن تعزّ عليك ،يا ابرهيم ،وهي لك ، وان طال الموعد. فاذا حجبوها اليوم عنك، فسيقبلون في غد بها اليك كي ترتضيها ،وانت تتشامخ عليهم ، وترفسهم ازراء بهم . فان تلك الرؤوس المتعالية ستكابد من امتهاننا اياها ، لدن نستعلي ، ما يمحو فيها كل غرور . وما كانت هذه الارض غير مرعى لسوائمنـــا . وليس لنا ان نبيت فيها سوائم ،وهي مسارح قطعاننا . لقد غمنا عن مكارمنا، فسيطر علينا الاجلاف . وانها لمحنة . بيد انها محنة لن تدوم ، ولا بد ان تأذن عاجلاً في الانفراج !

وشعر ابرهيم ، وهو في قومه ، بأنهم يدللونه ، ويعقدون عليه واعد الامل . فهو في جبهتهم كوكب لامع يستهدون به ، ويتبيّنون منه الغد المشرق الطلعة . وشاقه ما يخلعون عليه من اماديح ، وما يبطنون له من مودات ، فنهض يقول : وحق من جمعنا على الُفة ، وبرانا من نطفة ، ساجري في رغائبكم ، لا انثني . ان الانتقام ليدعو احياناً الى الملاينة ، كي تهون طريقه على سالكيه . وسابدي اللين . فما ان يكتبوا الى بكير في امري ، حتى اقفل الى حماهم ، ويدي في مصافحتهم ، وقلبي في مكايدتهم . وستكون بسمتي لهم اشبه بنصلة السيف ، تضيء ، ولكنها تقطع !

ومحمد بن علي فكر في مكاتبة بكير بن ماهان في امر ابن سليط . فارسل

يقول : « ليس عندنا عنه خبر . ابتعد عن الربع وضاعت عنا آثاره . فان يكن يتفيأ ظلك ، فابلغنا من امره ما نطمئن اليه . وتلطف فارشده الى صعيدنا . والا فشاطرنا الفحص عنه ،ونحن نخشى ان يكون جنح ،فضلّ! »

وضحك بكير وهو يطالع كتاب القطب العباسي ، واجاب : « ما جنح الى سوانا . وما في نزوحه الينا ضلال . ولقد سمعنا منه ما لم يكن مدعاة الى حسن ظننا . فليس لمن كان منكم ان يشقى ، وفي رحابكم متسع للعطف ، وفسحة الى الارضاء . ومن الصعب الوقوع على مؤمن بضرورة احقاق الحق ،في عزمه ويقينه ، كابن سليط . وما في الامر عجب ، وهو ممن اختمروا بهواكم ، وجال في عروقهم دمكم . وساعيده الى موئلكم ، على ان لا يلقى من ضروب الايلام ما يؤذي فيه شمم الاباء ! »

فزالت عن محمد بن علي الكمدة ، والرهبة ، وهو يتسلم جواب بكير . ونشر في الحميمة قولته المرحة ، الطروب : ابن عمنا لم ينكر وشيجة الدم . فما هفا الى الخصوم يبوح لهم بسرنا ، بل دلف الى الكوفة يستنجد فيها ببكير . ألا مرحى لفتى الحفاظ !

وترددت في الربع الصيحة . وهتفت آمنة بنت علي : أرأيتم اي كريم ، مستقيم ،تميلون الى سلخي منه؟... والله ،ما عرفته غير سيد اروع ،سليم المهجة ، حريص على الرفعة . وان امثاله فينا قليل . ولكنه الصلف ، ولم نبرأ منه . والذود الاهوج عن الحمية ، وما هناك من يثلمها . ان شغفنا بالوهم ليميل بنا عن النهج السويّ . ابن سليط من الاخيار ، في هذا الوكر ، ولكن الخوف ، من خطره ،يميل ببعض النفوس التعبة ،الى تحطيم مضاء التفوّق بين حوانيه !

فما لقيت من يعارضها في القولة . سامعوهـا آمنوا بكونها لا تفيض بباطل . وابان اخوها محمد : ساناديه ، يا آمنة ، وسننظر في امره . على ان انصافه لا يسلم من الوعورة ، يا أُخيّة. وليس لك ، وانت النقية الارومة ، ن تكوني لمن لا يرتع في نقاوة العرق . واني ، اذا ما ناديته ، افرض عليك السكون عنه . والا فهو هناك على الامد ، يستظل الكوفة ، تحت جناح بكير !

قالت ، وقد هالها ما يطرق مسمعها : أتدعوني الى الاختيار ، يا محمد ؟

— الى الاختيار ، يا أختاه . كلمتنا نشرناها ، ولن نرجع عنها . وقد تكون بادرة جفاها التأني . الا اننا افضنا بها ، ولن نمحو ما كتبنا . واقلق بالي ان يكون ابن عمنا زحف الى الامويين يخلع عليهم اسرارنا . اما وهو في عصمة بكير بن ماهان ، فقد صفا خاطري من الخشية ، ولابرهيم ان يبقى هناك ما شاء . واذا راقك ان ادعوه ، فعليك ان تقيمي منه على امتناع . والا فلن اكلف نفسي ما نهون به . عاهديني على التماسك عن ابن سليط ، وهو فينا . وان لم تعلني هذا العهد ، فلن يقدم اخوك على اطلاق انياب الذئب في القطيع !

فماد قلبها وهم يجنون عليها في صبابتها . فهل يطيب لهم ان تحترق في جحيم اليأس ، فتذبل كاوراق الخريف؟... ما ارادتهم على سوى انعاشها، فما بهم يحرقونها بالنار ؟ ... واعلنت ، وقد تواثب دمعها على خديها ينهشها ، وكأنه على ضغن : اذا كنتم تميلون الى التضحية بحنيني ، لتأييد طلبة تنهدون اليها ، فليكن هذا الحنين فدى ادراككم المأمول . ليقبل اليكم ابن سليط ، وليكن عونكم على الخصوم. ولا بأس على اختكم ان تهب لكم قلبها، ليكون،

في يوم النضال ، نبلة في اقواسكم . انه الجهد المقل" . ولكنه اسمى ما عندي !
ولاذت بحجرتها ترش" بدمعها الارض . سخت باملها وبنضرتها في سبيل عترتها ، بل كرمى عين ابي جعفر ، ابن اخيها . فليطرب الحقود . وآثرت ان يبدو ابرهيم بن سليط في الربع ، وان تراه وتسمعه ، على احتجابه عنها في الكوفة ، وما تقوى على هذا التنائي المديد ، وربما لن يأذن في انتهاء
ليكن الفتى على مرمى عينها ، فتأنس بمرآه . وقد يسعف الزمن في انبساط المنى . وجاهرت أمتها حبابة ، الجارية الحبشية ، بقولها : قتلني قومي ، يا حبابة . فانا منذ الساعة ضجيعة الرمس ، وقد اضحت ايامي فواجع وظلمات !
وشعرت بانكسار قلبها . فكأنه من زجاج . غير انه زجاج حي" لم تمت فيه الروح . فيتوجع وهو شظايا . بل ان في كل شظية ألماً جارفاً يميت .
وتعجبت آمنة من نفسها كيف تبقى مستمتعة بالحياة ، وثمة ما يطعمها الردى . وودت لو تقضي نحبها . الا ان هذا الشغف ، المستقر بمهجتها ، يهيب بها الى البقاء كي ترى ابن سليط ، وتغتبط بمشاهدته في اقدامه ، وطلعته ، وتسمع احاديثه ، وتعجب بمآثره . وفي الرؤية والسماع لذة تخفض من حرقة الحرمان .
فاذا حيل بينها وبينه ، فحسبها ان تبصره ، فان لم يكن من قرب ، فمن بعد
وايقنت انها في احتضار . ولكنه احتضار طويل ، وسيمتد به الاجل ، وتعاني فيه انكد ضروب اللوعة . وما يضير اهلها لو ازجوا اليها الصبوة ؟ ... أيخجلون بابن عمهم ، وما ينفكون يذيعون في الآفاق انه منهم روحاً ودماً ؟
وكتب محمد بن علي الى بكير بن ماهان يقول : « ان لابرهيم ، ابن عمنا ، سامق المنزلة عندنا ، يا بكير . فما اردناه على سوى ما يرتاح اليه

وكده ، ويطيب به قلبه . وما كان لنا فيه غير امل مشبوب ، وسند مرهوب . وانه ليلقى ابداً بيننا الرحابة والسعة . ربعنا ربعه . وشأونا شأوه . واذا ما رجع الينا ، فان له من صدورنا اكرم مأوى ، واحنى ظل . فما قام في بني العباس من يدرج على منافرة وشقاق . وان من نشأوا فينا ليدركون ان القوة في الجماعة . وليس ابرهيم من سوى هذا القبيل . فليرتدّ الى موئل يحضنه ، والى مقام يرقبه . وما نحن ، ولا هو ، في الخاسرين ! »

فتسلم بكير الرسالة وهتف بابرهيم : انطلق اليهم . فما فيهم غير من يرتجي عودتك الى الربع . وذلل شموخك لهواك . فالاستكبار لم يفت اوانه . وكم في الذئاب من نعاج لا تكشر عن نابها الا وقد استسهلت الصعب . ان من ينيم غيظه لاربه هو الظافر . والا غلب عليه النزق يكشف عن عورته ، ويودي به . فالعاقل من رقب الفرصة ، لا من جبه العاصفة في شدتها ، فتجرفه . واني لاعيذك من الحنق في مجال الحلم ، ومن الحلم وانت القادر على قهر اللؤم . فلا ترفع رأسك، الا وانت موقن بانك اذا رفعته، لا يثنيه حائل عن نطح السحاب . عدْ اليهم ، وليس لهم ان يعلموا اننا نشيح عنهم في منازع القلب ، وثمة مشاغل السياسة ، وقد اجمعنا على البرّ فيها على متعدد الصعاب !

وساقه الى الحميمة . فانكفأ اليها ابرهيم بن جردزده وهو يغصّ بمضض الهزيمة . على ان محمداً بن علي ، وابنه ابرهيم ،بدا عنه جهامة الكسوف ،وقد اوفدا الى لقائه عبدالله بن علي ، وابا العباس . والاثنان تشدهما بابن سليط مودة لا يشوبها كدر ، وهي الصافية من شهوة التنافس ، الخالية من لوثة التشامخ والاضطغان

١١

تواثبت النظرات في الحميمة تستجلي هذا المطلّ عليها . وهمس فم في اذن : ها هوذا ، يا مولاتي . رجع الينا ابرهيم !

فاهتزت مولاتها وقد ابصرت العائد الاغرّ . واضاء البشر محياها . ان هي الا آمنة بنت علي . وتنفست باغتباط . قفل اليها من غيبته ظلام ، ومرآه نور . واذا قضي عليها ان لا تستمتع بلذة العناق ، فانها لتكتفي بالنظر الى من يشوقها فيه ريعان الشباب ، وروعة الاقدام . ولا بأس ان تقضي ايامها وغذاء قلبها طلعة بهية ترتسم في العين ، وبسمة تلوح في ثغر ، و كلمات معسولة تترطب بها الاذنان

وخاطبت جاريتها بقولة يشيع فيها الرضى ، معلنة ببشر : مرحباً به ، يا حبابة . فان في نزوله بيننا لبهجة تنتشر في الجوارح ، وتخضلّ بها المهج . فما دهمتني الكمدة الا وهو ناء . ألا طيري اليه عندما تأنسين فيه الى خلوة ، وابلغيه سلامي !

وودت ان تجود بما يعدو هذا البيان . ولكن اي خير في تقريح الجفون ، وتسهيد الخواطر ؟ ... فما دام الامل من الضؤولة بما لا يتسع له الى انبثاق ، فالكف عن المجاهدة في الباطل اسلم واولى . قالت حبـــابة : ساقص عليه كل ما بدا منك في اثناء انقطاعه عنا . ولقد عاهدت نفسي على الجمع بينكما ، مع وفرة الصعاب . فالحب لا يكبح له جماح ، يا مولاتي .

وان من يفرض عليه الخنق لمجرم ، تبّت يداه ، حتى وهو ابو جعفر !

فاغرورقت عينا آمنة. ما كانت لتسخو بحبها على الاضمحلال ، الا انه حكم اسرتها عليها ، وليست تقوى فيه على نقض . وسكتت لا تطلق نبسة ، مكتفية بسائل الدمع. قالت حبابة ، وهي المكتوية ابداً بألم سيدتها : سانقذك من لوعتك ، يا مولاتي . لست حبابة ان لم احقق مشتهى القلبين الظامئين !

فهزت آمنة برأسها ، وهي تسمع الجارية تجاهرهـا بالنصرة ، وقالت : لا تجوري على نفسك ، يا حبابة . لن يثمر العقيم !

وآثرت ان لا تفيض بالظلامة . فاذا قضى عليها اهلها ان تذوي على مهل ، كالبنفسجة في الزاوية ، ولم تقع على يد تقتطفها ، وعلى انف يشتمها ، وصدر يزدان بها ، فستكرم اهلها في مشيئتهم فيها ، لا تعاند ، ولا تسعى للمنافرة . فاستوضحت حبابة جازعة : أأكتفي بابلاغه سلامك ؟

ــ سلامي وحسب ، يا حبابة ، وليس لي ان اطمع في المزيد !

وعادت الى سفح الدمع . فطفرت حبابة ، على غير هدى من امرها ، تسأل عن ابن سليط . وشاهدته في جمهرة من رجال الحي يرحبون به ، ويكرمون وفادته ، هاتفين له : أتنأى عنا ، يا ابرهيم ، ونحن لك من الاصفياء ؟... فهل تجهل مقامك فينا كي تصارمنا ؟... ألا ما يدعوك الى الحرد ، وانت في قومك ؟... أترى احنى على العود من قشره ؟... كلنـا يفديك . لا انثابك بلبال !

فما كان ليوفق للبيان . وجلّ ما ملك في الجواب ابتسامة صفراء ، ما حبت الى انقشاع . فهي هي سلاحه في الرد على هؤلاء المجاملين ، وقد جهلوا كيف يعتذرون عن اساءتهم اليه ، في شهوة لبه . وتعجب من

سؤالهم اياه عن الدافع الى حرده. فهل يخفى عليهم ما رموه به من تنكيد؟...
لقد غالوا في التعامي عن قاهر الضيم

وحانت منه التفاتة التقطت بها عيناه خيال حبابة. فبلع عفواً ريقه، وقد تأثر بمرأى الجارية، وذكر فيها سيدة جنانه. وعاد ينظر اليها وباصرتاه تحتكان بباصرتيها، كأنما تستوضحانها امر آمنة. فماذا تشتاق حبابة ان تبثه من اخبار غادة العباسيين، ساكنة الروح؟ ... والتمس الافلات من الطوق المضروب عليه، كي يخلو الى الجارية الحبشية. ولكن النهزة عاندت في السنوح. فصبر ابرهيم على المضض، مكتفياً بالنظر المجهود الى من تحمل اليه من انباء الجوى ما يصبو الى الالمام به

وجلّ ما استطاع، في مخاطبة الجارية، ان يتظاهر برغبته في الانطلاق الى شؤون نفسه. ومرّ بقرب حبابة يقول لها همساً، وكأنه لا يسوق اليها الكلام: دعيني ابصرك في هذا المساء، وراء التوبة، بجانب البئر!

ولم يزد. فما رجع الى الحميمة كي يبالغ في الاحراج، بل كي يمهد الى المنى، نازعاً من خاطره كل ما يعرقل جهده في التفوّق على هؤلاء العرب، الماضين في الاستئساد، كأنهم سادة الدنيا. الا ان قلبه ما انفك يخفق بحب آمنة بنت علي. ولاجلها سيلتفت، ولكن من وراء ستار، الى خلجة هيامه ومانع في رؤية ابي جعفر. غير ان محمداً بن علي نادى ابنه الخشن الملمس، داعياً اياه الى معانقة ابن سليط، هاتفاً به: هذا ابن عمنا حقّاً، فكن له اخاً وناصراً. وان لم نتفق، فانى ندرك السؤدد؟ ... أخصام، وقوتنا في الوئام؟

وتعانق المتناكران. وطرب الربع لمصالحتهما. وهنأ القوم بعضهم

بعضاً بوحدة النيات ، وبصفاء الارواح . قال ابو العباس يداعب المتنابذين، المجتمعين على الالفة : هل لي ان ابشر نفسي بزوال الكربة ؟ ... والله ، لكأنكما الماء والنار !

على ان القلبين مطبوعان على النفرة . وكل سعي لازالة الحقد لم ينجع في جلاء السريرتين المتجافيتين ، وما تلتئمان . الا انها المظاهر ، وهي تفرض المصانعة . فاذا ما تكالم الخصمان المشدودان ، على رغمهما ، برباط المودة ، وضح في اقوالهما انها غير بريئة من الرئاء

وفي العشية ، وقد التحفت الخميمة بملاءة دكناء ، وجلس ساكنوها الى سُرُجهم يستضيئون بها ، والى نيرانهم يعشو اليها الضيفان ، تمـايلت ثلاثة اشباح في طريقها الى ما وراء التوبة . وتلاقت عند شجرة من الصفصاف ، ضخمة الجذع ، وارفة الظل ، بجانب البئر . وتبادلت الافواه الوشوشة ، كأنها لا تجرؤ على الجهر بالالفاظ

ـ آمنة ؟

ـ ابرهيم ؟

وهم ابرهيم وآمنة وحبابة . قال ابن سليط ، وهو يقبض على معصم ابنة علي بن عبدالله بهيام المشتاق ، وخشوع المتقي : احمد الله على هذا التمهيد اليكِ . فما كنت احسب اللقاء واقعاً ، واملي به ذوى . على ان للقدرة ، من عجيب الاحكام ، ما يبدد حلكة اليأس . مع ان الرجـاوة المثلى مـا تفتأ تكابد العصيّ العسير . فالعقد لي عليك متباعد الامد ، وقد يعزّ بلوغه ، والنيات ما تزال تقرّ الحرمان . الا اني عدت الى الخميمة ، وحافزي اليها الطمع في مرآك . فغالبت كل اعتداد ، راضياً بتصديع الانفة ، على ان اجيء

وابصرك ، واخفف عنك . فما يند ّ عني انهم ظلموك فيما يجورون عليّ فيك. ولكن الاحتمال مقدور ، يا أُخت روحي . وليس لنا ان نصادم مشيئة القدر ، وقد تحنو ، وترفق بمن خانها الوسع !

وزفر ، وما يبرح قانطاً من الصبوة . غير ان التلطيف اهاب به الى تعليل آمنة برشاش من منى . قالت ورأسها يميل على كتفه ، كأنه يبحث عن متكأ يهدأ عليه لفرط ما يوزح به من اثقال : سانتظر حتى انتهاء الساعة . فان حباً نشأ في نفسي ، وتأصل في اعماقها ، لن اسخو به على الاندثار . بيد اني لن اكون حائلاً دون سعادتك . فان تكن تصادف الخير في الانقطاع عني ، فانطلق لرفاهك . اشهى ما احنّ اليه ان اراك في نعيم !

وتماسكت عن البكاء . فليس لها ، وقد كتبت على نفسها الفداء ، ان تضعف فيه ، وتجيز للحسرة ثلم روعته . فقال ابرهيم ، وما كان مطمئناً الى هذه الاباحة : ما اجد النعيم في سوى قربك . قد ينفحني زمني باسمى العطايا ، فازدريها جميعاً ويدي خالية منك . ساناضل بملء ايماني عن حبنا كي يستعيد نضارته . اما اذا كبوت في الشوط ، فثقي بان ايامي ستنقضي على تعس . فلا يضحك لي الرغد حتى اذا تعالت الخيرات ، في حوزتي ، اكداساً !

فخافت عليه من شر ابي جعفر ، ابن اخيها . وقالت بصوت ينوح : على ان تتقي المعاطب. فلا تكشف عن ميولك وثمة من يحصي عليك الانفاس. بل اندفع في صبابتك على مهل ، وفي ظل كثيف من الكتمان . وساحفظك في قلبي . فاني لاعيش لك . وستجمع بيننا الخلوات . الا ان الحكمة تقضي ان نقيم على احتراس !

قال ، وما تحمله صبوته على سوى الاسترسال الى رغبة هذه الآمرة الناهية : ابرهيم ، ابن عمك ، جاهرك بما اعاده الى الحميمة . وعليك ان تبني ، على ما اسمعك ، منهاج غدنا . لا حياة لنا في سوى التلذذ بطيبات هوانا ، ولكن ونحن نسالم القدر !

وعلت غمغمات بقرب التربة . فانتفضت آمنة ، وهمهمت بخشية : من ؟

واجفلت وقد خيل اليها ان المفاجىء ابو جعفر . فخاف عليها ابرهيم ، وقال يبعدها من الخطر : انطلقي بسلام !

وسعى الى التربة كي يرى . فاذا به يبصر ابا جعفر نفسه ، وابا العباس ، وعبدالله بن علي ، عمهما . فحياهم وهو يقول : لكأننا على موعد . ما بال الرفاق يجوبون منفرجات الليل ؟ ... هل عبث بهم الارق ؟

فقال ابو العباس مازحاً : ولكننا اقبلنا نبحث عنك ، وقد سقط الينا انك على خلوة بذات انس . فاية دمية برّح بها اليك الشوق ، فضاقت بالانتظار ؟

وضحك ابو العباس . وشاطره الضحكة عمه عبدالله . على ان ابا جعفر ومضت عيناه ببارق الريبة ، حتى كادتا تضيئان في الحلكة ، كعيون الضواري . ورهب ابرهيم شر هذا المزاح . وهتف يدفع عن نفسه الظنة : درجت الى البئر ابترد بمائها النمير . فقد طال حنيني الى مراتع صباي!

وضحك ضحكة الخالي البال . فآمنوا بصدق هتفته . وقال ابو جعفر ، مع جسيم ارتيابه ، مطمئناً الى سديد العذر : ليس لمن نشأ في مكان ان يدهمه فيه النسيان . فالذكريات اللطاف حبيبة الى الارواح . تصحبها ابداً ، وتودّ لو تعاد الى صحيح وجهها ، وتستعاد !

وانتهوا الى سهرة ماتعة تحدثوا فيها بدواني الآمال . فالحالة في دمشق لا تبشر بدوام عهد الامويين ، والخلفاء من بني أُمية على لهو ، وضعف . فمن لم تضلله منهم المرأة ، اغوته الخمرة . ومن سلم من المرأة والخمرة ، دهمه الكلال . وتولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الامر ، لا يبقي على فاحشة الا اتاها . فمن سكر ، الى عشق . وحفزه طيشه الى التطاول على الكتاب . فتبرمت به الامة ، واودت به . وقام بعده يزيد بن الوليد الاول ، ودمشق تلقبه بالناقص . وهو أحول ، كعمه هشام . وكاد يكون اشبه بعمه في طباعه . فاستوى على فطانة وقوة . وشاع فيه البخل ، فكرهه الجند

وما تطارح العباسيون الاربعة ، المحتشدون في السهرة الانوس ، حديثاً يجاوز مدار الانقلاب الطارىء على مسند الخلافة . قال عبدالله بن علي : يزيد بن الوليد من الاشداء الدهاة ، المزدانين بالحكمة والحصافة ، الا انه وفد عليها وهي نخرة . وما اراها تهدأ تحت قدميه ، والوليد بن يزيد ، سلفه ، امعن في تصديعها . انها لوشيكة الانهيار . فلنستعد !

فقال ابو جعفر : هل اعددنا العدة لليوم القريب ؟

فابان ابرهيم بن سليط ، وهو الملمّ بانباء الدعوة ، والكوفة موئلها : بكير بن ماهان لا يني يحرض الدعاة على التأهب للفتنة . ولقد كنت لديه وسمعته ينشر على الانصار ضرورة التشمير للوثبة . فما لدولة اخذت بالتداعي ان يطول لها اجل . وخير ما نقدم عليه ان نهمّ بحشد الجموع . والغد منجدنا على الطغاة الاشراس !

وسرّه ان ينجو من شر المداهمة . فاليد الممتدة لهصره لم توفق للقبض عليه . فتوارت آمنة وجاريتها كالبصيص في الظلمة ، لا تهتدي

اليها عين . وانتثرت الحلقة والاجفان يثقلها النعاس . فارتد العباسيون الى المضاجع . وناموا وافئدتهم خاليـــة من الشكوك . ابن سليط تاب عن المكابرة في المحـــال . وتعـــاهدوا على اضرام النـار . سيندفعون في الصباح الى محمد بن علي ، القطب الرشيد ، ويعرضون عليه الموقف . فالزمن يبشر بالمواءمة . وما للعباسيين والعلويين الا ان يغيروا على الآزفة ، قبل ان يعتلي سنام الخلافة اموي بصير ،فيقوّم المنآد. ولكن الحي ما لبث ان اهتز بصائحة اعتكر لها الجو ، وهلعت الارواح . فاي شر صاعق باغت الربع الآمن السرب ؟

والليل في منتصفه . والقوم في مهودهم يغطون في النعاس . والظلمة كثيفة الاسدال . على ان الولولة المتعالية ابداً انارت المشاعل والسرج . فحملتها الايدي تخلع على الليل اشعة واشباحاً مترجرجة ، كالبرق الخطّاف الا انها دونه وهجاً ونفاذاً

وانطلق القوم الى مصدر النائحة . ووقعت في آذانهم صرخات ناعبة ، ناعية ، زادت في الوجل المستشري : محمد بن علي مات .فيا للمصيبة العمياء !

ومحمد بن علي سيد القوم ، فمـادت لمنعـاه المهج . وزادت العتمة في جسامة الرزيئة . وما درت الحميمة من تعزي بمن فقدت ، وكلها مفجوعة بالركن المنيع . فهو محور الدائرة . وتفجرت الصدور باللوعات ، والمآقي بالعبرات . وما في الحي غير من يعول ، ويهتف متلهفاً على القطب الهاوي : فقدنا هادينا . فمن لنا بعده ينير دياجينا ؟ ... وامحمداه !

وضاعوا في النازلة ، وقد سلبتهم اقوى عضد في اصعب ملمّ . فانى لهم ان يتدبروا امرهم والراعي نأى عن القطيع ؟ ... الا انهم التفتوا الى ابنه

ابرهيم لدن اختمروا بالداهية ، واستووا على مضضها . فاذا تولى عنهم سيد ،
ففي العرين سادة ، وكلهم حكماء ، دهاة

وفترت مخاوفهم ، وان لم ترقأ دموعهم ، ولم تتبدد احزانهم . ففي ابرهيم بن محمد الخير والهدى . وجمحوا اليه بابصارهم وقلوبهم . بات عنوان المناوئين . ووثقوا به . ان بين عطفيه لحزماً وسداداً لا يتسعان للومة . وانحنوا بين يديه،ونادوا به: انت وجهنا ورايتنا .بك نأتمّ ،وعليك نتكل. مات محمد . عاش ابرهيم !

وبايعوه . فهو الامام الجليل . وما كان ابرهيم بن محمد الا الكفيء ، وقد بلته الحميمة ، وادركت مدى صدق نظره ، وهو البصير ، الاريب . واستقر بموضعه من القيادة . واليه قامت صدور المجـــالس ، واليه تشدّ الرحال في صحيح المشورة ، وصائب التدبير . وادار الامر مقتفياً اثر ابيه ، فيستند الى الحزم ، مع الملاينة وطول الاناة

على ان سنة ١٢٦ للهجرة ، لم تكن ذات رفق بقادة المناهضين . فما ان تداعى محمد بن علي ، قطب الحميمة ، حتى تلاشى بكير بن ماهان ، عميد الكوفة . والخسارتان باهظتان ،شعر بوقعها الفادح العباسيون والعلويون. فانهار منهم عمودان أيدان من وجوه الدعوة واركانها . وما ضاق بالفرس ان يختاروا خلف بكير ، ولهم في صهره ابو سلمة الخلال السند الوطيد

وابرهيم بن محمد ما اعتلى اريكة الامامة ، في الحميمة ، وقد نودي به في قومه وخلصانه إماماً، حتى دعا سميّه ابن سليط ، هاتفاً به : تعال ، يا ابن عمي . والله ، اني لاعتمد فيك على شاحط الوثبة ، وصادق القولة . فماذا ترانا فاعلين ؟

فاوضح ابن سليط : ما في الجو سوى تباشير خير ، يا ابرهيم . فاطلقني الى خراسان ، وانا فيها مضرم النار . ما هان بنو أُمية بمثل ما يلتوون فيه اليوم من عثرة . فادفعني الى تعكير الافق الفارسي عليهم ، وانا من المفلحين !

ــ أيسلس لك قياد فارس ؟

ــ الفرس في حزمتنا . وما يتشامخ علينا غير اولئك العرب من بني أمية . فهم وحدهم من اتقي ظله . اما اذا اطلقت فيهم يدي ، فاني لموردهم المهالك . يوم الحصاد طاب ، يا ابرهيم . وانا في يمينك المنجل المستأصل . هلا عهدت الي ّ في الاجتثاث بلا حساب ؟

فاطال اليه النظر . أيدعوه الى الفتك بكل عربي ؟ ... ولكن العرب قومه ، فكيف يبيحهم للنصلة الماحية ؟... قال ابن سليط ، بل ابن جردزده ، وما اتقد بين اضالعه غير روح فارسي قح ّ : ما يعوقني عن انجاز ما تعهد فيه الي ّ سوى اخواننا العرب ، الضاربين في ذلك القطر البعيد ، وقد حملوا اليه حزازاتهم ، وعنعناتهم . وكلهم يفاخر بماضيه . فان لم اسلم من شبجهم ، وهو الحائل دون المنى ، دهمتني الصعاب ، وقعدت بي عن المروم !

فصاح ابرهيم الامام : والله ، يا ابن عمي ، لا ترحم فيهم وليداً . فاشدخ ، وابتر ، واقتلع ، بلا مسايرة ولا ونية . لا ترأف بكسيح ، ولا برضيع . فكلهم للنار . ولا تعف ّ عن سوى من يوائم ، ويطيع . نحن مقبلون على انشاء دولة حديثة الركن ، واللون . ولن نقوى على تشييدها الا اذا طبعنا نفوس القوم بطابعنا . ولن يتسع لنا الى هذا الطابع ان لم ننسف القديم . فكل جيل عربي يسبق عهدنا في السؤدد ، لا تلين لنا شباته . فاقصف

عنقه ، ولا خير في سوى الحديث ، البريء من روح المخضرمين ، المفسدين !

فانتشى ابن جردزده بما يسقط اليه . ليت بكير بن ماهان بقي حيــاً . اذن لامتدت به السن . فما يظمأ الى سوى هذه البشرى تقع في مسمعه . وجلّ ما يصبو اليه تقتيل العرب واحياء الفرس . وسيفنى العرب ، ونصلة ابن جردزده موكلة بهم ، ويعيش الفرس احراراً . تحققت شهوة بكير . فلتنتعش عظامه في مدفنها !

قال سليل بزرجمهر : ارى الحكمة لا تخرج عن هذا المعبر . فكل عربي في هاتيك الاصقاع للانقراض . حتى اذا ما نادينا بالثورة ، لا يلقى الامويون غير الفرس ، فتدركهم الوهلة ، وهي طليعة الهزيمة . فابشر ، يا سيـدي الكميل !

قال عميد العباسيين ، المطلع ، منذ حداثته ، على البواطن والمسالك : تأهب اذاً المسير ، ولن اقع على سواك . حفزت نصيرنا ، هناك ، سليمان بن كثير الى الثورة ، فتردد . وقد يكون له ، من تقدمه في السن ، بعض العذر . اما انت فما تبرح على غضارة الشباب ، ولك من الخامسة والعشرين مرقاة الى مستكمل النضارة . واني لعامل الامويين في خراسان ، نصر بن سيار ، ان يجاريك في المضاء ، وهو في شيخوخة صاحبنا ابن كثير ، بل يرجحه فيها ؟... على انك لن تدخل خراسان كابن سليط العباسي ، والاسم مبعث شبهة ، بل ساخلع عليك اسماً آخر ، لا تتطاول به اليك ريبة تفضحنا !

فاستوضح ابن جردزده : واي اسم ترى ان تنفحني به ، يا ابرهيم ؟

فاعلن ابرهيم الامام : اخاف اذا دروا بانك منا ان يفسد علينا مجهودنا . وما نوفدك للافساد ، بل للفلاح . فانت منذ الساعة عبد الرحمن بن مسلم ،

وكنيتك ابو مسلم . ولن تتزوج آمنة عمتي ، والا بقينا عرضة للظنة ، بل نعقد لك على ابنة عمر بن اسماعيل . فتلج خراسان دون ان تثير الشكوك . وتستقر بالنظيرة لتدير الامر بجد واقدام. ولا بأس بالشدة ،وما اراها غير النهج السوي !

فبلع ابن سليط ريقه ، لا امتعاضاً مما نشر عليه ابرهيم الامام من اسم ، وقد تعددت فيه الاسماء ، حتى بات يجهل ما يدعى به منها ، بل نفرة من ابعاده عن آمنة . ولمس براعة الحيلة . فما حبس عنه ابرهيم الامام عمته ، زراية بمنتماه ، بل لخدعة تفرضها السياسة . وبمثل هذا الدهاء اللج مال الامام الى الكبح من جفوة سميه ، والى ارضائه . وسدد ابن جردزده النظر الثاقب الى العميد العباسي ، المتضلع من اساليب التخدير ، وقال في نفسه : سقطنا في ابرهيم على من لا تمسك به الحواجز ، على مناعتها ، عن احراز الغلبة . فهو من المهارة بما يفوقنا جميعاً . وسنظفر ، ما دام يقبض على الرسن . فنقهر الامويين. ولكن ليس لنا ، نحن الفرس ، ان نعفو عن هؤلاء المغرورين ، ومبتغانا ان نسود !

بيد انه استنبأ ، وهواه اللاعج يصول بين الضلوع : وهل لي ان اقنط من آمنة ، يا ابن عمي ؟

فابان الامام : لا سبيل الى القنوط . زفافها اليك موقوف على مبلغ توفيقنا . ما ان نعتلي ارائك السؤدد ، حتى نطلق يدك في الاخذ لنفسك بقدر ما تصبو اليه . فليطمئن بالك . وجل ما علينا الآن ادراك البغية . فاندفع الى وكر الشغب ، وهز فيه المسترخين . ولا بأس ان تساير اليمينين ، وهم منا . فقد ثاروا تحت امرة جديع بن شبيب ، الملقب بالكرماني ، على نصر

ابن سيار ، الوالي الاموي . فكن في مؤيديهم ، ولن تخسر . وسيوضح لك صاحبنا ، سليمان بن كثير ، ما يخفى عليك من المقاتل والمزالق . فالقِ اليه اذناً سمِعة ، وامضِ لمأربك بمغالبة الحوائل . فاضرمها حمراء تتوهج ناراً ، وتسيل دماً . ونحن هنا في مساندتك . فنادنا اذا هان فيك العزم !

فانعشه وهو يعده بآمنة . واستفهم على شغف بالرحلة ، وستدنيه من الرجاوة : ومتى اركب لها ، يا ابرهيم ؟

فاوضح الامام العباسي : في الوشيك ، يا ابا مسلم . بيننا وبينها خطوة اسبوع. واذا طالت فلن تعدو الاسبوعين.وعليّ ان ابلغ قومنا ما ازمعنا، وان اتوالى تزويجك من اصطفيت لك . وهي ، في عرفي، من انقى نسائنا سريرة ، ومن اكملهن حسناً . بورك لك في الانيق المنيف !

فافاض ابو مسلم بالقول الفرحان : لك ان تدفعني الى الهدف ساعة يطيب لك ، يا ابن عمي . فانا سهمك المرنّ ، ولن اطيش !

فنادى القطب العباسي اخوته واعمامه، ينشر فيهم قولته: انتدبنا ابن عمنا ابرهيم لتحريض اخواننا ، في خراسان،على العتاة . فهو اعلى بهم من سليمان ابن كثير عيناً ، واطول في المنافرة باعاً ، واقسى على الطغاة منهم علينا . فزوّدوه دعوات الخير . ان نجاحه نجاح شهوتنا !

فهتفوا يطلبون له الفلاح ، ويطرون جرأته، ونفاذ بصيرته. فلن يضيق بالترويض والتحريض . وما توانى ابو جعفر في ابداء البشاشة ، وفي طلب التوفيق . قال وهو يصافح من يقيم منه على متأجج الكره ، ويوقن بانه يقع فيه على خصيم حديد :ما التمست الا ان اراك في الساحة،تنزل بهؤلاء المستذئبين ضروب الافناء ، على بعيد جماحها ، يا ابرهيم . فان في ساعدك لهمة الاغمار ،

وفي باترك انياب الاسود . فمزق ، وهشم ، ونحن في التلبية لدن يقع في مسامعنا نداؤك . كلنا على الظالمين !

فابتسم له ابن جردزده ، وقال مداهناً : حسبنا دعاؤك ، يا ابا جعفر !

فما درى العباسي العنيد أيسخر به ابن سليط ، ام يجدّ في القول . وما كانت ابتسامته لتنشر صادق اللون . وهتف ابرهيم الامام : ولقد نزعنا منه اسمه العباسي مخافة الشبهة . فاضحى عبد الرحمن بن مسلم . ويكنى ابا مسلم . وسنعقد له على ابنة عمر بن اسماعيل !

فاجمعوا على الاستحسان ، هاتفين للقطب الحصيف : والله ، ما اقدم سواك على هذا التدبير الفطين . فكأن الحكمة بمستدقها وخطيرها بين حوانيك !

وباركوا لابي مسلم بالثلاثة ، بالاسم ، والكنية ، والزوجة . واحسوا بان عبئاً تدحرج عن الكواهل . سلمت آمنة من لجاجة هذا المستهام الصليب . وسلم العباسيون الاحرار من لحيق دخيل ، يدعي كونه منهم . وهم ، لاضطرارهم في محنتهم الى السند الضليع ، يواطئون على الدعوى ، مع يقينهم انها تدرج حثيثاً على بهتان وزور

١٢

الليل ، في الخيمة ، على نفث لهيب . فالرمال ما تزال تكتوي بميسم النهار اللاذع . والجو ثقيل الوطأة ، جافّ الملمس ، وقد خلت فسحته من هبة ريح

وزحف الحي الى العراء يرقد في رحابه ، بنجوة من ظلال الجدران والسقوف . ولهثت العجماوات واسترخت . فكأن الصحراء اتون يتلظى ، ويكفر بالخمود

وضاق الخطو بكل من يدبّ في هاتيك الارجاء . فما ان تتحرك الاجساد حتى يعروها البلل ، كأنها تسبح في الغمر ، فتنضح بمواهتها ، كحشاشة تذوب

واقفرت البادية من كل خيال يتمايل.وانتشر سكون محرج ، تصاعدت فيه الانفاس على ملل وعياء ، وودت لو تفيض . وهاج الحشرات نزوع الى الزحف في البحث عن الرطوبة ،فجفاها المأ ول.فحقدت على البيئة المتفاقمة الغليان ، وطاب لها اللسع بلا تؤدة . وعلا للافاعي فحيح ، كأنها تجدّف على القيظ ، وقد اقلق فيها صماء الاحجار بنهشة غير المهادن ، فتعمدت نهش كل من تصادف ، وما تصادف ، شوقاً الى الانتقام اللجوج !

وعين الماء في الخيمة اضحت في سخونة المرجل الحامي . يجرع الظمآن ماءها وما يرتوي ، بل ما يحس بانه يعبّ الماء ، وكل ما يرشفه ينزفه ،

كأنه في حد نفسه ينبوع يسيل

على ان المضارب قامت حول العين التماساً لبعض النداوة . فالبلل خير من الرمضاء . وشخص نفر من ذوي الهمة الى الواحة للابتراد . وتلاشت الاصوات ، كأن الحناجر أُصيبت بالبحّة . بل هي باتت تخشى ، اذا تكلمت ، ان تبذل جهداً ، فيتفاقم فيها السعير

وغلب السهاد على الارواح . ومن نام تقلّب على مضض . وخلعت الاجساد عنها ستائرها ، كأن العري عاد ادراجه ، ولم تقم للنسيج سوق تروج

وفي هذا الحر الحديد الناب ، وعلى الرمل المشتعل ، كأنه نحاس تحميه النار ، انسابت ثلاثة اخيلة الى كثيب يعتلي منكب الخميمة ، كالجرة المقتعدة كتف واردة الماء . وتسلق الثلاثة التلة بعضهم في اثر بعض. واطالوا النظر الى الوراء ، كأنهم يحاذرون ان يلحق بهم عذول

واطمأنوا الى مثواهم . وغمغمت شفتان : اذن سترحل ، يا ابرهيم . ولن ترحل وحدك ، بل ستكون لك زوجة تقاسمك مؤونة السفر . وانت سعيد بهذه الرفيقة المختارة . حياك الله وحياها . فاني لاعرف ابنة عمر بن اسماعيل . وهي غادة ذات رواء ، وظرف ، ووفاء . ولست لك باللائمة ، وانت ترتضيها ، لا والله ، وحبنا بات كالمحال !

وطفر اللوم القاسي في لهجة البيان الزاعم انه يتمالك عن اللوم . واندلعت الكلمات على صرير ومرارة يرمزان الى كسوف امل . فقال من سيق اليه الحديث : انك لتلصقين بي الشذوذ عن الولاء ، يا آمنة . ولست انكر اني اجترحت النكر. ولكن من حفزني اليه ؟... الامام ابرهيم ، ابن اخيك.

والسياسة قدرت علينا هذا التدبير الممضّ. وهل يخفى عليك ، وانت ابنة قوم تمرسوا بها ، اي جناية تنزل بالاكباد ؟ . . . على انها اذا كسرت ، فقد جبرت . ما زواجي بابنة عمر بن اسماعيل سوى رفّة جناح . وبعدذاك الرجوع الى الوكنة لادراك الطلبة المرجوّة . وهل لي عنك محيد ؟

وهو ابرهيم بن جردزده . وهي آمنة بنت علي. ورفيقتهما حبابة ، الجارية الحبشية . قالت آمنة ، وفي ألفاظها حرقة مكلوم : لست عاتبة عليك ، وحقك ، يا نجيّ نفسي . ولكني عاتبة على حظي الكابي ، وما يفتأ يدحرجني من حفرة الى حفرة . ومن لي يعاهدني على برّ هذا الكافر في التعلّة ، وما كان ذا حرص على المواثيق ؟... غير اني مكرهة على الاحتمال ، وامري ليس في يدي. وماجبوت الى هذا اللقاء كي اشكو ، بل كي ادعو لك باليمن. فاذا قهرت الامويين ، ورجعت الى الحميمة ، وفي يمينك لواء النصر ، ولم تجد آمنة بنت علي بالمرصاد ، فقل انها ماتت متلهفة على مصيرها . تعللتْ بان ترسو في عصمتك ، فاقصاها التيار ، الزاحف ابداً فيمناوأتها كعصف النوء ، عن مرتع الانس الخميل !

ولم تطق هذا البلاء كله ، فارتمت على صدر ابن سليط تنوح . فتألم ابرهيم ، ومال عليها يلقي خده الى خدها ، ويبالغ في الترفيه عنها ، معلناً بمجاهدة في الاقناع : ولكن على رسلكِ . ابن عمك ليس بالغادر ، ولا بالناسي . الا انه القدر . وهو من قضى عليّ بان اتزوج سواكِ . وما يسعني ان اخرج على حكمه . ولا سبيل لنا الى الاستعلاء بسوى التمويه . فاضطررت الى تبديل اسمي ، والى الزواج بمن ليست منا ، كي استر امري. فانا منذ اليوم عبد الرحمن بن مسلم . وكنيتي ابو مسلم . ولا صلة لي بآل

البيت بما يوجح الطاعة والتعظيم . على انني اتفقت وابرهيم الامام ، ابن اخيك ، على ان تكوني لي . فلا اعرف ، ولن اعرف زوجة سواك . فما يهيب بك الى الكآبة والنحيب ؟

وجنح الى ممازحتها ودغدغتها كي يثير ضحكها . إلا انها ظلت على برطمة . فما تصبر على استقرار من تهوى بكنف من تنافسها فيه . وللغيرة وثبات متنمّرة ، كجماح الضواري والاعاصير . وهتف ابو مسلم : أما للجلد فيك مقام ؟ .... ليس للمحنة ان تطول والفرج في الطريق . انا سائر الى تفجير القذيفة ، ولا عائدة لنا في التطويل !

فتنهدت بشاحط الالم . لا مذهب عن الانتظار . قالت وهي تكره نفسها على الصبر : اذهب . اذهب . ليس لي ان احبسك على نفسي ، وما انا بصاحبة الرأي فيك . فهي السياسة ، وحكمها قاطع ،لا نقض له . فالمتلاعبة بالاقوام والدول ، لن تعصيها فتاة كشعلة السراج ، تطفئها زفرة، حتى وان تكن هذه الفتاة آمنة بنت علي !

ونادت بضعفها . ونزعت الى الاستسلام مغلوبة على امرها . فليست من يلجم القدر ، ويملي التأريخ . قال ابو مسلم يباعد في نفحها بالطمأنينة : ابنة عمر بن اسماعيل طالق مني ، يوم بلوغ الامنية السمحة . فلا يبقى لابن عمك الا ان يطلبك على رؤوس الملأ . وهل يخفى عليك ما ينعم به الظافر من عزة واستطالة ؟ .. لنحتمل المضض ، يا اخت روحي . فمن طوى السنوات الفساح يرتقب النهزة ،لا يغص ببضعة اشهر يرصد فيها المأمول . انا من يجيد اطاحة الامويين ، وقد شيدت لهم الارماس يغورون في ظلماتها غير راجعين !

وحدثها بالغد ، حديث الواثق بامتلاك زمام العهـــد المتحفز للبزوغ . فلترصده على اخضلال رجاء . وقال يمضي في نشر مواتع المنى : بنو أُميـة هانوا ، وقد اخذ يقتل بعضهم بعضاً . فما بطش بالوليد الثاني سوى يزيد بن الوليد الناقص . وعندما يتقاتل ابناء الاسرة الواحدة يدب اليهم التلاشي . فلن يعمّر بنو أُمية اكثر مما عمّروا . وجاءت نوبتنا نحن ، المدعوون الى اعتلاء السدة . فبشراك . ليس لك ان تدري الى اي مرتبة سيسمو ابرهيم!

وكاد يكشف لها، في ثمل البهجة ،عن نياته. الا انه قعد عن الفياش ،ولم ينضج اوانه . وراقها ما يفرش لها من نديّ الريحان ، فغمغمت بفرحـــة ، كأن غيرتها نامت فيها : وفقك الله !

قال : اذن فاصبري . ولا تبخلي عليّ بدعائك وصلاتك . فاطلبي الى خالق السماء والارض ان يهديني السراط القويم !

وابتسم لها . فردت له ابتسامته وهي على جهل من امرها . أتخفق في ميولها ، ام تفوز ؟... وغرق رأسها في صدر حبيبها . وضاعت عن نفسها . أتطرب ، ام تجزع ؟... قال ابو مسلم : ليس للامل ان يموت !

ولفّهما العناق اللاعج.وبكت آمنة ورأسها في صدر ابرهيم، وودّت لو تثوي به حتى الابد.ورعت شفتا ابرهيم في شعرها الفياض بالدفء والطيب . وطال النشيج . وخاف ابو مسلم الارصاد ، مع رغبته في الاستقرار سرمداً بجانب من لا يهيم بسواها ، ولا يرجو الا الاستمتاع بنزوعه اليها ، فنهض وهو يشدّها اليه ويقول : جميع الحوائل لا تقعد بي عن البقاء على عهدك . واذا تغلبت اليوم علينا الاقدار ، فلن يطول انتصارها . وانا وانت على تدوخها . لنبرح الآن هذا المعقل مخافة العيون . والواحة ملقانا للوداع قبيل

الرحيل !

فهالها الوداع والرحيل . أتبقى وحدها لتتقلى بحسراتها ، فلا تجد حولها من تشكو اليه بلواها،فيشاطرها لوعتها ؟... ظلمها من ازجاها الى النور كي تشقى . وتأوهت تشتعل برزيئتها.ما نعمت بالوجود الا لتنتقم منها القوة الخفية ، المستأثرة بمصير الارواح . فبئس ما كتب عليها . وتململت حاقدة على زمنها . لقد اضاعها.وانحدر الثلاثة عن كثيب الرمل ، والحر يستشيط، ويمعن في الكي . وما استطاع الشجيان ان يظفرا بالغفوة .على ان ابن جردزده بدا اصفى بالأمن ابنة علي . فالآمال ، المزدحمة في لبه ، تجلت له على وشك الانبثاق . كلها يصبو الى الطلوع . سيقهر الامويين ، فالعباسيين ، ويستولي على القادة . وتقبل اليه آمنة فيبيت خليفة المسلمين . فما لسيادة الفرس ان يدركها الافول ، وفي الصدور عزمات ، وفي العزمات مضاء ، وفي المضاء نصر مأمون

وخوطب عمر بن اسماعيل في العقد على ابنته لابرهيم بن سليط ، فقال : ولكنه حبيب الي . وما لمشيئة ابرهيم الامام ،وهو سيدنا جميعاً، ان يعروها انتهاك . فما دام يقدر علينا هذا الزواج ، فلا مرد لقولته القاطعة !

وكان الزواج ، وآمنة بنت علي تتلوى ألماً . فالغيرة تأكلها ، وتهز فيها وضاءة الروح . ما رقبت في منازعها هذه الشدة . غير انها استندت الى الغد . أينصفها ؟... هذا ما لاح لها فيه وميض من رجاء . ولم تقو على درء النواح عنها . فانهلت مآقيها ، مع غالب سعيها للامساك عن النحيب

ووردت الانباء من دمشق ان يزيد بن الوليد مات ، مع كونه ما زال طري العهد في الحكم ،وما زادت ايامه ،الا القليل ،على الاشهر الخمسة.

وتنادت الحميمة الى مجلس تقرّ فيه وجهها . واجمعت على السعي بلا ابطاء . سنحت النهزة ، كما تلوح شواهدها لكل عين . يزيد الناقص جنح الى توطيد الامر بيد حازمة ، تشبهاً بالعمرين ،بابن الخطاب وبابن عبد العزيز . وارمد ناظريه ان يلي الوليد بن يزيد الخليع الحكم ، وان يبيح الدولة لسكره وفسقه ،فانطلق اليه يبطش به ،وينقذ التراث الخيّرمن طيش المهووس . ولكن الموت لم يرفق بالمصلح الرشيد . وليس المقبل بعده ، وهو اخوه ابرهيم ، ممن يركن اليهم في رتق الفتق ،واصلاح العيب . ولا كلمة تدل على حصافة ، ولا رأي يعوّل عليه . فهتف ابرهيم الامام : اين سنانك ، يا ابا مسلم . يوم الطغاة كشف جبينه!

وعقد له راية الظل . وقال وهو يودعه : يا عبد الرحمن ، انك منا اهل البيت . فاحفظ وصيتي . وانظر هذا الحي من اليمانيين ، فاكرمهم . وحلّ بين اظهرهم . فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم. وانظر هذا الحي من ربيعة، فاتهمهم في امرهم . وانظر هذا الحي من مضر ، فانهم العدو الغريب الدار . فاقتل من شككت فيه ، ومن كان في امره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت ألا تدع في خراسان لساناً عربياً ، فافعل . فأي ما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه ، فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ سليمان بن كثير، ولا تعصه . وان أُشكل عليك امره ، فاكتفِ به مني !

واباح له الدم العربي . وما اشتهى فارسي موتور الا ان يسفك هذا الدم في التمهيد لاستعادة عرش كسرى ، مطبوعاً بطابع الاسلام . ولن يسيطر على فارس وحسب ، وقد اباد العرب ، بل على كل قطر يشهد بالشهادتين ، ويدين باحكام الكتاب

وما غفل ابو مسلم ، وهو ينزح عن الخيمة ، عن وداع آمنة بنت علي.
وهل له ان يغادرها الى حيث تبعد به عنها الاقاصي ، ولا يبثها الشوق ،
ويتزود مرآها ،وحديثها ، ويشدد عليها الاصطبار ؟

وموعد اللقـــاء مضروب . ففي الواحة مكانه . وفي ظل باسق النخيل .
وطفرت اليها آمنة تلحق بها حبابة،جاريتها الحبشية ،رفيقة كل خطوة . وبلغتا
موئل الاخضرار والنداوة ، والشمس تجمع اشعتها ، جانحة الى المغيب ،
كما يلمّ الصيّاد شباكه ، وقد حان له الانصراف عن الغمر

وما انفكت آمنة ، على طول المسير ، ترشّ بدمعها الارض ، ملتاعة
بائسة . اضمحل سمين الامل ، وليس لمن تروج ان يفكر في الطلاق . واذا
تاق اليه ابو مسلم ، فكم من حوائل تصدّه عن الملتمس . ثم هو يندفع في
وثبة خطرة قد تحرمه العودة ، بل الحياة . فما ينهد الى سوى زلزلة الارض
بالامويين . وليس الامويون ، مع ضعضعتهم ، على وهن . فانهم لممسكون
بالقوة ،يقهرون بها المتطاولين عليهم في باذخ السلطان

ولم تفتح آمنة اذنيها لنصح جاريتها السوداء . فدعتها حبابة الى حجب
الدمع عن المقلتين الدعجاوين ، الفاتنتين . فقالت تتحرق : واي حاجة لي
بهما ، يا حبابة ، ولن ابصر بهما من اهوى ؟... فالحبيب سينأى عمن حبست
عليه خلجة الهيام . والوعتاه !... أأرفق بهما كي اشاهد الوجوه الحـــانقة ،
الدميمة ، الفارضة عليّ الوحشة والعذاب ؟ ... لا ، وحق السماء ، ايتها
الصادقة الذمام ، لن استبقيهما لمرأى الطغاة . وجلّ ما استعين بهما عليه
التسهيل الى نفث كربي ، واعلان شكاتي ، فتسيلان بذوب حسرتي . وفي
سكب الدمع ومضة من عزاء !

وافاضت بجائش ياسها . باتت دنيـــاها ، في يقينها ، كالحة نكداء . وما تزال تحتمد على الزمن . فما انصفها . ولو رفق بها لرصع ايامها بابن سليط ، ابن عمها ، أو لابعدها عنه ، واسعفها على هوى يسير

وجلست ، في الواحة ، في فوهة كهف تقصيها عن العيون . انها لتتفادى من اللمحات النمّامة ، العاذلة ، وتروم الاحتجاب عن الجميع . واشتد بهـــا الكره لابي جعفر ، ابن اخيها . فهو من حفر لها الحفرة ، واوقعهـــا في الحرمان . والا فلم يكن لقومها ان يعارضوا اشواقها . ولكن المشاكس ، الضيق العين ، يأبى الا ان يعيش في صدام وصراع

وانسابت حبابة الى مدخل الواحة ، وقد تنكرت بثياب البدويات ، كما تنكرت مولاتها . فلا هذه حبابة ، ولا تلك آمنة . وماج في عينيهـــا طيف خطّاف ، ينزلق على الرمل شرارة طائرة . وعرفته . وهل يخفى الاروع ؟... هذا ابن سليط . وارتعش له قلب الجارية ، كأنها منه على فورة شغف ، كسيدتها . ولوّحت له بيمينها ، فما ضاع عنها . ان هي الا حبابة . قال يستنبيء : واين سيدتك ؟

فلم تجب ، بل اكتفت بان تجري امامه الى فوهة الكهف ، وتشير بيمناها الى الحزينة ، المتفجعة ، المقتعدة مدخل الغار ، وعينا الجارية ويدها تقول : هذه هي . انظر اليها في فجيعتها !

فهاله ما يبصر في ذات السنى الانور . معارفهـا عطلت من المواهة . ومحياها دهمه الشحوب . وجمالها اعتكر . وهانت عزيمتها ، كأنها تكابد السقم . فجزع ابو مسلم ، وهو لا يفتأ يراها على حرقة مصوّحة . أتذبل ، وما يريدها الا ناضرة ؟... وهتف بها هلوعاً : أتذوبين ، كأنك الشمع

على النار ؟ ... لا كان من يرنو اليك شزراً ، فدتك روحي . اني لاتحرر لاجلك من كل ميثاق ، ولينقم عليّ قومي ، وليسفكوا دمي . لن ارحل ، نعمى عينك ، عن الحميمة الى خراسان !

وارتمى ، بقربها ، يكفكف عبراتها بيد لينة ، وهو يعلن بشدة : عليّ الطلاق ثلاثاً ان اكن اوجع لبك في ما ازمعت . فان لم تبيحي لي ، من تلقاء نفسك ، المسير الى مقاتلة العتاة ، فانا في الربع حتى المنتهى . وليقل اخوتك في ابن عمهم انه جبان ، فسيصبر على الشتيمة ما دمت قريرة العين !

فاشتد عبوسها ، ولم تطلق نأمة . قال يستوضح ، وهو يتوجع لمرآها في عذاب وضنى : أأعالن ابرهيم الامام ، ابن اخيك ، بنفوري عما عاهدت عليه ؟ ... الكلمة بين شفتيك . فاذا اردت لي البقاء ، فلن انطوي عنه !

فأمضّ أنفتها ان يقال فيها انها عبدة هواها ، وانها ثنت مقداماً أهيب عن الاغارة على المجد يقتنصه ، ويحرز به النباهة . وما خفي عليها مـا يقدر هذا التراجع على ابي مسلم من بلاء ومهانة . فقالت تحثه على المضي لشأنه ، والرسوخ في ما استقرّ عليه : هيهات ان تسمعني اخفت في روعك صوت الحمية ، يا أخا المهجة . انطلق ، للذود عن العرين ، بما خلعت عليك القدرة من صدق وكد . فانت في مصاولة الاعداء قدوة . وان ربعاً ، نشأت فيه ، ليفاخر بكونك منه . فما ارى ابعد منك شأواً ، ولا اعزّ منالا . مع ان اخي عبدالله بن علي من المساعير الشوس . فلا يلوى له جهد ، ولا تهي صلابة . الا انك ترجحه في المبادهة ، وما يعزّ عليك ارتجال محكم التدبير !

فابان ، وما كان يحابي في ما ينشر عليها من قولة : لن اتزحزح عن مكاني ، الا وقد جاهرتني برضاك عن وثوبي الى خراسان . وما اجهل مـا

يرقبني في ذلك الصقع النائي . فالمنايا في كل لفتة . على ان ايماني ، بصحة الرسالة ، يحفزني الى اليقين باني ساسلم من الردى . وقد يكون خطر لابن اخيك ، الامــــام ابرهيم ، ان يكنّيني بابي مسلم تيمّناً بالسلامة من كيد الاهوال الهادرة . وما ان افوز بالارب ، واعود اليك ، حتى نتحدث بما ننزع اليه من رفعة . فلن نبقى في ما نكابد من بلاء ، ونجرع من علقم !

وعاوده النزوع الى نشر نياته. أما يسعى وقومه الفرس لاعتلاء السدة ؟... ولكنه حاذر الجهر بمنتماه ، وقد يسؤها انه ليس عربياً . وكظمت آمنة غلواءها . وقالت متقدة بنبلها الاثيل : بوسع آمنة بنت علي ان تقهر ميولها ، يا ابن عمي ، وان تحبس منازعها على علائك ، وعلى سمو قومها . ويشوقها ان تكون فكرت فيها ، وانت على وشك الصدوف عن الحميمة . فيكفيها هذا البذل المنيف . ألا اركب عزتك وتفوّقك ، واحمل الى بني أمك ثمار النصر اليانعة . وعند ذاك يطمئن روح من تكبر فيك القدرة والحفاظ . فما انت في العباسيين غير جناح مبسوط ، تكلّ عنه سهام الخصوم جميعا . ولدى عودتك ستلقاني في طليعة من يفرشون طريقك بكرائم الريحان !

وسلخت من نفسها كل لهفة . فلتحارب الدهر اللئيم بالترفع والانفة . فليس له ان يذلها مع كل ما يستأسد به عليها من ايلام . فاذا روّعها ، فلن ترتاع ، بل ستجبهه بالاحتقار والامتهان . انها لتسخر بهذا المتكالب على قهر الارواح في حلاوة امانيها . وسخرها به لا بد ان يخفف من عبء الشدة المستحكمة منها ، ويبقيها لمصون إبائها . فلا تتبذل ، ولا تميع

وتعجب ابو مسلم من القوة المستيقظة فيها ، وقد تغلبت على نفسهـــا

الولها . ولمس فيها العزم الغلاب ، وما تقرّ لخاطرها بضعف همتها . وهمس في اذنها ، كأنه يخاطبها في حفل ، ويخشى ان يذهب لقولته اصداء : قوة ضميرك دلتني على عظمة سلطانك على عواطفك. فانت تعيشين بصلابة مشيئتك. ومن كانت مقدودة من اديمك ،فمن حقها الارتقاء الى اكرم المعالي . ما من حائل يمسك بك عن ان تكوني زوجة خليفة .فتقبض يداك على زمام الدنيا، وتنحني بين يديك الهام !

وافلتت شفتاه بعض سره . فتبينت آمنة ، بلا ابطاء ، قصده .ما يرجو الا ان يسود ، ويتمكن من الناصية .فالمقام الاسمى له.وحدقت اليه ابنة علي على استدارة عين ، وكل ما فيها على دهش وإلحاح في الاستطلاع .فاوضح لها ناظراه ما تطمع في استجلائه . ما يجنح ابو مسلم الى سوى المقعد الجليل . فالقمة مؤئله . وخافت منه على اخوتها ، بل خافت منهم عليه . أيتنابذون اذا ظفروا ؟

على ان ابا مسلم لم يبح لها المنفذ الى فسيح التفكير . قال : اني لعائد اليك وبيدي المنى. وسألقاك ، وليس لي ان اضلّ عنك.واذا مشت في عوننا الليالي ، فلن يطول للامويين مدى . نحن قاهروهم في ومضات عجالى . ولن يبقى ، عند ذاك ، لذي منا كدة ان يقف بي عنك، وقد ذللت الجموح، وتسلقت الشامخ . فما لم يدركه ابي ،بنقاوة مولده ،أُحرزه بصولة حسامي. فان بين احنائي لمديد الشوق الى ضرب الاعناق !

فارتجفت . من يتوعد ابن عمها ؟ ... أيهدد العباسيين والامويين معاً ، ام ينذر الامويين وحدهم بالفناء ؟ ... ورهبت وعيده ، وما عرفته الا ممسكاً بعهده . قال ، وقد صبا الى ازاحة ستر من طائفة الاستار القــاتمة

دون طويته : لاجلك صبرت على قافلة من المحن الحواصد . ولاجلك سابدد كل غمامة متلبدة بالافق . فان لم نفز بهوانا ، بقوة سواعدنا ، فلسنا ممن يجدر بهم ان يرتعوا في رحاب البقاء !

وسطت عليه نشوة غرامه . واذا به يضمّ آمنة بين ذراعيه ، وهو يغمغم بفائر الشوق : ثقي بي وبالغد . فلست اكتب سطوراً على الرمل !

ونشر عليها الغسق ذوائبه ، وقد انفرجت عن نجوم صفر ، مراض ، لا يلمّ بها اطمئنان . وجوه عشاق قلقة ، شاحبة ، عدت عليها لذعة الفراق

الجزء الثاني

نصلة باترة بتراء

١

ما زالت الكوفة موضع القسطاس من الدعوة الى التنكيل بالامويين . فالحميمة و « مرو » ترجعان اليها . هذه في المشورة ، وتلك في التدبير . وان يكن ابرهيم الامام ، اسير الحميمة ، صاحب الكلمة القاطعة ، فان ابا سلمة الخلال ، حفصاً بن سليمان ، لليد المديرة . ابرهيم الامام يضع ، وابو سلمة يحقق . وما كان اسرى الحميمة على سوى ايمان به ، وقد ظهر لهم فيه الحرص على انجاز ما يعهدون فيه اليه

وابو سلمة الخلال ، حفص بن سليمان ، صهر بكير بن ماهان . مات بكير ، فورث عنه حفص الزعامة والثروة . فهو بيت مال الدعوة . ينفق عليها من يد لا تضيق بالعطاء . وابو سلمة فارسيّ لا غبار عليه . يتشيّع للبيت العلوي . وسلالة علي بن ابي طالب ، لديه ، احق الجميع بالخلافة ، وقد غصبها اياها الامويون في مؤتمر اذرح ، اثر معركة صفين .

غير ان ابا سلمة الخلال كتم هواه ، مسايرة لمحمد بن علي في اجتناب نشر الاسماء ، مكتفياً بالبث للرضى من آل البيت ، كما اوصى به القطب

العباسي . وفي يقين ابي سلمة ان العلويين في نظيرة اصحاب الجدارة ، وليس لهم منافس في حق ينتهي اليهم بلا جدال. فما ان ينهار الركن الاموي ، حتى يبعث الوجه العلوي حياً ، ويقبض على الازمة . وما للقيادة من يعادله في ركوبها من حفدة الرسول .

ولم يجهل ابو سلمة مطمع العباسيين في المقام الاول في الاسلام ، وقد لاحوا له ينهدون اليه . وحجتهم ان ابا هاشم بن محمد بن الحنفية ، من ولد علي بن ابي طـــالب ، نزل لهم عنه ، يوم فزع اليهم من الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك ، وقد دس له السم خيفة منه

ولكن ابا سلمة ضحك ، في نفسه ، من هؤلاء الطامعين في ما ليس لهم ان يتبوأوا . ولا بأس ان يتغذوا بالاحلام ، وهو غذاء لا يبدد نهمة . فان مسيرهم ، في موكب المناوئين ، ليدعم شيعة علي بن ابي طـــالب في شهوتها ، دون ان يلويها عن هدفها ، وهي وحدها من تحوز الرضى من جميع اهل البيت . وداراهم ابو سلمة ، كما داراهم قبله بكير بن ماهان . حتى اذا ما حان موعد تقسيم المغانم ، نعم كل فريق بحصته من المتعة ، دون ان يتخطى ما ليس له ان يلجّ فيه

وحفص بن سليمان شهد مجالس بكير ، واصغى فيها الى مبتغى العميد الفارسي من مساندة العباسيين . فما يريدهم على سوى التأييد ، ريثما يتداعى العرش الاموي . وبعد ذاك لن يجاوز نصيبهم من الظفر ما يوجح قسمة سائر الاعوان . فالامامة علوية ، والعباسيون يتلون ، في المقام الاول ، ارباب الحق التليد

وعلى هذا الركن ارادها ابو سلمة الخلال . بل هو لا يبرح يلتفت الى

هدف بكير بن ماهان . فلن تكون الامامة غير فارسية خالصة . والفرس فئة من المسلمين . فاذا ما ركبوا الامر ، عاد اليهم مجد كسرى ، وقبضوا على المقاليد في فارس ، وفي كل قطر يدين بدين الرسول

إذن فالغد علوي ، لا عباسي . على ان هذا اللون المأمول لن ينشر قبل دك الصرح الاموي ، وقد شاعت فيه العيوب . وفي الوصول الى هذه العائدة انفق ابو سلمة الخلال بفيض . فجادت يمينه بما رجح ما نديت به راحة بكير ابن ماهان

وفيما يطلق ، في اصيل ذات يوم ، الدعاة الى سليمان بن كثير ، في مرو ، قاعدة خراسان ، ويزودهم المال ، ويحضهم على مناكرة نصر بن سيار ، الوالي الاموي ، اذا به يسمع خادمه يعالنه بقوله : في دار سيدي ضيوف . وهم مقبلون اليه من الحميمة . ولقد ابدوا الرغبة في مرآه . فهل له ان يشخص اليهم ؟

فاطرق حفص . من هم هؤلاء المقبلون اليه من الحميمة ؟ ... واستوضح خادمه بحذر واهتمام : أما تعرفهم ؟

فابان الخادم بارتباك : اذا صدق ظني ، فان لي باحدهم بعض معرفة . فالوجه وجه ابرهيم بن جردزده . اما صحبه ، فلم يسبق لي ان شاهدت لهم خيالا . ربما كانوا من اخوانه الانجاد !

فاكتفى حفص بان يسمع بابن جردزده . وهتف : أهو ابرهيم ؟

فما يحفز اليه الفتى الندب ؟ ... لكأنه ظهر في موعده ، وابو سلمة يشتاق مرآه . فلم يلمحه بعد موت بكير ، مع نزوعه الى محادثته بامر الدعوة ، وما تفرض الحالة على اقطاب الفرس من مداهنة وتغرير . وهرع الى

الفتى الواعد ، وفي اساريره وارف البشاشة ، وخصيب الرجاء . وصاح ، وقد لاح له الشاب الربعة ، المكتنز الهيكل ، الصلب العضل ، الباسم عن اعتزاز : ألا مرحباً بالخدين الامين . والله ، اقبلت في حينك . فاني لا اسأل بالي متى تلوح !

وتعانقا . فالدم الفارسي المضطهد حنّ الى المواصلة . ونطق النظر والخاطر بضرورة التحرر ، والتآزر ، للتغلب على القاهر الطاغي . قال ابو سلمة : هل انت على رضى ، يا ابرهيم ؟

فابتسم ابن جردزده ابتسامـــة الواثق بنفسه . وقال : اذا لم اكن راضياً ، فلسوف انعم بما يرضيني ، يا حفص . فالقوم اباحوا فيهم يدي . اوفدوني الى خراسان على مطلق السلطة . فما لسيد فيها ان يعلوني . واني لمندفع اليها لاضرام النار . فماذا ترى ؟ ... ألا اوفق للمطلب ؛ وهناك بنو أمي ؟

فاستوضح حفص بن سليمان بارتياح : هل ازجوك الى اخواننا في الشمال النائي ؟... ان الفتنة ، هناك ، لعلى وشك الهبوب . وما يشعلها سوانا . فاسرع . وليكن العرب وقودها . اذا ما اضطرمت في خراسان ، فلن يحرز السيطرة غير الفرس . وانا هنا ، في الكوفة . وسانجدك ، وعندي الاموال ، والرجال ، والاعتدة ، والمؤن . فليس لك الا ان تشتهي !

فجنح الى الالمام بالنيات مستفهماً : وما هو تخمينك ، يا حفص ؟... هل نفوز ؟

فاعلن بيقين وطيد : وهل لك ان ترتاب بالفوز ، يا ابرهيم ؟ ... والله ، سنضرب بعضهم ببعض . فليتطاحنوا ولتنزف دماؤهم . ولنا الغلبة ،

وسنمسي حيال شمل شتيت . وقومنا على أُهبة . فما لنا الا ان ننفخ في البوق كي يثور شعب فارس ، ويثأر لقلبه الطعين . أذلونا ، يا ابرهيم ، وما تعوّدنا الذل ، يا ابن أُمي . فلنكن فيهم ثعالب ، حتى اذا ما هانوا ، كنا اولئك الذئاب . وللقوي فيهم ان يثبت في المطاولة . بات فيهم الرأس نخراً . ومن اضاع رأسه ، تداعت رجلاه !

فضحك ابو مسلم وقال : ما اعلنت الا حقاً ، يا حفص . رثّت نهاهم ، وقد افسدتهم نشوة السلطان . فكانوا امضى ساعداً ، واصفى روحاً ، وهم يتوسدون بطون البوادي . على ان هذا الاسترخاء فيهم سيظاهرنا عليهم ، فنطحنهم غباراً لجماح الاعاصير . وما اخفي عنك انهم زوّجوني احدى فتياتهم . وهي ، هنا ، في حرمك . وليست سوى ابنة عمر بن اسماعيل . وانك لملمّ بحكايتي فيهم ، وقد منعوا عني آمنة بنت علي . بيد انها ستكون لي . وسارقى بها الى عليائهم . ابرهيم الامام وعدني بزفافها اليّ . وهي عاهدتني على الحفظ . فما ان نفوز حتى نمسي ارباب الامر فيهم . وليس للاجلاف ان يسودوا من نسجوا ابراد الحضارة ، ونمّقوا زخارفها . واسمي ، يا حفص ، بات عبد الرحمن بن مسلم ، لا ابرهيم بن سليط . وكنيتي اضحت ابا مسلم . وانها لتبشرني بسلامة الغد المرجوّ . هكذا شاء الامام ابرهيم !

فابان ابو سلمة ، وما كان دون ابي مسلم سعياً للتحطيم : هو يشاء اليوم ، ونحن غداً . فدعهم في غفلتهم ، وكن لهم في العلن ذلك النصير . وما تجاهد لسوانا ، ولنا عنان الغد الطالع . فما ان يهونوا ، حتى نعلو . وما نعلو ، حتى نرفع اللواء الفارسي المحجوب . طـال عليه الوأد ، يا رجاء

الفرس الباكين على الامس الهاوي ، والمستبشرين خيراً بالآتي الصبيح !

ونعم ابو مسلم بالضيافة الخضلة العوارف . وايقن حياله ابو سلمة الخلال بانه ازاء سيد بشير . فاذا ما حالفه السعد ، لوى عود العرب ، غير مهادن ، ونشر سيطرة الفرس المتحفزة لخلع النير . ودرج ابو مسلم وصحبه الى خراسان ، والقلوب فيها على جفوة وارتماض . فلا الفرس راضون . ولا العرب متفقون . ولقيه سليمان بن كثير بجفاوة صاح فيها الاعجاب والبشر . قال باغتباط حفيل : جئت في حينك ، يا ابن اخي . ما القوم على سوى اهبة للتقويض . فانفخ فيهم انفاسك ، فتنطلق جموعهم في اثرك ، لا تبالي الموت !

فابتسم الفتى الاهيب ، وقال يغمز من مناعة ابن كثير : ان تكن هذه حالهم ، يا سليمان ، فما بك تقعد عن اشعال الفتنة ؟... دعوناك اليها فتماسكت . واننا لنعود فنكرر التحريض . هلا تجيب ؟

فهال سليمان بن كثير ان يقدم على اضرام اللهبة . فالسن تأبى عليه الاستبسال ، وقد بلغ منها المقدار العاتي . قال يتردد : ولكن انصارنا لا يلبونني كما يلبونك ، يا ابن اخي . فهم موقنون ان العباسيين ما اوفدوك الينا لسوى هذه المهمة . وانت من الشوس الثقات . اما انا ، فماذا يرتجى مني ، اذا ركبت متن الواقعة ؟... ان لك من شبابك وافي الذخر ، فاقتحم كبد الوغى ، وكلنا في عونك . أتراني ما ابرح ذلك المعتصم بضرم الفتوّة ، كي اهزأ بالصليل ؟

فايقن ابو مسلم ان ليس له ان يتكل على داعية خراسان ، سليمان بن كثير . فالسن تحول دون الوثبة . وامتهنه . فالسقوط عليه ما كان في

موضعه . ومال الى الاستئثار بالامر . فهو وحده المعوّل عليه . فغاظت ابن كثير الاستهانة بمكانته . وتململ . فهتف به ابو مسلم : إما انا ، وإما انت ، يا سليمان . فان تكن ذلك الوثاب ، فشمّر لها . والا فدعني اقبض على ناصيتها . هل لك في اشعالها ، ولك الزمام ؟

فادرك ان لا هوادة . لا بد من احد امرين ، إما التنحي ، وإما الانقضاض على المسيطرين . وجرض بريقه . وتجهم . وسكت . ليس له مضاء ابي مسلم الشاب ، المتمرس باساليب القتال . وتجلى له انه هوى عن حظوته في القيادة . فهو المصلّي ، لا المجلّي ، وعزيمته لا تبيح له ان يجري في الطليعة ، وثمة طعان ، وقصف ارواح

وحقد على الشاب المتوقد الحماسة ، المستخف بالانواء ، كأن له من جبهته متراساً لصدّ الغارات . ومال الى التظلم . سيشكو ابا مسلم الى العباسيين . ولكن ماذا يقصّ عليهم من اخباره ليرذلوه ؟ ... ورهب الكبوة . لن يقدم على النفثة الا وقد تهيأت السانحة . وسيرصدها . أما تحين ، كأن يلتوي الامر على ابن جردزده ، او يصبو الى سيادة غلباء ؟

ان اثرته لتدل على كونه من ذوي الشوق الى ركوب القمم . وسيأخذه ابن كثير بهذه النزوة الشرهة . فيطرّز للعباسيين ان معتمدهم يرغب في الوصول ، دونهم ، الى الذروة . وبات الشيخ جاسوساً على الشاب . فالتنافس صال صولته الهادمة . ولكن سليمان لم يكشف عن نياته . فسترها . ولكل سعاية اجل

ومضى ابو مسلم لمأربه . فجال في خراسان يخاطب اخيارها وقادتها ، من الداعين الى الثورة على العهد المبسوط الظلال . وتجلى له ، وهو يعجم

العود ، ان النفوس مختمرة بالميل الى تفجير الموجدة . بيد انها لا تلتف عليه باسرها . قال : ومهما يكن فلنتهيأ لليوم الازهر . فاجمعوا جموعكم واستعدوا . حتى اذا ما لاحت لكم النيران ، في اعالي الهضاب ، علمتم ان الساعة دقت . فتندفع اليّ قواتكم ، ونعلنها حرباً ضروساً ، لا تبقي اكلة لآكل ، ولا قطرة لظمآن . اجتثوا ، وعليّ الدرك . وكل من عاندكم اطووه للرمس . ولا تأخذكم شفاعة . فانتم لبناء دولة . وبناء الدولة لا يستجيز الرفق . فالسياسة الرشيدة ان لا يبقى فم" يعارض ، ولا عين تماكر ، ولا صدر يضمر الحقد. فلا تطلع الشمس على سوى انصار يأتمرون امرنا، ونشء لا يعرف سوانا قادة وسادة . ومن يخرج عن هذا النطاق ، فهو ميت . اشحذوا نصالكم ، وسنّوا انيابكم ، ولا ترموا الا عن سداد !

ومال الى عقد آصرة التفاهم بينهم . فاذا ما ابصر احدهم الآخر عرف انه يستقي واياه من نبعة واحدة ، ويكافحان معاً عن عقيدة موحدة ، لا يرجى لسواها بقاء . وجنح بهم الى ارتداء القميص الاسود ، فهو شعارهم ، والى الاستقرار على أهبة ، بغية الاسراع الى الاصطلاء بلظاها لدن تهبّ . قال : المفاجأة مرتقبة ، فلا تتكاسلوا في تلبية صوت النفير !

وبالقميص الاسود ظهروا. وتبين بعضهم بعضاً . فالحزمة امست واضحة القضبان ، لا يضيع فيها قبيل عن قبيل . على ان التأييد ظل يشكو بعض العرج ، وقد نبا عنه المتعصبون لابن كثير . فعزّ على ابي مسلم ان لا يستولي على الكتلة خالصة ، فتظاهره الجماعة بلا استثناء . وحنق على سليمان . وهدده بزعقته الصادعة : والله ، ستندم ، ايها الشيخ الهمّ . أتميل بهم عني ، وانا من يناضل عنك ؟... لكأنك تهدم ماشيدت ، بل تهدم نفسك. سيعلم بنو العباس

ما تستحل لغدرك من روغان . واذا لم يردعوك عن ضلتك ، فانا رادعك عنها. وعندي لكل سعي حساب !

وودّ لو يرجع الى الحميمة . ولكن في عودته اليها مجازفة تطيحه ، وتطيح العباسيين . فان عيون نصر بن سيّار ليتأثرونه ، وقد داخلتهم في امره ريبة . و كتب الى ابرهيم الامام يقول : موعدنا موسم الحج . هناك نلتقي . واني لمشتاق الى البث ، والاطمئنان الى الاهل والاخوان . فلتجمع بيننا عرصات البيت الحرام !

والسنة الهجرية في المئة والسابعة والعشرين. ولابي مسلم سنة في خراسان ، يمهد فيها ويعبّد . وفسح التلاقي في حثيث الابتهاج . فالقبلات تساقطت من شفاه كابسة ، لا ترتوي . قال عبد الرحمن : والله ، ما حسبتني اشكو بهذا القدر لوعة التنائي ، يا اخا ودادي . فكأن الحميمة مثوى روحي ، وليس لي عنها سلوان . قضيت في خراسان عاماً طويلاً ، الا اني لم اشعر بانس . ولولا فروض الدعوة ، لقلت اني اضعت أيامي . فكيف انتم جميعاً ، من السيد حتى المسود ، ولي فيكم اهلي وخلاني ؟

فاجاب ابرهيم الامام ، وهو يبدي المرح : كلنا بخير ، يا عبد الرحمن ، بخير ، والله ، يا ابن عمي . ما اشتهيت سوى بقائك بقربي . الا انها المصلحة ، وفيها لنا رد عائدة . وما ان ندحر الشانئين ، حتى يجتمع الشمل . فكيف حالك في خراسان ؟... قيل لي انك خضدت روح المستوحشين من الفورة؟... فهل لويت شكائم الحران ؟

فهتف : لم يكن لي ان اتظلم ، لولا سليمان بن كثير . ذلك الشيخ الهمّ يسوءه ان اقود الفتنة الى مهيعها ، فيكابر في الاذعان . ولقد حرصت فيه

على وصيتك . فما خاشنته ، ولا ازدريته . الا ان النوم عنه جرّني الى مكابدة العناء . ففي طغمته من العصاة من يكادون يفسدون عليّ مجهودي !

فراعه ما يسمع . أيشاكس سليمان ؟ ... وابدى الدهش مستوضحاً : أيصادمك ابن كثير ؟ ... ولكني ما عرفته غير مطواع ، فما نزع به عن المواءمة ؟ ... أأقلقت فيه عزة الانفة ، ام ملت الى كسفه ، فاخزيته ؟... ما يلويه عنك غير الازراء بشأنه ، فهل تناسيته ؟...ألا رفقاً بمهجته .فهو لنا خير ظهير . وليس لنا ان نمتهنه بعد كل ما بذل لاجلنا من نفسه . فلا تقهر فيه الشموخ ، والا اصابنا منه ما يحملنا على المتعبة . فهل نأت عنك الحكمة ، يا عبدالرحمن ، وفيك معينها ؟

فابان ابو مسلم بصادق اليقين : ولكنه يضايقني . وتعبت في ارشاده الى مناهج التقويض ، فنكص عنها . وما لهذا الرعديد ان ينصرنا في صبوة . اما اذا شئت ان اداريه ، للحؤول دون غدره بنا ، فسافعل . ولست بمن يجنح الى قلقلة ما وطدنا . ولو كان ممن يركن اليهم ، في المغالبة ، لابقيت على سؤدده . غير انه يخشى على عنقه من البت . وهي خشية تقصيه عن النفع . فليكن للسياسة . وعليّ البطش بالمنافقين !

فقال ابرهيم الامام ، ولم يكن على جهل بضعف سليمان : صنه من الخذلان ، وتدبر الامر بنفاذ بصيرتك . فكل ما ننهد اليه ألا نرضّ في من اخلصوا لنا عزة الكرامة . وأنى لذاك المهيض الجناح ان يعادلك في الطفرة ، وانت المستطيل القوادم ، المنيع الخوافي ؟ ... ولكن المشيب يستميت في الجلال . فاعطه مما يستطيب !

وضحكا معاً . فالامر يدعو الى الملاطفة . وليس لمن يلقى المغالبة ان

يستنيم الى خلوص النية. وطافا بالبيت، وحولهما العشرات من النقباء والدعاة، وكلهم يستوضح الموعد. فقال ابرهيم الامام: ارى الساعة ازفت، يا بني أمي. مروان بن محمد الجعدي خلع ابرهيم بن الوليد عن مسند الخلافة، بعد موت يزيد بن الوليد، وكتب لنفسه الامر. وليس له ان يوطد العائب، ويشفي المعتل". فعلينا بتدمير المتصدع، لبناء الركين.. فانشروا في اخوانكم ان الحين قد حان، وان للسيف ان يجلو عن الغمد!

ومروان بن محمد تولى الحل والربط في الدولة الاموية. فهو فيها الخليفة الرابع عشر. زحف من ارمينيا، وكان واليها، الى دمشق المستضعفة، واحتلها. واسقط عنها راكب السدة. وامتلك الزمام بيد تتشامخ على الكلال. غير ان الناقمين لم يجدوا فيه ذلك القادر على درء الويل. فاستطالوا في الكيد والمناوأة. واجمعوا على ان يقيموا من خراسان، النائية عن قاعدة الخلافة، والموكولة الى الوالي الهرم، الكابي الزند، نصر بن سيار، وكر الثورة. فتلتهب فيها النار، ولا تلقى من يطفئها، وانصار آل البيت فيها اوفر عدداً، واوفى تنظيماً. قال ابرهيم الامام: الاشارة لا تزال هي اياها. ما ان تلوح لكم اللهبة في القمم حتى تهبّوا. ذاك اوانها. وعليك ان تذكيها بنفسك، يا ابا مسلم. فارقب الايماءة!

والجو المعتكر في دمشق اهاب بهم الى التعجيل في وقد اللظى. فلن يقعوا على سانحة اوزن، وكل ركن في الدولة الاموية ينهار. وقفل ابو مسلم الى «مرو»، في خراسان، دون ان يتحامى استطلاع امر آمنة. فابتسم ابرهيم الامام، واعلن بلهجة حلوة، تميل بسامعها الى الاطمئنان: ما تفتأ أُختي ترقب ساعة الظفر، يا عبد الرحمن. فالعجلة واهبة المتعة. فاعتمد

عليها ، وفي قبضتك المنى !

وأغراه بالمضاء في الجهد . فليسرع في حشد الصفوف . فابان ابو مسلم بعزيمة لا فتور لها : ولكني اعيش لمثل تلك الساعة !

وفي خراسان أسعر الهمم . وجامل سليمان بن كثير ، ولكن على دغل. فلترقد حفائظه ريثما تحين الادانة . وما لاح موسم الحج ، من سنة ١٢٨ ، الا وابو مسلم في الحجيج . على انه لم يكد يبلغ « قومس » ، حتى وفد عليه رسول الامام ، يعالنه بقولة ابرهيم بن محمد القاطعة : بعثت اليك براية السحاب ، فارجع من حيث يلقاك رسولي . واني لاهلك حولاً ، ليس لك بعده ان تتمالك عن المواثبة !

فاذعن . وعقد اللواء على رمح طوله اربع عشرة ذراعاً . ونشر راية الظل على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً . والبندان اسودان . والسواد شعار العباسيين . وهتف باخوانه : دبّ دبيبها الى الاوصال ، فانتشوا بحميّاها !

وثوى بقرية « سفيذنج » ، على مقربة من « مرو » ، احدى العاصمتين . ولمدينة « نيسابور » ، العاصمة الاخرى ، مقامها في الميزان . وازدحمت ببابه الوفود من كل وجه. فخطب فيهم يقول : سيدنا ابرهيم الامام ، ادام الله عزه ، يهيب بكم الى تأييدي في مناصبة الشانئين العداء . فليس لكلمة اذيع فيكم ان تنطوي عن مداها . فاطيعوني ، وانا هاديكم . ولمن يتخاذل عني عقاب النار ، ولعنة السماء . وهاتان هما الرايتان الحافزتان الى النصرة ، وقد نشرهما ابرهيم الامام ، يدعوكم بهما الى البذل في التوطيد للرضى من آل البيت . واني لمن المجاهدين في ادراك الشهوة . فاسمعوا واطيعوا ، اذا شئتم

ان تنفضوا من اطواقكم مطاول الظلم . والا فلنظل عبداناً !

فصعب عليهم المضي في شوط الذل ، وقد تعبوا في انتهاجه . وكبوا في حفره ومهاويه . فتمزقت اجسادهم . وحفيت اقــدامهم . وكوى سوط العدوان ظهورهم . وما تزال آثاره بادية فيهم بقحة وصلافة . وهتفوا ينادون بنصرة هذا الداعي الى عتقهم من ربقة العار : سمعنا وأجبنـا ،يا ابا مسلم .كلنا في عون الحق . وما كان الظالمون على رشد وطول امد . ان عمرهم لقصير !

قال : اذن فاستووا للآزفة نهدم فيها الافّاكين.وما ارى عسفهم يمدّ لهم في السدة . لننحر فيهم الجور الصفيق !

فاضمحلت في حناجرهم كل نبسة تشفّ عن منافرة،دعوة ابرهيم الامام الى التعاضد قوّضت العناد والاستكبار . وفطن اعوان نصر بن سيار الى ما تحشد قرية «سفيذنج» من قوى المناكدة .فابلغوا نصراً ما يبطن لهابو مسلم من خصومة ، وما يحرّض عليه من بغضاء . فصاح نصر : وهل تجرأ على الصهيل عبد الرحمن ؟... ألا ما يبتغي ، وما قاده الينا ؟ ... ومن اي وجار اندلع ؟

فجهلوا ما يروون له عنه . ما عرفوا ابا مسلم ، قبل ان تستشري فيه هذه الصولة ، المنذرة بالخطر . قالوا : كل ما نمي الينا عنه انه سيد من سادة المناوئين . اما اين نشأ ، ومن نفخ فيه هذه العنجهية المستفحلة ، فلسنا به على نزر من إلمام . انصاره يقولون انه نفحة علوية تتقاصر عنها الحلوم ، كأنهم يدنون به من مراتب الانبياء !

فكتب نصر الى ابي مسلم يميل به الى الحذر من الفائرة . قال : « بلغني

عنك ما يسوؤني ان اتبين فيك اعتكار اديمه، وشر دخلته. فانصف نفسك من نفسك، وادفع عن قومك تبعة السوء. فلا نأخذ بجريرتك رهطاً ربما كانوا من الابرار!»

فاجاب ابومسلم ببيان المتقي: «انا والله، من إجلال الامير، في السامق الاثير. أقيم له من نفسي الاكبار والطاعة، ولا اخرج عن حكمه، وقد اعتصمت بحلمه. ويؤلمني ان يرى سيدي، في ما احفظ له من ولاء، نفاراً وخصاماً، وليس للمكايدة ان تقع منا في ضمير. هذه الجموع، المقبلة الينا، لا تبتغي ما يرجح التبريك لعائد من بيت الله. ومتى كنا، من قبل ومن بعد، الا اولئك المقرّين بالسيادة للرابعين باريكة العلياء، وبالخضوع لمن يمثلهم فينا. ادام الله مولاي عزيزاً، مغموراً بالرخاء!»

وهي لهجة المتماسك عن المناكرة. فالامور ما تنفك تحتجب وراء ستار. على ان هذا اللّين الملامس، السمح الالفاظ، لم يلبث ان اخشوشن، وقد جمع تحت رايتيه، راية الظل وراية السحاب، الجيش اللجب، وبات يرى نفسه خليقاً بالمصاولة. فانقطع عن لقب الامير يطلقه على نصر بن سيار، واضحى يكتب اليه نداً الى ندّ، كأنه عديله. فيفتتح كتابه اليه: «من ابي مسلم الخراساني، الى نصر بن سيار». وهذه المعادلة في المرتبة غاظت نصراً. أيحاكيه في القدرة هذا المدعي، على حين غرة، العز والجاه؟

ودفع اليه رسالة ملتهبة البيان، تبالغ في الانذار. فاستخف بها ابو مسلم. وردّ عليها متوعداً: «اما بعد، فان الله تعالت اسماؤه، وتعالى ذكره، عيّر اقواماً في القرآن. فقال: «واقسموا بالله، جهد أيمانهم، لئن جاءهم نذير ليكوننّ اهدى من احدى الامم. فلما جاءهم نذير ما زادهم الا

نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيء . ولا يحيق المكر السيء الا باهله .فهل ينظرون الى سنّة الاولين ؟..فلن تجد لسنّة الله تبديلا، ولن تجد لسنّة الله تحويلًا ! »

وانه لجواب القدرة المستعلية . فالبركان يهدد بالانفجار . وهال نصراً ان تبلغ الفظاظة بابي مسلم مبلغ البطر . فامسك عن الجواب. وما يطفىء هذه الشقشقة في الفحل الهائج غير السوط . واذا التوى دونهـــا السوط ، فلها النصل . وآخر الدواء المشراط . وصرخ ابن سيار بجنوده ، وقد تجلى له ،في طغمة الكارهين ،العصيان الجيّاش : ما اعددتكم لسوى هذه الساعة ، فصولوا . ابو مسلم تجبر ،وبات علينا ان نقهر فيه التيه .فواثبوه في وكره، وقوّضوا به معاصمه .وجرّوه الي ّ ذليلًا .ملات ،في هذا الوقح،نفخة الخيلاء!

ونظم جيشاً من الفرسان عهد في قيادته الى مولاه يزيـد . وهو من رجال حاشيته ، وممن شملهم بوارف الثقة . قال له فيما يرشق به ابا مسلم : عليك بدكّ معقله. فالصبر عليه اضحى جبناً . امحقـه ، وليس لذي ناب ، ولا لذي منسر ، ان يهتديا الى اثر منه ومن جماعته . لا تبق منهم حتى نثيراً من عظام !

واطلقه الى النزال . تمادى ابو مسلم في المكابرة والكبر. وليس للعرام ان يحلب في الشذاذ . والا استعصى على الكيّ . واقتحم لواء الفرسان حمى فتى الثورة . غير ان ابن جردزده وقف على ما يسدد اليه نصر بن سيار من نبال . فاستوى للمناجزة .وخطب في اخوانه يقول ، والفرحة ترجج فيه الخشية : اندلع لسان الفتنة ، يا اصحابي ، وانه لا كول . فمن يلتهب به فهو المغلوب . وعلينا ان نحاذر العثرة ، والا تبدد الرجاء، وضاع المبذول.

عرفتكم ذوي حمية ،فاهدموا نفق الظلم ،وقد صوّح فيكم المهج والاضلاع !

وهتف باحد اعوانه الثقات ، مالك بن الهيثم الخزاعي : الا اقترب مني ، يامالك .ما افوض امر هؤلاء المتسكالبين،على استعباد الاحرار ،الى سواك . فاكفني غرورهم . واظهر لهم من نحن ، جماعة العصاة . ان نبلة ، تصوّبها الى اكبادهم ، لمقدور عليها الاجتياح . والا ففي الالتواء العفاء . ما النصر في سوى ركاب الظافر بالجولة الاولى . فلا تكن فيها مقهوراً ، وفي ايدينا لواء الفوز التمّ !

ودفعه الى الاصطلاء باللهبة المحتفزة للالتهام ، وهو يصيح به وبقواته : انتم وجه المعركة الفاصلة . فان لم تخوضوا المستهلّ بجباه صلاب ، وبسواعد غلاّبة ، فجعتمونا بالنهاية ، وما نبتغي الا الذروة . فاثبتوا في المبتــدإ ، واملكوا العنان ، فتسلس لنا الخاتمة ، ونعتلي السنام . انتم تقاتلون الظلم . وليس يخفى عليكم ما في مناوأة الظلم من شوق الى الاستبسال. انكم لتذودون عن أنفتكم ، فاستميتوا في الغارة ، والله في عونكم . يوم الاخذ بالثأر لاح !

وتمثل آمنة بنت علي في سوقهم الى النازلة . وقال في نفسه ، وقد تجلى له طيف من يهوى يستحثه على النجح : ما انا بالمتهاون ، وحقك يا ابنة علي. فان يوم الحساب لمنفرج الافق . وسيلقى الانكاد ، من هول القصاص ، ما يذكرون به ان الدهر قلّب . يوم لهم ، ويوم عليهم . وكما انطفأنا ، لا بد لهم من الانطفاء . على اننا بعثنا احياء . اما هم فلا قيام لهم ، وسيغورون في بطن الارض ، واسيافنا تتخطف هاماتهم ، كما تتخطف الريح دقيق القشّ ، وتذروه في كل معبر . ولا يبقى سوانا ، يا آمنة . انا الخليفة ، وانت زوجتي ، وعلى من دوننا السلام . وهل يدين الزمن لسوى هذا الباتر الفتّاك ؟

وآمن بالنصر . فهو في جند طائع يسعى للانتقام ، وفي قلبه مرارة ، وفي روحه اضطغان . وخلت افئـــدة الجيوش الاموية من سوى العبث والانتفاخ . وما للعبث والانتفاخ ان يصاولا الحقد والكره . وللحقد والكره غليان صخّاب يجمح الى حاصد الاشتفاء . وتمايل ابومسلم ثملاً ، وقد حمل اليه الرسل انباء القتال . رجاله قهروا ، تحت امرة الخزاعي ، قوات ابن سيار . فكاد يجنّ لفرط الطرب . وهتف بجملة البشرى مرنّح العطفين : ألا ماذا ، ثم ماذا ؟... أعيدوا ، ثم اعيدوا ، لا أبا لابيكم . بي شوق الى التناهي في السماع !

فاعادوا عليه رواية النبإ السارّ . قالوا وهم على اغتباط بما يلمسون فيه من مرح : صدمنا الامويون ونحن ننزل قرية « آلين » . وصاح بنا قائدنا مالك ابن الهيثم : « ألا هبوا ، ايها النافرون من عبء الحيف ، وقسوة القيد . لن تحطموا النير الكفور ، المضروب على اعناقكم ، الا وانتم تنسفون هؤلاء العتاة ، كأن لم تنتفض فيهم نبضة جنان ! » . وكانت لنا صولة هززنا بها الهضاب . فانهارت بهم تمحقهم ، كأنهم جذوع نخرة لا تثبت على ضربة فأس . ووثبنا عليهم ، وقد التوى فيهم هاديهم . جاولته نصالنا فسقط بين ايدينا جريحاً ، وانكفأ جيشه خائباً . وليس لجسم ان يحيا بلا رأس !

فصرخ ابو مسلم : وهل امسكتم يزيد ، قائد الجيش الاموي ؟

وهاجه البشر الفيّاح . قالوا : امسكناه ، وجئنا نستطلع رأيك فيه . أنقتله ، ام نبقيه حياً ؟

فهتف برحيب السماح : بل ابقوا عليه . ليس لاعدائنا ان يقولوا فينا إننا غلاظ الاكباد . وتوفروا على تضميد جراحه . واحسنوا اليه . فلا بأس

ان نكون قدوة في اكرام العدو المهيض الجناح !

فراعهم عفوه . انه ليمعن في النيل من الامويين وهو يبدي سعة الصدر . فكأنه يميل الى الاعلان ان المناهضين لبني امية ذوو حلم ورفق ، على حين ما يبدي راكبو السدة غير القهر والعسف

والتفت الى الغد الطالع وخاطبه بقوله : انت لي . عرش كسرى ستتوطد قوائمه ، ويجلس عليه حفيد بزرجمهر . وبقرب هذا الحفيد سليلة العباسيين ، آمنة بنت علي ، احدى كرائم عترة النبي . فيلتئم نبل كسرى ومجد النبي العربي . ويمتد الرواق على جاه تليد ، وسمو اريض . وينحني الشرق لاعز سموق ، واكرم جلال !

وتاه في امانيه الخضال ، الفساح . واحس بنفسه يربع بمقعد الخلافة الوثير ، وعلى رأسه التاج ، وبيمينه الصولجان

فارس استعادت بأسها . واعرباه !

٣

آمنة بنت علي ، في الخيمة ، تهتف للاروع النجد ، الخفّاق اللواء في حراسان . سقطت اليها انباء الفوز المشرق الطلعة ، فطارت بفرحتهـــا على مديد اجنحة ، وقد ضاقت بها المضارب والقفار . وهفت الى ابن اخيها ، ابرهيم الامام ، تصيح بملء صوتها ، وهي تموج حبوراً : هلا استم مدى خلاعة ابن عمنا ، يا ابرهيم ؟... والله ، ما في انصارنا من يماثله قدرة وحزماً . لكأنه وحيد دهره في الشدة والاقدام !

وفي مقر ابرهيم الامام اخوها عبد الله بن علي ، وولدا اخيهـــا ، ابو العباس ، وابو جعفر . فاعلن عبدالله وابو العباس : صدقت ، يا آمنـة . انه لغرّة في جباهنا . والله ، ما يقوى على هذه المعجزة سواه !

واقرّا بانها معجزة . وما استطاع ابو جعفر الا ان يؤيدهما ، وفي ما حقق ابو مسلم خارقة صراح . غير ان هذا الناقم على الفتى الثبيت ، الباكر النضج ، ودّ لو لم يدرك خصمه هذا الشأو السحيق ، فيبيت قبلة كل عين ، وانشودة كل فم . تترنم باسمه البوادي ، ويهلع حيال جبروته سادة العرب ، كأنه جارف الوباء

وبلع ابو جعفر ريقه امتعاضاً . اذا رضي عن هزيمة الجيش الاموي ، فلقد اوجعه ان يبلغ ابو مسلم باذخ السمو . وشعر بنفسه مكرهاً على الابتسام اعجاباً ، فابتسم . الا ان عمته آمنة استشفّت من ابتسامته التكلف ، فرمته

بنظرة جافية ، عضوض ، اطرق حيالها كالمقبوض عليه في شائن الجرم . قال اخوه ابرهيم الامام ، يطري في ابي مسلم صلابته ، وحنكتـه : ما كنت عن اقتداره غافلاً ، يا عماه . في هذا اللدن العمر ، من رهافة الحصافة ، ما يقيمه في الرعيل الاول من المتفوقين . ولقد ايقنت بالغلبة وانا اعهد اليه في قيادة الطليعة . فوطد بمأثرته الغراء حسن ظني به . اننا لموفقون باهتدائنا الى مثله ، وما كان لنا ان نرجو هذه الطفرة العجلى الى العلياء !

قالت آمنة تبالغ في نصرة ابي مسلم : وهل وثقتم الآن بكونه منا ؟... ان في عروقه من لهب الدم العباسي ما لا يخمد له أوار . فهو من هؤلاء الصيد المصاليت ، وقد نجلتهم ابوة لها في المحامد قدم لا تتزحزح عن فخار !

فوافقوها على القولة . ما نشرت غير الواقع الجلي . ابو مسلم من ذراري الاماثل السراة . قال ابرهيم الامام : ولكنه منا ، يا آمنة . فما خلعنا عليه هذه الثقة الوارفة لولا انه على حسب لباب ، وعلى اخلاص دفاق . أما هدم في اعدائنا طلاقة الوثبة ؟... والامويون ، وقد كبوا في مستهل الشوط ، لن ينهضوا من عثرتهم . فالصدمة الناخعة هدت حيلهم . لنبشر باحراز الاماني . وما اراها تحبو الينا على سوى طلاقة . وليس لاحدنا ان يشكو فيها اجحافاً . ابو مسلم كتب لنـا بفطنته ، وبطولته ، ينوع العلالات !

وحدق الى آمنة ، كأنه يعالنها بان لها ان ترقب هطول الغيث . فلن تخونها الشهوة . فاختلجت ذات القسامة حنيناً . وطاب لها ان يتلو الفوز فوز آخر ، تهوي فيه بالامويين المرتبة ، ليعتليها العباسيون . فينخلع ابو مسلم عن زوجته ، ابنة عمر بن اسماعيل ، ويعقد له على من يصبو اليها .

وتذكرت ما اهاب بها اليه من طول أناة . فلتصبر ، والمنى الابكار ستنفتق لها عن حلو المجـــاني . وفي هذه المنى نشوتان ، الهوى والسؤدد . فيرتع الحبيبان في اندى صبابة ، ويقتعدان قمة الحظوة . وليس لمن اذل الخصوم ، ان يجري ، في دنياه ، على خمول وهوان .

وقال عبدالله بن علي يمدح حكمة الفتى الاغر : ولكن ابا مسلم حاز ، في هذه الغلبة الواعدة ، مزدوج النصر . فتهر الامويين في جيشهم ، ونال من صلفهم في الحث على مداواة قائدهم يزيد . فما قتله ، بل بالغ في اكرامه ، وفي الاعتناء بتضميد جراحه . حتى اذا ما شفي ، خيّره بين امرين . إما البقاء ، وإما الرحيل . فالتمس يزيد العودة الى قومه . فلم يبخل عليه ابو مسلم بالرجاوة . غير انه قدر عليه ، في الانصراف ، ألا يرجع الى مقاتلة الظافرين ، وان يخبر بما لقي من طيب مداراة . وأُقسم بالله ، لو حللت محل ابن عمنا ، لقضيت ، بلا تؤدة ، على ذلك المنتوف الريش . وليس لاموي ، في عرفي ، ان ينعم بالحياة ، بعد كل جور وطغيان . ولما سئل ابو مسلم عن مغزى ما توغل فيه من اريحية ، قال : « شئت ان أُنيم ظنون اهل الورع والصلاح فينا . فاذا ارتابوا بنياتنا ، شهد شاهد من اهله باننا ما ننبو عن الاسلام ! » . وانها لسياسة الرشد الاكمل . فلا ينتهجها غير داهية عليم . فكأن الكميّ الهمام يحشد في نهيته ذكاء الاوائل والاواخر ، وقد صاننا ، بجميل مقاله ، ممن يرمينا بالكفر والالحاد !

فاعلن ابو العباس : والله ، ما في صدر ابي مسلم ونهيته غير ذخر من هدى ونظر . فتأدب بآدابنا ، وحضر مجالسنا ، ورضع سياستنا ، سالكاً مدارجنا . وكرهه للامويين سليقة فيه . فاذا اجاد ، فما يعزّ عليه

الابداع ، وقد استوفى نصيبه من التدريب . ولادراكه الطروح قوة جبارة في التنظيم ، والتسديد . فما تتحطم له نصلة . ولا تعتريه كبوة . وله من احتراسه ، وهمته ، وبصيرته ، اصدق عون على بلوغ الاهداف ، بلا تفريط ، ولا عثار !

فقال ابرهيم الامام : لا مراء في كونه تطبّع بطباعنا ، وقد غنم كل سمين بنزوله ربعنا . على ان له ، من وضاءة شمائله ، ومن وهج مخايل اللبابة فيه ، ما يعلو به الى السماك . فما ان اشعل في الاعالي النار ، حتى هفا اليه مئة الف مقاتل ، على وافي الطاعة ، صرع بهم زمرة البطل . فمرحى ، مرحى!

وهتفت له آمنة هتاف الاعجاب ، وابو جعفر يتململ . ما تزال على هوى ابن سليط ، مع بعده عنها ، ومنعها من الالتفات اليه . وآمن ابو جعفر بقوة الحب ، وليس لها زوال . فكل سعي لترويضها يذهب كالدخان . تنهدم الحوائل ، وسلطان الحب يبقى . قال يحاول ان يدفع عنه ارتباكه وامتعاضه : ما عرفنا ابا مسلم غير سيد من سادة الوغى . فهو بارع الحيلة ، متطاير الجرأة . لا ينقض على عدوه الا وقد تمكن منه . وان لنا من باذخ قدرته ما يسنّي لنا الى الارب . فلنرقب بامان ما يبذل من جهد ، ولن تجري الرياح بسوى ما يؤاتينا !

فتعجبت آمنة ، عمته ، من هذا الثناء المستطاب يخلعه على من لا يحتمل ظله . ولكنه الواقع ، والواقع لا نفي له . وساءلت نفسها : هل يؤيد ، في صميمه ، ما ينضح به مقوله ؟

وارتابت بهذا التأييد . ان ابا جعفر ليتكاره على الاقرار بالراهن . قالت تحرجه : ما احسب فينا من يملك هذه الضلاعة . فليبشر العباسيون ،

وفيهم هذا الذدب !

والتفتت الى ابن اخيها ، كأنها تسوق اليه الحديث . فغصّ ابو جعفر بريقه . غير انه عاهد نفسه على ان لا يحقق لعمته امنية . اهون عليها ان تبصر الشمس في الليل ، من ان تظفر بالنغل . وصبر على الوخزة . لا بد ان تحين ساعة الاخذ بالثأر . وسأل اخاه ابرهيم الامام : وماذا ترى علينا ان نفعل ، يا ابرهيم ، والنصر يلتمع تحت بنودنا ؟ ... أنظل على خرس ؟

فاجاب ابرهيم : هذا مما لا بد منه ، اذا شئنا ان نحرص على اعناقنا . ونحن بحاجة الى هذه الاعناق ليوم مأمون الانبثاق . فلنحذر من المجازفة ، حيث نبوء بالهزيمة . فالفتنة تتقد في خراسان ، ونحن بعيدون عنها . ولبني امية ان يبحثوا هناك عن مضرميها ، لا في هذه الاعشاش الساكنة ، الغائرة في وحشتها !

واذاع ما تقدر عليه الحكمة . اذا اندلعت النار في خراسان ، القطر النائي ، فان يديه لبريئتان من شعلتها . والامويون بحثوا عن مضرم اللهبة . واساؤوا الظن بالعباسيين ، واقاموا الارصاد . وهتف مروان بن محمد ساخطاً ، وقد نعت اليه انباء خراسان جيشه : هل تداعت عزائم نصر حيال ذلك المغمور ؟ ... ألا من هو ابو مسلم ؟

وهاله الفشل ، وفيه غناء اعدائه . وما كان ليقع على من يرشده الى امر ابي مسلم ، وقد جهل الامويون كونه ذلك الناشئ في الحميمة ، تحت افياء العباسيين . وتعالت صرخة نصر تستنجد بالخليفة : بلينا بشرّ المفسدين . فانقذونا من الخطر الناعق ، والا تفتحت الاشداق لالتهامنا . نحن في اشأم ورطة . فاذا لم تبادروا الى انتشالنا من مخالبها ، ذهبت بلحومنا . فالعجلة ،

العجلة ، يا امير المؤمنين !

وما صان طرسه عن الشعر يرصعه به . قال يخاطب الخليفة الاموي :

اري خلل الرماد وميض نارٍ ويوشك ان يكون لها ضرامُ
فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث'' وهام
فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها كلام
فقلت من التعجب : ليت شعري أأيقاظ'' أُمية ، ام نيام ؟

على ان الخليفة الاموي ، الرابع عشر ، ضاع في ما يقرّ من موقف . فكتب الى نصر يقول : ولكن الامر امرك فيهم ، وانت ترى هناك ما لا تجول فيه عيني . فاعتمد على لباقتك ، ولبابتك . وانزل بهم من ضروب الكيّ ما تبرىء به الاعلّاء !

فحار نصر بن سيار في بيان الخليفة المبهم . فهو باضطرار الى الرجال ، لا الى الالفاظ الغوامض ، وما تروي أُواماً ، ولا تشفع في جوعان . واستوضح ضميره : أيصدق في مروان ما يروى عنه ، وقد لقبه عارفوه بالحمار ؟

وشاع ان ابا مسلم طبعه بهذا الطابع الغضيض احتقاراً له . وانتشرت الكلمة الضخمة في زراياتها تملأ كل فم . حتى ان الحمّارة ، وهم يسوقون حميرهم الى معسكر ابن مسلم ، نادوا بها دوابهم : هرّ ، مروان !

وما ابطأ نصر بن سيار ، مع متمادي شيخوخته ، عن التدبير الحازم يهدّ به من غلواء الفتنة . فطوى كتابه الى يزيد بن عمر بن هبيرة ، والي العراق ، على استصراخ ملهوف ، ما خلا من ابيات شوارد من صادق الشعر الوصّاف ، وكأنه صورة من صنع رسام حاذق :

أبلغ يزيد ، وخير القول اصدقُه ، وقد تبينت أن لا خير في الكذب
ان خراسان ارضٌ قد رأيت بها بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين ، الا انها كبرت لمّا يطرن ، وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ، ولم يحتل لهن بها ، يلهبن نيران حرب أيما لهبِ

غير ان الجميع سدوا آذانهم عن نصر ، كأنهم في شغل عنه ، والمعمعة في مستهل الفورة ، والنفوس على لظى . وسمع ابو مسلم بهذا الشعر المستغيث ، فقهقه له استخفافاً . وانشد باعتداد التياه :

ومن رعى غنماً في ارض مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيها الاسدُ

فشعر نصر بالذعة تفتك بجنانه ، وقد ملأ اذنيه وعيد ابي مسلم ، واشرُه ، وليس من يعاونه عليه لصده واخراسه . وهاله ما يضطرب فيه من ضيق . ينادي ولا من يجيب . ويقاتل فيرتد خاسراً . وانى له ان يدفع عنه سورة العداء ، النافخ في صدور المناوئين ، وهو وحده في الميدان ، لا من يغيث ، ولا من يلتفت الى حرج الحالة ، فيدرك ما يرقب الحاكمين من هلكة ؟

الا ان هذا الهرم ، المجتاز الثمانين بوسيع خطوة ، ابى ان ينام على ظلعه . فانتفضت فيه همة المدافع عن حرزه ، وعن احدوثته . ورنا الى الخوارج يستعديهم على النار المتأججة ، والى اليمانيين يطفىء بهم اللهبة . والخوارج واليمانيون على وفرة في خراسان . فما ان نودوا حتى اقبلوا . فهم في خدمة الوالي الاصفر الناب . وهتفوا يعلنون الموالاة : لبيك ، يا نصر !

وتنبه ابو مسلم للمعونة الزاحفة ، الى الوالي الاموي ، تشدّ ساعده . واقلقه ان يلبي الخوارج واليمانيون دعوة نصر ، فتهالك على الحؤول دون

النجدة . لن يقوى عضد ابن سيار بهاتين الشفرتين الرهيفتين ، وفيهما امين الغوث . وكتب الخراساني الى الفئتين يتلق فيهما شهوة المساندة . قال : أيقاتلكم ، ويهدر دمكم ، ولا تنفر منه ارواحكم ؟... أما تذكرون ما قوّض من مناعتكم ، وشتت من شملكم ؟ ... ما جئت خراسان الا وانتم في طليعة من استظهر بهم على الخاضد الحاصد . فما بكم تشيحون عمن اقبل يرفع رايتكم ، ويقهر عدوكم ؟ ... أسلامة طوية حيال من يبطن لكم الكيد ؟

فنكأ فيهم الجراح الناغرة ، وما كانت لتندمل ، وقد بالغ الامويون في تعميقها . واستيقظت الحزازات ، فوقف الخوارج واليمانيون من امرهم على حيرة ، لا يتقدمون ، ولا يتأخرون . يجاملهم نصر فيجاملونه ، ولكن على احتراس . قال يستدرجهم الى الرسوخ في الموالاة : ان يكن بدر منا ، ما حدانا على المناوأة ، ففي السرائر مودات لا يلمّ بها دغل . تماسكوا عن إحراجي ، ريثما اهدم بهؤلاء المصطبغين بالسواد اوكارهم . وبيني وبينكم عهد الله !

غير ان الحظ المنطلق ، مرخيّ العنان ، في نصرة ابي مسلم ، والمتنائي عن ابن سيار ، كتب للقائد الشاب الفلاح في المأرب ، دون الوالي الاموي . فسقط الكرماني ، زعيم اليمانيين ، قتيلاً . واضطربت الاذهان في امر اغتياله ، وقد ذهب كل فريق مذهباً في التخمين . وهاج في خراسان اليمانيون ، واستووا للاخذ بالثأر . فاوفد اليهم ابو مسلم يقول : ما قتله غير نصر . اجتذبكم اليه كي يجزّ نواصيكم ، ويقهر فيكم هزة الخيلاء !

فآمنوا بما اذاع فيهم ، وتقهقروا عن نصر بن سيار . واندفعوا الى ابي

مسلم يبايعونه على المسير بجانبه، عارضين عليه رماحهم، وسيوفهم، ودروعهم. فرحب بهم القائد الداهية، وقال: ولكنكم هنا تستظلون في ربع حليف، يجود عليكم بالصبوة، ويصون الحرمة. هلا فصلتم الخوارج عن هذا الخبيث، الاسود الروح؟... انه لابيض الرأس، غير انه كالح الضمير!

وما كان يحتاج الى سوى هذه الخطوة لينفخ، في خراسان، في بوق الثورة. فاذا ما اقصى، عن الوالي الاموي، الخوارج واليمانيين، فلا يبقى، في قبضة نصر بن سيار، غير سيف مفلول كليل. قال خلف الكرماني يفاخر باقتداره على اقتطاع الخوارج من حوزة ابن سيار: ولكنهم لي مطاويع. فما ادعوهم الى رغبة، الا وثبوا الى انجازها، لا يتقاعسون. وستراهم ينفضون منهم الانكد، البغيض، وما يشترونه بدرهم زَيْف!

وما كان أجوفَ الدعوى. فما ان سمع زعيم الخوارج، شيبان الحروري، صوت خليفة الكرماني يصيح به ان دع نصراً في مصاعبه، ولا تنجده على ذوي القمصان السود، حتى تراخت عزمات الخوارج في التعاضد، وانكروا نصراً وشيعته، وجاهروه بالعداء. فاضحى المخذول بين ثلاثة يناوشونه، ويزجونه الى الهلكة. المسودّة، وهم اتباع ابي مسلم، والخوارج، واليمانيون

وجنح ابو مسلم، على عجل، الى اغتنام السانحة. فالقوة الغالبة تظاهره. وقد يتفق لها ما ينفر بها عنه. وليس من يسكن الى الغد. فاهاب باليمانيين الى اقتحام «مرو»، احدى العاصمتين في خراسان. وما ان فاجأتها جموعهم، وتصدى لهم نصر بن سيار للنزوع بهم عنها، حتى كان ابو

مسلم ينساب اليها من ناحيــة لينة الوطاء ، غفل نصر عن تحصينها

وزحف ذوو القمصان السود الى دار الامارة ، فاحتلوها . ورفعوا عليها رايتهم . وجلا عنها نصر ، عامل بني أُمية ، مكدوداً منبوذاً . بدد جموعه ابو مسلم القائد الغطريف ، البصير

واضحت ولاية خراسان تحت سيطرة المسوّدة شبه المطلقة . ابو مسلم سيدها وحاميها . وتعاظمت مهابته في المهج . انه للقرم المرموق . و كتب الى ابرهيم الامام ، في الحميمة ، يذيع في مسمعه البشرى : « دخلناها ، وجباهنا على وضاءة و كبر . فاذوينا فيها الجذع الاموي . وابحناها لطغمتنا تستأسد فيها . فالعلم الاسود يخفق تيّاهاً على اسوارها . ونشرتُ منها الدعوة الى الرضى من آل البيت . وهي دعوة يشيع تأييدها في هذه الاصقاع جمعاء ، وما تلقى غير الظهير . وانها لتتجه اليكم في اهدافهـا ومطاويها . فانتم علم هذه الامة الخفّاق ، وامير المؤمنين فيها . فزوّدوني رغباتـكم ، وانا لها النصير الامين ! »

والطريق الى الحميمة محفوف بالمهالك . فازدحم فيه الارصاد ، وكلهم يحصي على العباسيين انفاسهم . فرماهم مروان بن محمد بالظنة ، وما لقي سواهم يقدم على اضرام الفتنة . هم ، في مذهبه ، الساعون للنفخ في لظاها . وسقط رسول ابي مسلم ، الى ابرهيم الامام ، بين ايدي اولئك الارصاد . فوقعوا على الكتاب المنبيء بالغلبة ، المستلهم المشورة . وما ظفروا به ، حتى كانوا يثبون على عجل ، الى مثوى الخليفة ، في حران ، يعلنون باستبشار : قبضنا على اعناقهم ، يا امير المؤمنين ، ولنصالنا ان تغور في نحورهم !

وقرأ مروان بن محمد ، وفار . صدقت شكوكه . ليس لهذه الجحيم

يؤججها غير هؤلاء العتاة . وصرخ بعيونه : ألا احملو الي ّ النكس . أأخلع عليه الامان ، فيمكر بي ؟ ... والله ، اني لحاطم جمجمته . فما استبقي منها غير خليط من مندلق الدم ، ومسحوق العظم . جنى على الحق من صان مهج اولئك الاجلاف !

وشدد المخاشنة . ليس للنصلة ان تقيم على ظمأ من نجيع المقلقين . وهمّ بان يقذف الحميمة بابالسة خطفة . ليستلّوا ابرهيم الامام من وكره ، كما يستلّ الملدوغ صلاً من الجحر . سيطفىء في من يحرجونه ، في دولته ، الارواح . وما لعين تجاوله ، بنفار ، غير مخرز رهيف يذهب بضيائها

بيد انه تمهل . قد ينكر ابرهيم الامام انه من ابي مسلم على مواءمة . فلا بد من خدعة للقبض عليه بجرم الدس ، وتعكير الصفاء . واستنبأ : اين رسول ابي مسلم الى مقتعد الحميمة ؟

ورهب الرسول الوقوف في حضرة الخليفة . غير ان ابتسامة مروان خففت من عنف الوهلة . قال امير المؤمنين : لو كنت تعلم مــا يبطن الكتاب ، لارحناك من عبء هذا الراسي بين كتفيك . اما وانت على جهل ، بما تقبل فيه من كفر ، فاننا لنهبك لحلمنا . على ان تمضي في مهمتك . فتحمل الرسالة الى ابرهيم الامام ، وتعود منه بالجواب . كأن لم يعترضك رجالنا ، ولم تمثل بين ايدينا !

فارتعش الرسول هولاً . أيغدر بابي مسلم ، وبابرهيم الامام معاً ؟ ... وتمثل ظمأ ابي مسلم الى الدم . وما كان لهامة متشامخة ، مكابرة ، في خراسان ، ان ترسخ في دعائمها . وحزر الخليفة مروان مايترجح فيه الرسول من رضى وممانعة . فاستفهم : ألا كم اعطاك ابو مسلم في مقابل سعيك ؟ ...

هل لك ان توضح ، فتأخذ منا عشرة اضعافه ؟

فابان وهو يتلعثم فرقاً : الف درهم ، يا مولاي !

فاعلن الخليفة : لك منا عشرة آلاف ، لا مطلَ فيها . اذهب وعد بالجواب ، وانت الغانم . والا فابكِ ايامك ، وما انت منها على وارف حظوة !

فوعد الرسول بالطاعة . وارتد الى الحميمة برسالة غازي خراسان . وطالعها ابرهيم الامام بشوق وفرحة . وكتب جوابها : « انا لهذه الامة على ما تبتغي مني . وما الخلافة غير تراث هاشمي تسلسل الينا من الرسول الامين . وعترة الرسول اولى به وأحقّ . هذه يميني امدّها اليكم . انهضوا لتقويض البطل ، وامضوا حثيثاً في اضرام نارها ، فتجدوني في طليعة المجاهدين للتنكيل بالغاصبين الطغاة ! » .

وتهادت الرسالة الى الخليفة الاموي ، لا الى ابي مسلم الخراساني . وجلجل مروان ، وقد انتهت اليه ، وألمّ بمنطوقها : اقبضوا على الكنود . وضح الخفاء . في الحميمة اجحار للافاعي ، فصبّوا عليها النار . بسطنا عليها الامن والرفاه . وغاب عنا ان لا عهد لذوات السموم . اخلعوا كبد الخسيس ، وجرّوه اليّ من ناصيته . اصبحت احنّ الى امتصاص الدماء !

وارتعدت الحميمة لدن ابصرت زبانية مروان بن محمد يجوسونها . هل اتصل بالخليفة الاموي نبأ يتكشف عن هاتكة ؟ ... ما في الاسارير غير نقمة غليظة . اذن درى مروان . وتمثل ابرهيم الامام الموت يصاوله . ان الشدة لمطم الربع التظاهر بالسكينة ، على حين يثيرها ذات لظى ، لا تصدّ عن إنس ، ولا عن جنّ . الا ان القطب العباسي تكلف البسمة .

ليس له ان يبدو رعديداً . قال بيش" لضيوفه : ألا مرحباً بالوافدين علينا. والله ، انتم ارباب المكان. فتصدروا نادينا !

فما هان فيهم العبوس . وافاضوا بما استودعوا الصدور : الخليفة في حران يناديك ، يا ابرهيم .فقم اليه غير معاند. نحن هنا فئة وافرة العديد ! فتحامى العناد . وما للحكمة الثاوية بنهيته ان تسوقه الى المغالبة . قال وما يزال بادي البشاشة ، مع كل ما انتابه من خشية وارتماض : ولكن الخليفة ابن عمي . وامره مطاع . واني للالبي . ألا انزلوا ربعنا ريثما اتهيأ للرحلة . مرحباً بالكماة الكرام !

ولان ، لا يتحرج من الرحابة . فمن أصالة الرأي ان يتجلد ويبدي السكينة ، مع غليان جأشه ، واضطراب خاطره . فما يناديه اليه الخليفة الاموي ليؤانسه ، بل ليخاشنه . ويسقط له بالكلام . وسيتهمه باشعال فتنة خراسان . وقد يفتك به غير راحم .فان يكن قد سلم الرهط العباسي ، حتى اليوم ، من نواتىء الاسنة تجتاح كبده ، فالساعة الناهكة حان موعدها !

وادرك ابرهيم الامام ما يراد به . فالسيف مصلت . والنكبة عاوية . وخلا باخويه ابي العباس وابي جعفر . وتداول واياهما الرأي . قال : مروان بن محمد يدعوني اليه . ولست على اطمئنان الى هذه الدعوة . فاني لاحس بها ان رأسي يتدحرج عند قدمي" . غير ان الحنكة تقدر علي الاجابة . واني لمجيب . فاذا استطاع فرد فداء قوم ، فلا عليه ان يسقط كريماً ، واهباً نفسه لسلامة الجماعة . وربما لن يبلغ بنا الامر هذا المدى من التشاؤم . الا ان الاحتراس محمود . واني لمبايعكما بعدي . فانتما المأمان

الصالحان . ما ان يأتيكما نعي ، حتى تفزعا الى الكوفة ، وفيها اخواننا واتباعنا . وهم يحمونكما من الغائلة ، ويناضلون عنكما . ويعتلي ابو العباس الامامة ، ثم يليه فيها ابو جعفر . فلا تتناحرا في الباطل ، والامر لكما كما قسمت عليكما . واجتهدا في ان لا يتعد المنصة سواكما . لا علوي ، ولا أُموي ، بل عباسيّ لباب . فالاريكة لنا . فصونا بسواعدكما حقاً ازهر . ولا تخلعاها على من يرذلكما ، ويذيقكما مرارة الحرمان ، وضيم الامتهان . وامري بين يدي خالقي . عليه توكلت ، واليه اثوب !

وجنح بهما الى الثبات في حلكة الغواشي . فالظفر يميل بمبتغيه الى الشدة والمغامرة . الا ان التأني لا عيب فيه . قال : وسيكفيكما ابو مسلم شر المناكدين ، بما أُوتي من تفوّق وضلاعة . فهو يقبض الآن على الاعنة . فلا تبتعدا عن نهجه ، وهو بنا ضنين ، وعلى رفعتنا حريص !

وما زاد على هذه الهداية . الامامة فيهما بعده . وابو مسلم المتكأ الامين . ووجمت الحميمة ، وهي تبصر بقوات مروان الجعدي تدفع ابرهيم الامام الى قرار الخليفة ، في حرّان . ومروان نزح عن دمشق ، واختار حرّان مقاماً . واليها دفع جنده القطب العباسي . فالتوى ابرهيم يقبل الارض في حضرة رب الدولة . فلقيه مروان بوجه عابس ، يتطاير وعيداً ، كأنه جعبة من سهام فواتك ، تتحفز للاندلاع وشق المرائر . وسلّم ابرهيم ، فزعق مروان : أما تنفك الخيانة تعشش في صميمكم ، يا عصبة السوء ؟ ... ما لي اراكم لا تلقون سلاحاً ، ولا ترومون لنا فلاحاً ؟ ... فهل اقلقنا فيكم مديد الشأو ، فابيتم الا ان تحرجونا في كل صقع ؟ ... ألا ماذا ايها المدعي الزهد ، وفي شفتيك فحيح الافعوان ؟

فتمالك ابرهيم ، وما الآزفة بمعوان على نفث الغلّ . وقال وهو يتبسم ابتسامة الالفة : عفو امير المؤمنين . ان سوء الظن ليذهب به بعيداً . ما كنا لنحجب نوراً يضيء ، ولا لنهدم صرحاً علا . نحن من هذه الدولة اخوان وفاء ، ودعاة حفاظ . فما نبتغي لها الا سموقاً ، وبسط جناح . والله ، ان يوماً انور تستعلي به ، لهو يومنا . وما كان لذي كيد ان يطاولها ، ونحن احياء !

فدمدم عليه مروان ، وهو يشتعل سخطاً : أمصانعة ورئاء ، ايها الناطق بالخنى ؟ ... ألا اكرم نفسك ، وقد امتهنتها في الافاضة بالافك الفضّاح !

فعاد ابرهيم الى البيان بقوة الطاهر الدخلة : اني لانزّه نفسي عن الافك ، يا امير المؤمنين . وما كان لامثالنا ان يتلفظوا بالمين والهراء !

فنبر مروان الجعدي : تباً لك ولامثالك ، ايها المتشدق بما ليس فيه . ألا من انتم غير رهط من الانكاس ؟ ... تحاربوننا بالمكر والمين ، وقد استويتم على خداع . تحرقون الزرع والضرع ، ثم تتبرأون من العملة ، كأنكم من صفوة الاخيار . ويغلي في دمكم الشغب والكيد ، وتميلون الى التظاهر بالتقى والورع . ألا قاتل الله المواربة ، كم تأصل في مهجكم ، كأن ارواحكم لها اعشاش . أما كاتبت ابا مسلم في الحض على المضي في الاقلاق ؟ ... اما عالنته برضاك عنه ، ونفحته بتأييدك ؟ ... قل ، قل . هل من جرأة تصول في غليظ جنانك ، فتجمح بك الى ابداء النفي ؟

فما كان من ابرهيم الامام الا ان نفى . فقذفه مروان بكتابه الى ابي مسلم ، صارخاً به صرخة وقادة ، ميادة : ألا اخرس ، وقد ملأت دنياك

اكاذيب . والله ، لولا حرمة آل البيت ،لطويتك للتراب . ألا اقرأ ما انت كاتبه الى ذاك اللاعب في خراسان بدمه . واخجل ، ان تكن تحرص من الخجل على بقيا !

فارتاع ابرهيم. الا انه ظل ماضياً في ما اعلن. الرسالةمنحولة . فما ليمينه ان تخط النكر . فصاح به مروان : أما كفاك ما استعذت به من نفاق؟... أتكتبها وتنكرها ؟ ... ألا اجعل لها اباً يتبناها ، فلا تطلقها نغلة . سادلك على كونك صاحبها ، مع لجاجك في التبروء منها . اين الرسول ؟

وشخص ببصره الى حاجبه . والرسول بالباب . فما دعاه مروان حتى بدا . وابصره ابرهيم الامام فهلع . وشحب لونه . وودّ لو حجبته احشاء الارض . فلم يرقب هذه اللطمة الكاسحة . واطرق لا يرفع رأسه عن الحضيض . مروان ادهى منه ، وقد امسك بالرسول ، وانتزع منه كتاب الحميمة في البلقاء ، الى « مرو » في خراسان

وهدر مروان ، وملء راحتيه النصر : والله ،ضاع فيكم حلمنا . ان ساعة نفحناكم فيها بسماحنا ، لساعة مشؤومة ، وما تفتأون تنسجون لنا الاحابيل . ففي ارواحكم جراثيم من فساد ، لا تبددها اريحية الكرام . الا ان ما لم تنجع فيه الموادة ، فستفلح فيه الغائلة . فافتح لها صدرك ، ان تكن ممن يصبون الى مذاقها !

فما خرج القطب العباسي عن اطراقه . فالمكيدة سافرة ، ناطقة . وشعر ابرهيم الامام بحرج موقفه . سقط في اليد الاموية الشادخة ، ولن تنقذه شفاعة . فالموت يطل عليه شامتاً ، قاضماً ، ولا امل يرشح برحمة . ورضي عن تدبيره الامور ، وتوزيعه الاقساط . بوسعه ان يغمض عينيه مطمئناً ،

ولن تسوء من بعده الحـــالة ، اذا والت الغلبة ابا مسلم ، لا تزيغ عن الصراط

ومع كل ما يمور فيه من خشية ، وما يرقب من نكال ، نظر الى الغد نظرة مؤمنة بالفوز . ليس في الامويين لابي مسلم نديد . وشاهد بعين خياله الدولة العباسية ترفرف بجناحيها لتبسطها ، على مداهما ، في فلك رحيب الامد ، صاحي الجبين . سيموت . ولكن بعد اداء رسالته كاملة . فليس لضميره ان يحاسبه في وهن

وهتف مروان برجاله : سوقوه الى الظلمات . في بطن الارض لامثاله مراقد ينعم فيها بالرغد . ابت عليه مطامعه الدنيئة الاعتصام بالقناعة ، فليشبع بعد جوع . وليملأ جوفه بعفن السراديب . ما للمناكيد ان تجري عليهم الرأفة ، وفي السخاء بها عليهم ايذاء ارواحهم . اخطأنا في ندانا . على اننا اتعظنا . وليس لمن يتعظ ان ينتكس . كبلوه بالقيود !

وبات ساكن الحميمة يتوسد ، وهي حيّ ، رمسه . فلا يلوح له نور . ولا يؤانسه جليس . ويجفوه حتى حارسه . فلا يكرم فيه سمو المقام ، ولا نبل الارومة ، بل ينافره ويزدريه . ويحمل اليه طعامه وشرابه في آنية تبرأ منها النظافة . وانه لطعام خشن ، جافّ ، يشيح عنه حتى من تمسك برمقه كسرة

واحتمل ابرهيم الامام . ألا يحثّ اليه الخطو ابو مسلم ، فينتشله من وهدة الفناء ؟ ... وابو مسلم ينتظر جواب القطب العباسي ، نزيل الحميمة . واستبطأه ، فقلق . هل سقط الرسول في فخاخ الامويين؟

وهو ما لاح له . وجاءته الانباء تسند حدسه . فاعتزم ضرب ابن سيار ضربة

قاطعة ، تقصيه عن خراسان جميعاً . فلا يبقى له فيها ظل . بل اجمع على امساكه وسجنه . وعلى مروان ، سيده ، ان يفكّ قيده ، او يفتديه . ونادى قحطبة بن شبيب ، احد قادته الصلاب المكسر ، الصحاح الرأي ، واغراه بنصر . قال: لا تتراجع عنه الا وقد اعتقلته . اسير باسير . فاذا افرج مروان عن ابراهيم الامام ، فسحنا لابن سيار في طلاقة المهزة . والا قطعنا رأسه ورمينا بجمجمته مولاه الحسير !

وقحطبة لم يتقاعد عن الملتمس . فدفع جنده في اقتفاء خطو نصر ، يطارده بلا كلالة ، من صقع الى صقع . وافلت من ابن الخامسة والثمانين زمام المقاومة ، فتداعى وكده ، وقد ناء بالجهد . ومرض في مدينة الري ، فمات فيها . وزحف قحطبة الى الري يغزوها ، فاستولى بها على ولاية خراسان جمعاء

ونزل الخبر الكاوي مسامع الامويين ، فمادوا . وزمجر مروان : اقتلوا الاسير . دم بدم ، وعنق بعنق !

واهتز الخليفة الجعدي ، وقد تراءى له ، وخراسان نضيع عليه ، ان الخلافة بلآلئها ومواقعها نازحة عنه . وعجل في الخلاص من الخصم الالد يبتره ، كما بتر يزيد بن معاوية مناوئه الحسين بن علي . فمات ابرهيم الامام ينهش سويداءه السم ، وقد دسّه له في طعامه رجال مروان . وما كان موته غير نذير بتندلع العاصفة . فماجت الدولة العربية ، على بكرة ابيها ، تحت وطأة النعي الصاهر ، المصور ، وكأنها اصيبت بحبة قلبها .

غلا الامويون في اجتثاث حفدة النبي الامجاد !

٣

لقيت النقمة الفارسية سبيلها الى الاشتفاء. فسالت نجيعاً مدراراً على حد شفرة ابي مسلم. فما دام العرب يوسعون له الى انفسهم، فليـــدكّ بهم معاصمهم، ولينتقم منهم لبني قومه الفرس. فالافناء هو المنقذ. ولقد طال ازراء العرب بالفرس، واستعبادهم اياهم. فانقضت مئة سنـــة ونيف على تدويخ عاهل العجم «يزدجرد الثالث الساساني»، في معركة القادسية، وافتتاح سعد بن ابي وقاص معاقل الاكاسرة، ونشر اللواء العربي على صروح فارس وربّاها. انها لثقيلة الاعباء مئة سنة ونيف من هول وذل!

وابرهيم الامام اباح لابي مسلم عنق كل عربي، وهو يزجيه الى خراسان، وقد قال له: «ايما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه، فاقتله!». اذن فلتمتد يمينه الى الاعناق يضربها. هذه هي النهزة. والتنكب عنها حمقٌ وضلال

وتطايرت بنصلة حسامه هامات من اعتقلهم من انصار بني امية، ومن اعوان نصر بن سيار. فشهدت «مرو» مذابح تروي ارضها بسيول حمر، كأن السماء تمطر دماً، وتملأ مقابرها جثثاً، وكأن الاحياء وفــدوا على الارماس زرافات زرافات، يختارون فيها المقام

وما اكتفى السيف الشره الى المحـــق، الطامع في الخضاب القاني، كالحسناء في الطلاء. فبحث عن رؤوس أُخر يفريها. والتفت حامله الى الخوارج واليمانيين يزحزحهم عن مستقر البقاء. فلم يبقَ سواهم في خراسان يسدّ

عليه منافذ الضياء . لقد ظاهروه على الوالي الاموي ، بيد انهم لا يزالون في طريقه عقبة . وليس له ان يسود ويتسلطن واحداً ، فرداً ، الا وهو يحسمهم جميعاً . ومن له يعاهده على اندفاعهم ابداً في طاعته ، لا ينقلبون عليه ؟

واستشار فيهم نفسه . وأحسّ بهم كوابيس تثقل اضلاعه ، وتحول فيه دون النفَس الطلق . فاعتزم النسف . ولم تضق به الحيلة في استدراجهم الى المنافرة . فاذا وافقوه على الدعوة الى الرضى من آل البيت ، وما يزال يصبو الى تكبيلهم بميثاق ، كالوثاق ، فليخضعوا له خضوعاً اعمى ، لا سبيل فيه الى لفتة لا يأذن فيها طاغية خراسان ، والا فليجرعوا المنايا من كأس دهاق !

ولقد كتب ، والامر ينتهي اليه ، صيغة بيعة تبيح له الارواح والاموال ، ونهد الى اخذها من الناس . وما يقف بالخوارج واليمانيين عن اقرارها ، وهي شرعته ؟... أليسوا من الناس ؟ ... واهاب بزعيم الخوارج ، شيبان الحروري ، الى المواءمة . فلا يسأله رزقاً ولا طعاماً حتى يبدأه بهما ، ولا يهيّج عدواً ان لم يأمره ابو مسلم بتهييجه . فرفض الحروري ، وهو التيّاه . لن يشدّ عنقه برسن خانق ، فيمسي مطية امير آل محمد ، كما شاء ابو مسلم ان يلقب نفسه . قال لرسل السيد الجامح الشهوات : والله ، ما طأطأ الخوارج رأساً لذي جبروت . فان يكن صاحبكم ، عبد الرحمن ، يسعى لاستعبادنا ، ونحن الاحرار ، فليعلم ان في صدر كل منا روحاً يتنكر للضيم ، ويتحامى الرقّ . ليدعنا منه على مسالمة ، ولنكن له حلفاء ، لا أرقاء . والا فلا يحمد مغبة عنجهيته ، وما تزال في بني عمه بواتر لكل مطماع !

وابو مسلم ما اشتهى غير الخصام . فالسيف الظمآن في شوق حثيث الى

الارتواء . وهتف برسله ، وهم يحملون اليه جواب الحروري : ما اسرعه الى انالتنا الملتمس . وأبيكم ، لكأنه يجري بنا عفواً الى المرام !

وحفز رجاله الى القتال . ووثب على الحروري في « سرخس » . وكانت مجزرة التوى فيها الخوارج ، وقد شفوا نهمة ابي مسلم بما نزف من ذوب اكبادهم ، وبما وهبوا من انفسهم للوحش والطير . على ان الخوارج ، اذا سنّوا له على جثثهم الى ما يبتغي من رحيب العزة ، فما يفتأ اليمانيون بالمرصاد . وزعيمهم لا يصطلى له بنار . وائتمر ابو مسلم رأيه . ما يذلل له نواصيهم غير الخدعـــة . فليلاطفهم ، وليليـّن لهم الوساد ، حتى تبيت اعناقهم مضرباً للنصال

ودعاهم اليه يبالغ في اكرامهم . فاستقروا بناديه قادة واشياخاً ينعمون بمجاملته ، وبسخائه . واذا الشفار تتخطفهم ، كأنهم جذوع يابسة ، عدت عليها الفأس . وجلا بهم عن خراسان كل ظل لمقاوم وقد دان الجميع لامير آل محمد ، ولكن بعدما رطب الدم العربي ، بفيض ، تلك التربة النائية ، المناوئة ، فباتت منه في شبه طوفان

ولم يكن بد من المعركة الفاصلة حيال هذا الاستنسار القاطع النـاب . فاجتازت قوات ابي مسلم بلاد فارس تبتغي العراق ، وما زال قحطبة بن شبيب يقودها . وقطع بها نهر الفرات يريد مقاتلة يزيد بن هبيرة ، عامل مروان على العراق . والتقى الجيشان في صدام دامغ ، قتل فيه قحطبة ، الا انه قبل ان يلفظ روحه ، عهد الى ابنه الحسن في القيادة ، ولم يكن دونه مراساً وسعيـاً ، فقهر ابن هبيرة علـى سمين ضلعـه ، ووافر حنكته وزحف الثائرون الى الكوفة ، فاحتلوها . وهتف هاتف بالناس : هذه

نهاية الامويين !

وبحثوا عمن يلي الامر ، وفارس برمتها اضحت في قبضة المسوّدة ، ومعظم العراق اضحى يتفيأ ظلال الرايات السود . على ان أُسرى الحميمة اطلوا ، وفي نظيرتهم ابو العباس ، وابو جعفر ، واعمامهما عبد الله ، وصالح ، وداود . وماخلت القافلة من النساء ، وفي طليعتهن آمنة ، على صيحة : الله اكبر !

واشرقت في ابنة علي نضارتها . وتناهت حماستها . وابصرها ابن اخيها ابو جعفر في مندلع فورتها ، وسمعها تنشر الاهازيج ، فابتعد منها ، لئلا يضطر فيها الى ما لا يسعفه عليه الاوان . غير انه ما تماسك عن الهمس في اذن اخيه ابي العباس مقاله المتأجج حنقاً : عليك بآمنة عمتي . فاختر لها من يتزوجها ، واكفنا شر من تصبو اليه ، ولا نستطيع فيه مغاضبة !

فسكت ابو العباس . ليس المقام بمساعد على الاحراج . هم يفرّون من الحميمة لاتقاء الغضبة الاموية . ويقبلون الى الكوفة ، لا سادة أعزّة ، بل لاجئين منكوبين . وانهم لفي اضطرار الى خطب مودة الجميع . ومودة ابي مسلم في المقدمة . فالسعي لتنفير غازي خراسان منهم جناية عليهم ، يتبرأ منها العرف والدهاء . ليظل ابو مسلم على شنف بآمنة حتى المنتهى ، وفي نزوعه اليها ما يوثقه بقومها ، فتخلص نيته ، ويتوطد حفاظه . وانى يقع العباسيون على ندّ له في الامانة والقدرة ؟ . . . ألا فليتورع ابو جعفر من نشر حفائظه ، وسهمه يردّ اليه !

ونزل الرهط العباسي دار ابي سلمة الخلال ، حفص بن سليمان ، سيد الدعوة في الكوفة للرضى من آل البيت . غير ان ابا سلمة ، وهو المتشيع للعلويين ، المؤمن بكونهم ارباب الحق الاوفى بالسدة ، لم يلتفت الى ضيوفه ،

فينادي بهم ارباب النهي والامر ، بل شخص بباصرتيه الى ذراري علي بن ابي طالب . فاين هم ، والموعد موعدهم ، والامل الابلج يضيء ، ويبدد عنهم الدياجير ، وما فتئوا منذ تسعين عاماً يغورون في مهاويها ؟

وابو سلمة ، رفع على دار الامارة ، في الكوفة ، الاعلام السود ، لدن جلا عنها يزيد بن هبيرة ، لمقاتلة قحطبة بن شبيب ، قائد قوات الثورة . فالامر امره في العراق . وما تمالك عن مكاتبة ثلاثة من ائمة الشيعة في ضرورة الاسراع للقبض على الاعنة . فليقبلوا الى الكوفة في اغتنام السانحة المجلوة

وشدد على رسوله الاحتراس ، وهو يتولى التبليغ . فليفحص في البدء عن مثوى جعفر الصادق بن محمد الباقر . فاذا لقيه ، ولمس فيه التأييد ، فليكتف به ، وليمزق الكتابين الآخرين . والا ليشخص الى عبدالله المحض حفيد الحسن . فاذا عز عليه مرآه ، او صدمه فيه نفار ، فلينطلق الى عمر الاشرف بن زين العابدين

وابو سلمة الخلال ، حفص بن سليمان ، شيعي قح . فلا عجب اذا التفت الى سادته ، وعرض عليهم الامامة . وهم ، في راسخ ايمانه ، اولى الناس بالخلافة المسلولة ظلماً من علي . بيد ان حفدة ابن ابي طالب أشاحوا عن الدعوة ، وعندهم من اخبار الكوفة كل مستهجن . فعرفوها تتملقهم ، ثم تنام عنهم ، كأنها ما تتحمس لهم لسوى احراقهم . فغررت بعلي ، ثم بالحسن ، فبالحسين . جاهرتهم بالنصرة ، وما ان هفوا اليها حتى تناستهم ، كأنها منهم على صفيق الجهل . وليس للحفدة ثقة بخافرة الذمام

وهذا الجنوح ، عن اجابة النداء ، كوى ابا سلمة في حبة قلبه . أيمهد ، ويوطد للعلويين ، ويناديهم ، ولا مجيب ؟... ولم يكن قد اذاع في الكوفة

نبأ الرهط العباسي . ففسح لهم في مغناه ، ولكن تحت ستار الكتمان . فليس للقوم ان يعلموا ان ثمة جماعة من آل البيت تستقر بالكوفة ، والا اختار منها رجال الثورة ذاك « الرضى » . وابو سلمة لا يريده من سوى حفدة علي . اما والحفدة لا يركنون اليه ، في ما تراءى له فيه انه يذود عن حقهم به ، فتداعى جهده ، وهاض جناحاه . قتله من جاد لاجلهم بماله ونفسه

وشعر بكيدته نفر من قادة الثورة . فهرعوا الى داره ، وقد جاءهم ان ابا العباس نزلها . وفي صدر هذه الدار سلموا على ابي العباس بالخلافة : السلام على امير المؤمنين !

هذه مشيئة ابي مسلم ، وليس لهم ان يتحولوا عنها . فالامامة لابي العباس . ووعت اذن حفص بن سليمان ما افاض به القادة ، فسقط في يده . وبدا له السيف يتوعد ، فهفا الى ضيوفه يستوضح : اين ابن الحارثية ؟

وبايع ابا العباس بالخلافة ، وأنفه راغم . فسدد اليه ابو العباس نظرة ماضية ، خالعة ، بسطت عليه كفنه . ورماه ابو جعفر بقولة ارتجفت بها ركبتاه : أأبو سلمة ، ام مسلمة ، انت ، يا وزير آل محمد ؟

فلكزه ابو العباس . ليس للضغائن ، في الموقف العسير ، مجال الى الاندلاع . وهمس في اذن اخيه الفائر الغيظ : دعه . فما الاوان بمسعف على الحساب !

فالميزان لم ينصب للدينونة ، والحالة تدعو الى المسايرة ، وطول الاناة . فلا سبيل الى البطش الا وقد رسخت القدم . وقوي الساعد . واستتب الامر . وسكت ابو جعفر ، وفي وجهه اصفرار من نقمة . وابتسم ابو العباس ، يهش لابي سلمة ويبش ، ويقول مؤانساً : مرحباً بالوزير الامين .

ما رأينا فيك غير الحفاظ . فالوفاء من شيمك ، يا حفص . ونحن من ضيفانك . وربك اوصى بالجار وبالضيف !

على ان الخوف استشرى في ابي سلمة . خيّبه العلويون ، واساء به الظن بنو العباس . ارادها لقوم لا يثقون بنصرته . وضنّ بها على عصبة قبضت على الناصية ،وحسبها ان تظفر بتأييد ابي مسلم كي تقرّ في ما فرش لها من مهاد

وهتفت الكوفة لابي العباس تظاهره على ركوب المسند المغبوط . فهو خليفة المسلمين الاوحد. ورفع له الجند الصوارم والحراب اكباراً . واقاموا على الجانبين ، في طريقه الى دار الامارة ، يحيونه ويحرسونه . انه لفي يوم الجمعة من ثالث عشر ربيع الاول ١٣٢ للهجرة . ولا بد له في اليوم الانور من دخول المسجد، والصلاة في الناس. فعلى الخليفة ان ينشر على المؤمنين عهده . غير ان ابا العباس في ضنك يقلق فيه الجهد . ومع عيائه صعد الى المنبر ، يستقر منه بالذروة . وتوسد ادناه داود بن علي . قال ابو العباس في من ارهفوا السمع للاصغاء الى بيانه الطريف : الحمد الله الذي اصطفى الاسلام لنفسه ، وكرّمه ، وشرّفه ، وعظّمه ، واختاره لنا ، فايده بنا ، وجعلنا اهله وكهفه وحصنه ، والقوّام به . فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا احقّ بها . وخصنا برحم رسول الله وقرابته . وانشأنا من آبائنا ، وانبتنا من شجرته . واستقينا من نبعته . زعمت الشامية الضلول ان سوانا أحق بالرئاسة ، والسياسة ، والخلافة . فشاهت وجوههم . وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم ، وانقذهم بعد هلكتهم ، واصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وتمم النقيصة ، وجمع الفرقة ، وختم بنا كما افتتح بنا .

واني لارجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير . وما توفيقنا الا بالله!

وقعد به الوهن عن المضي في الاعلان . وقام عمه داود بن علي يضفر من بلاغته اسماطاً وعقوداً . فقال : ايها الناس ، الآن اقشعت حنادس الدنيا . وانكشف غطاؤها . واشرقت ارضها وسماؤها . وطلعت الشمس من مطلعها. وبزغ القمر من مبزغه . واخذ القوس باريها . إنا ، والله ، ما خرجنا في طلب هذا الامر لنكثر لجيناً ، ولا عقياناً ،ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصراً ، وانما اخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرهنا من اموركم !

وتمادى داود ، خطيب العباسيين المفوّه ، في السرد لا ينقطع له سيل . فازجى الدليل ،تلو الدليل، على عسف الامويين،وطمسهم ضياء الحق الوهاج، وتنكيلهم بارباب الحمية والمذهب السويّ . وجلجل يستميل اليه الشيعة ، وينصر ابناء ابيه : ما صعد منبركم خليفة ، بعد رسول الله ، الا علي بن ابي طالب ، وامير المؤمنين عبدالله بن محمد (واشار الى ابي العباس السفاح ، ابن اخيه) . واعلموا ان هذا الامر فينا ، وليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى ابن مريم ، عليه السلام !

فما لقي الا تكبيراً وتصفيقاً . فتجاهل العلويين، وحصر الامر بالعباسيين. ولن يخرج منهم الا وقد تسلمه عيسى ابن مريم . ومتى يقبل عيسى ابن مريم؟.. انها لاحجية باقية على الاحقاب

اذن فالعباسيون سادة المطمئن العربي حتى المنتهى . وهو ما صبوا اليه من زمنهم . يكفيهم ان يحتجبوا عن الامامة مئة واثنين وثلاثين عاماً ، كابدوا فيها مرارة الطغيان . ولكن ما من كبوة مداها الابد . وما من

نهضة منيعة القرار . وكل حال الى زوال

على ان دمشق لم تحتمل اللطمة ، وقد نزلت بها اثر لطمات . فما وقع، في مسمع مروان الجعدي، ما باتت الكوفة له ملعباً ، من قلاقل وفتن ، وقيام خلافة ، ومبايعة خليفة ، حتى غلى حنقاً وصاح بمن حوله : أنصبر عليهم حتى تزحف جموعهم الينا ، فتخلخل بنا دعائم السدة ، وتصب علينا النار ؟ .. استفحل العداء ، ولم يبق محيد عن خوض الضرم . فعليهم، نشدخ منهم الهام !

واقلقه ان يستطيل الخصماء ، وان يبسطوا اجنحتهم على رحابة ، كأنهم سادة احرار، لا تردعهم رهبة ، ولا يقف بهم عن غلوائهم حد، ولا نظام. ووثب الى العراق على رأس قوة جرّارة ، ترجح مئة الف مقاتل . وطوى نهر دجلة ، وتوغل في الروافد ، فاستقر بضفاف نهر الزاب .

ونشر ابو العباس جنده ليستوي بهم للقتال . وعهد في القيادة الى اهل بيته من الامراء العباسيين . فتولى عمه عبد الله بن علي امر الجيش الثاوي بشهرزور على أهبة، المعقود اللواء لابي عون عبد الملك بن يزيد الازدي . ودفع ابن اخيه عيسى بن موسى الى واسط . وفيها يحاصر الحسن بن قحطبة انديدا القائد الاموي العنيد يزيد بن هبيرة . واطلق يحيى بن جعفر الى لمدائن يمسك فيها بزمام جند يقوده حميد بن قحطبة . واقام اميراً على الكوفة عمه ، داود بن علي ، لا ابا سلمة الخلال ، وزير آل محمد ، وهو المتردد في مبايعة العباسيين . اما ابو العباس ، نفسه ، فينأى عن الكوفة الى «حمام اعين» ، يرقب فيها وجه المعركة . فلمن تكون الغلبة ؟ ... أللامويين، ام للعباسيين ؟ ... أيفوز فيها، مروا ، ام ينتصر ابو العباس ؟

واي فاجعة فادحة تنتاب العباسيين ان يظفر بهم مروان . والجولة الاولى حالفت الخليفة الاموي . فقهر ابنه اربعة آلاف جندي قذفه بهم عبد الله بن علي،تحت قيادة الخارق . فأستخف بهم مروان ، وبقائدهم القرم، وقد اسره . والجولة الثانية من نصيب مروان.فنظر العباسيون بهول الى كفتهم تشيل . وصرخ عبدالله بن علي برعدة حاطمة ، وألم حانق : يا رب ، حتى متى نُقتل فيك ؟

وهتف برجاله : يا اهل خراسان ، الفداء ، الفداء ،يا لثارات ابرهيم ! واحيا الهمم . وقذف الامويين بجميع الجند . لتكن ملحمة صارخة ، جارفة ، لايقوم فيها ظل لمخلوق . ووضح لمروان بن محمد مبلغ النقمة في ذوي القمصان السود ، بل في من يستظلون العلم الاسود ، وما كان العلم الاموي الا ابيض لياحاً .وصرخ بقومه حيال الوثبة الحمراء : الا انزلوا . اين قضاعة ؟

فتلكأ بنو قضاعة عن التلبية ، كأن الغضبة العباسية روّعتهم بجحيمها . وعالنوه يعتذرون : قل لبني سليم فلينزلوا !

وبنو سليم تماسكوا عن الهجوم،صارخين : ليحمل بنو عامر !

فما كان بنو عامر ليرجحوهم اقداماً ، وقد هتفوا به : استظهر ببني غطفان !

فهاله التراخي،واجتناب الاصطلاء بالنار المشبوبة . في اي رجال هو ، وليسوا يحمون جانبه ؟... وصاح بصاحب شرطته ، وهو يختلج نقمة : ألا كن ذلك المقحام !

فتقاعد،يرهب الصدمة . وما امسك عن القولة العاصية : ما كنت

لاجعل نفسي غرضاً !

فجلجل مروان : والله ، لاسوأنك !

واقلقه هذا التفكك في جنده. في اي قوم من الجبناء يرعى، مع احرازه النصر على دفعتين ؟... وامتهنه صاحب شرطته. فهتف يزري بمكانة الخليفة : وددت ، والله ، لو قدرت على ذلك !

فلمس بيديه ، وبعينيه ، وبقلبه ، شبح الهزيمة ، انه لفي انكد جيش . واضطرب فيه الرأي . أيشتد ، أم يلين ؟... وتجانف عن الشدة ، مخافة الخذلان . وفزع الى الاغراء يشتري الارواح بالمال . فخشخش بالذهب لهؤلاء الزائغين عن الصدام ، صارخاً بهم : اليكم بهذه الدنانير الصفر. انطلقوا الى الوغى ، وهي لكم !

فاقبل الجند على اكوام المال يصيبون منها، ثم يلتوون . وابلغه احد قادته ما يتواثب فيهم من مماكرة ، فدمدم عليهم : هل استهواكم المسودّة ؟... والله ، ما اراكم من سوى طغمة ابليس !

وصرخ بابنه عبد الله : ألا انطلق الى المؤخرة . وكل من لاح لك من هؤلاء الرعاديد يجنح الى الفرار، فاقتله!

وابنه عبدالله صاحب رايته . فما ان مال بالراية ، ليرتد الى مؤخر الجيش ، كي يصونه من نازلة الانتثار ، حتى خيل الى رجاله ان الهزيمة عصفت بهم ، وان الراية مالت تأذن في القهقرى . وماجوا وبين الحواني هلع، وفي الاسارير شرود . وضاق بهم جسر نهر الزاب في فرارهم ، فغرق منهم العديد الضخم ، وما كانوا ليبلغوا هذه الجسامة في الضحايا لو ثبتوا في المناوأة

وبدت للعباسيين الكسرة الجائحة، فطاردوا المتوانين عن المناكرة.

وايقن عبد الله بن علي ، ان لضيق الجسر يداً في القضاء على المزدحمين، في اجتيازه ، فراراً من المناهضة ، فأمعن في اقتفاء اثرهم ليزيد في غرقـاهم، ويحذف من منازليه ما يبيح له الحين المؤاتي

وابتلعت مياه النهر من افراد الجيش الاموي ما عراها به تخمة وغصة . فتراكمت الجثث كأنها السد الممتنع . وما انفك عبدالله بن علي يتأثر المنكفئين ، لا يهب لهم نهزة لاستعادة القوى. فلحق بهم، في هزيمتهم ، من الموصل حتى حران ،وقد لاذ بها مروان بن محمد ، وهي مقره. غير انه ما لبث ان طواها ،ووجهه دمشق . فاقتحم عبدالله بن علي حرّان بصخب وتكبير . وهدم فيها سجن عمه ، ابرهيم الامام ، في صولة التشفي . ولم يقف عن المطاردة . فأنطلق يعدو في خطو مروان ، وقد وطن النفس على ادراكه، ووثب يطاوله الى قنسرين، فحمص، فبعلبك ، فدمشق

ورقب عبدالله ان يخوضها حامية في العاصمة الاموية . وحشد لها الجند والعتاد. واستعان عليها بتاهر العنف . وابى الحظ الا الحفاظ ،لا يوارب في المعاهدة . فسقطت دمشق بعد ثلاث ساعات، في قبضة العباسيين، وخفقت عليها الرايات السود . فرفع عبدالله عينيه الى السماء هاتفاً : اللهم، حمداً وشكراً !

واغار على مدافن الخلفاء الامويين يهدمها غير رفيق بها . وينتزع منها ما تحوي من جثث ، ويذرو غبارها في كل ريح . ووقع على جثمان هشام ابن عبد الملك سليما من البلى . فانتقم منه بان صلبه ، ثم احرقه ، ونثر رماده في كل صوب . وليس لبقايا اموي ان تستقر بالوجود .

وما سلم من الكاسحة سوى عمر بن عبدالعزيز،وهو من منع شتم علي على المنابر.

فحجب رفاته عبدالله عن الامتهان . وما برح يسأل عن مروان ليصلبه ، كما فعل بهشام . ومروان اجتاز دمشق الى فلسطين ، فاذا من فيها يستظلون الاعلام السود . فطفر منها الى مصر ، وقد احس بعبد الله بن علي لا ينام عن السعي لامساكه . وعبد الله بلغ فلسطين ، وثوى بها . وكلف اخاه صالحاً اللحاق بمروان ، والثأر منه ، وما فتىء طيف ابرهيم الامام يحضّ على الاخذ له من ماحقه

والى فلسطين لجأ العشرات من سادة بني أمية . وكلهم اقبل يتذلل لعبد الله بن علي ، ويسأله في نفسه . قالوا ، وهم يحنون بين يديه هامات الاستكانة : عفا الله عنا وعنك ، يا عبد الله . فاعطف على بني اعمامك . واذا بدا لك انهم اساؤوا ، فأين حلمك يعلو إثمهم ، ويكتب لك في صفحة غافري الذنوب ؟

فما استطاع الا ان يلوي من تيهه حيال استجداء الرفق. قال مع كل ما يغلي في عروقه من قسوة ، وما يموج في مطاويه من نفرة : والله ، انكم لتغلبونني بهذا الاستظهار على امري ، وانتم من لم يذكر فينا الله !

على انه رقّ لهم ، مع خشونة كبده. اجل ، هم من بني اعمامه. وليس له ان يقسو على من حملوا اعتسافاً عبء الوزر .فانهم لمن بني امية. غير انهم ليسوا من القوادم . بل من الخوافي . وما للهدب ان يشاطر العين تبعة الاغراء ، مع انبساطه حولها ، ونشره ما تتألق به من فتون .

ودعاهم الى مأدبة عامرة بما راق وطاب ، حفلت بها ضفاف نهر ابي فطرس. فجلس اليها تسعون اميراً امويًا تلمع في اعبئتهم خيوط الذهب والفضة . وتتوهج تحت الاعبئة جلابيب الدمقس والحرير . ويتجلى في

١٥

الاساري نبل مطبوع. وشخصت الابصار الى عبدالله بن علي تعالنه بالتحية، وبالشكران. صانهم من الفناء!

ودهم الشاعر شبل مجلس الانس الماتع. غير ان هذا المقبل، على عصبة الوئام، ما دلف اليها الا ليقلق وضاءة اديمها. فوقف فيها يوغر الصدور، ويكشط البلسم المريء عن ناغر الحزازة. قال ينفخ الرماد عن الجمر:

اصبح الملك ثابت الاساسِ   بالبهاليل من بني العباسِ
طلبوا وتر هاشم فشفوها   بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً   واقطعن كل رقلة وغراس
ولقد غاظني وغاظ سوائي   قربهم من نمارق وكراسي
انزلوهم بحيث انزلهم الله   بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً   وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحرّان اضحى   ثاوياً بين غربة وتناسي

فصاحوا جميعاً برعدة وارتياع: قتلتنا، يا عبد السوء!

والتفتوا الى عبدالله بن علي، فاذا الوجه المغرورق ابتساماً يشيع فيه القطوب. ورقصت الحنجرة، وقد انتابتها خلجة الحقد. وزمّت العينان محاجرهما يلتمع فيهما الشر. وجلجل الفم بفائر الغيظ: والله، يا شبل، ازجيتهم الى حتوفهم، وأنفي راغم. فلا معدى عن البتر، وحق شهدائنا الابرار، وانت تنبش الدفين. اين جنودي؟... ألا احصدوهم حصد المنجل للسنبلة، ولا تبتوا فيهم على خفقة. ليس لمن غاصوا، في دمنا، ان نخلع عليهم عفونا. السيف، السيف، ولا تزيدة. فالقاتل لا يلقى، في شرعتنا، غير القتل!

فجمدت المبالع بما تردد . وعلت صيحات الهول المستجير : حنانيك ، يا عبدالله . اين ذمتك ، وقد نفحتنا بالامان ؟

غير ان عبدالله بن علي ازرى بكل ميثاق ، وقد هاجت سخائمه . وجمحت به ترات المستشهدين ، من الاصفياء ، الى خلع اكباد العتاة . فما انفك يصيح بجنده صيحات الحنق المستشري : لا تبقوا على نبضة في هذه الالباب المشتعلة بالخبائث . طهّروها بجميعها . اغسلوها بحشاشاتها . اغمدوا . ابتروا . اقيموا من اجساد الطغاة جدراناً لضريح البغي . في هذه الشطوط سندفن الانكاد ، الاشراس !

وابصر بالهامات تتدحرج ، وبالجثث تملأ الحضيض مبعثرة ، مقطوعة الاذرع والايدي ، مخلوعة الرؤوس . فانفرجت ترحته ، واضاءت البسمة وجهه ، وهتف : ليرقد شهداؤنا الميامين رقدة الرضى . انتقمنا لصرعى كربلاء ، ولابن الحنفية ، ولشهيد الساقية زيد بن علي ، ولابي هاشم ، ولابرهيم الامام ، ابن اخي . فالسيف الصدىء انجلى صقيل النصلة ، وفرى رقاب المتخنين في الجهالة والعدوان . اللهم ، انصرنا على اعدائنا . بك نهتدي واياك نستعين !

وما استطاب الان يمدّ الانطاع على هذه الجثث المختلجة بآخر ارماقها ، المتوسدة التراب ، المتعالية الانين ، الغارقة في دمها الفوّار ، وان يأكل ومن معه عليها ، صاعدين هابطين ، كأنهم في اراجيح . وصاح من فرط البهجة : والله ، انه لاطيب طعام أذوق ، واشهى مجلس احضر . هل نجا منهم ذو جدّ ؟

فاذاع احد جنوده : رأيت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ينفصل عن

الحزمة ، ويسكن الى الفرار . ورميته بسهمي ، فاخطأته . وتأثرته ، فغاب عني كالطيف ، كأن ابتلعته الرمال !

فزعق ، وقد هاله ما يسقط اليه : عبد الرحمن ، حفيد هشام بن عبد الملك ؟ ... لامك الويل ، ما اردت سواه. ألا عجلوا في ادراكه ، وعودوا به الي . ما اشتهيت سوى ترطيب شفتي بدمه . ان حقدي عليه لبالغ اقصى مداه . كيف تنكر ، فغابت عني طلعته وغفلت عنه ؟

وصرخ باثنين من العبدان ، وقفا وراءه ، في حراسة موئله : ألا اندلعا في خطوه ، ولا ترجعا الي الا وبأيديكما رأسه . فما يحلو لي العيش الا وانا ابصر هذا الوبيء في اكداس الاموات !

وانه لناقم عليه في ابنته ميمونة . هامت بعبد الرحمن هياماً لم يأذن في رجعة . وقضت بسيف ابيها شهيدة هذا الحب المكين . وانطلق العبدان يجوبان الفيافي ، وقد سبقهما فيها مروان بن محمد ، الخليفة المهزوم ، وصالح ابن علي ، القائد العباسي الضليع . وما ابتغى صالح سوى امساك مروان ، والارتداد به الى الاسر ، ليكابد فيه طامس العقاب

ومروان بن محمد الجعدي لاذ بوادي النيل . ونمي اليه ان العباسيين لا يألون جهداً في المطاردة ، فتغلغل في المعامي ، يسأل عن الاماكن الآمنة الموحشة . وقاده طالعه الى الفيوم يختبيء في رحابها . ونزل من ضواحيها قرية « بوصير » ، النائية عن كل شبهة ، يحتجب في كنيستها ، مع بناته ونسائه ، ويرجو فيها ان يضل عنه مطاردوه . واجتمع حوله حشد من اتباعه يحمونه من الغارة الكابسة ، الكانسة. على ان النحس ، اذا ما استمسك ، استعصى . ومروان الجعدي لزمه النحس ، وابى عنه افتراقاً . فارشد بعض

النمامين، الى مقره، جنود صالح بن علي ــ وما في الشؤم الى المهادنة سبيل ــ فزحفوا اليه في بوصير. ودهموا في الليل الكنيسة. وانقضوا في العتمة على مروان وصحبه، لا يدرون كيف ينزلون بهم الموت

واصابت طعنة مجهولة المصدر الخليفة المستميت في الكفاح. وعلت صرخة ناعبة، ناعية: صُرع امير المؤمنين!

واغار الصارخ على الجثمان المنتفض بدمه يروم احتزاز الرأس، وما انفكت الحياة تستعر في الجثمان المكلوم. على ان بائع رمان، شهد الموقعة، تقدم الجميع في البتر. فذبح الخليفة، المسجى في ارض الكنيسة، واجتث هامته، يهبه غنيمة باردة للقائد العباسي، ويعالنه بزهو ومرح: هذا هو رأس عدوكم الكافر الروح. اقتطعته كي اقيكم مشقة تدنيس ايديكم برجسه!

فحمل القائد الرأس الى صالح بن علي، هاتفاً بخيلاء: لم يبق للمقيت نفس يعصمه من الاضمحلال، ايها الامير. هذا رأسه. اقتطعناه منه، ونصالنا تشكّ في نحره. ليكن عظة بالغة لذوي الرعونة والنفاق!

فاطمأن صالح الى الغنيمة الراشحة بوزين الوفر. وقال ينشر فرحته على من حوله: الحمد لله، وقد اعلانا بخذل اعدائنا. هذه نهاية من طوّح بهم الغرور، واعماهم الظلم. ما عرفت ميتة اشنع وانكد. ألا اقتلعوا لسانه من حلقه، وارموه اكلة مريئة لهذا الهرّ المحدق اليه على نهم!

فما توانوا في الاجابة، وثمة هرّ يرنو بشراهة الى اللحم والدم الهامدين. والتهم الهر اللسان بمواء كاد يعادل الزمجرة، لفرط الارتياح الى الاكلة الطيبة، والخوف عليها من استطالة الناهبين. وازجى صالح الرأس الى ابن اخيه ابي العباس، في الكوفة، وكتب اليه يقول: لا إله الا الله. ولا رسول

سوى محمد بن عبدالله . ولا خليفة سوى ابي العباس ، سافك دماء الكفرة الجاهلين . أعزه الله !

وما نسي ان يسوق اليه ، في القافلة ، نساء مروان وبناته . ومروان خشي وقوعهن بين ايدي العباسيين ، فيمثلون فيهن ويفعلون، غلواً في التشفي. فنادى اليه ، قبل ركوب الواقعة ، احد خدمه يهتف به : اذا ما هان جدي، فلا تستبقهن للطامعين في التهام النضير واليبيس . بل عاجلهن بشفار تقطع احشاءهن وتصميهن ، فيبتن اشلاء يحار فيها البصير !

ولكن الخادم جبن في الانجاز . فسقطن في الاسر العباسي ، ليكابدن فيه ناحر الذل ، بعد مستفيض العز . واناخ الركب في فناء صرح ابي العباس، في الكوفة. وما نزلت في مسمع الخليفة العباسي البشرى ، ووقعت عيناه على الرأس المقطوع ، حتى تمايل عجباً ، وهتف فخوراً : الآن بلغت من زمني سامق القنن !

وهرع بالهامة الصفراء، العابسة نفرة من زمنها، الى شرفة صرح الامارة، الزاخر الرحاب بالمتوافدين لرؤية الجمجمة المبتورة ، ولملء الابصار بنساء مروان وبناته الاسيرات . وصاح — كما صاح من قبله هشام بن عبد الملك، وهو ينتخي رأس زيد بن علي بن الحسين — معلناً باسراف في التيه، وقد سجد وكبّر : الحمد لله الذي اظهرني عليك ، واظفرني بك . ولم يبقِ ثأري قبلك ، وقبل رهطك اعداء الدين . انا ابو العباس السفّاح ، كما لقبني صالح بن علي . غير اني لا اسفح سوى دم الجائرين المنافقين ، وليس لهم مذهب عن كاسح غضبتي !

لو يشربون دمي لم يروَ شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

فعلت صيحات المحتشدين في الافنية ، والاروقة ، وعلى السطوح : الله اكبر ، الله اكبر . الحياة الرغد لابي العباس السفاح ، والموت لشانئيه . انقذتنا السماء من الظلم والظالمين !

وهي حال الشعب في تأييد كل منصور ، وكل سيد جديد. وما تشتاق النفوس غير التبديل . والاستقرار ، في عرفها ، جمود . والجمود عفن. والعفن كالصديد ، يدعو الى استئصاله ونبذه . وقام في المطمئن العربي عهد طريف ، بات فيه العربي والفارسي على معادلة . فالدولة الطالعة وهبت للفرس ، من نفسها ، السمين القشيب. على ان القبيلين ، اذا زحزحا عنهما الكابوس الاموي ، فلقد نفرا الى التحرر بعضهما من بعض . والعز الطليق الجناح ، بعد طويل وأد ، يحن الى النشور

وضن العرب بسيادة احرزوا معظمها بسيوف الفرس ، واموالهم. وتبينوا في رفاق الجهاد سعياً للاستعلاء ، فضربوا ضربتهم المنذرة بامتلاكهم العنان . وتدحرجت هامة ابي سلمة الخلال ، وزير آل محمد ، تغيب رخيصة ، موتورة ، في جوف الصلصـــال . فالعرب ارادوها امثولة تلقى . هلا يرعوي ذوو الطماح ؟

٤

التفت ابو مسلم ، بمديد العجب ، الى الدولة النـــاشئة على اطواد من جماجم ، ما تزال تنضح بانّاتها . فهو باني هذا المغنى الفخم ، المهيب ، الاحمر العتبة . غير ان النسيان لن يلبث ان يذهب بالحمرة القـانية ، ليطبع جبين العهد بالاخضر النضير . فتورق الغرسة ، وتزهر ، وتأتي بثمارها اليانعة

ولكن هل يرضى ابو مسلم ، للدولة العباسية ، بدوام الاشراق ، وفي بلاد فارس حنين الى بناء المهدوم ، ورفع الهاوي ؟... أن عرش كسرى ، المحطم القوائم ، لينادي من حرسوا بالامس منعاته ، الى تشييد ما تداعى من معاصمه . وتاج قمبيز ، المسلوب اللآلىء ، ليتشهى نفض الغبـار منه ، كي يعود فيسطع بخيلاء . ومن للأم الصديع ، وترصيع العاطل من درره اليتامى ، سوى ابي مسلم ، رافع السيف الخاطف ، الحـاسم ، المخضّب الشفرة بدم خمسمئة الف عربي

وما يبرح ابو مسلم يلجّ في سفك دم العرب ، ولا يجنح الى سوى الابادة ، كي يغور في مهاوي الفناء ، هؤلاء الزاحفون من البادية ، للسيطرة على من يعلونهم شأواً ، ويتسلم الامر قادته ، وذادته . وما يسدل امير آل محمد على الشهوة الستار ، الا ليظفر بآمنة بنت علي . وما ان تمسي له ، حتى يجلو النيات القواصم . ولقد تزوج ثلاث نساء ، وما اكتفى بابنة عمر بن اسماعيل . بيد انه ما كان يقربهن في العام الا مرة واحدة ، ونفسه لا تشتهي غير من

عرفهـا في الحميمة ، وما تفتـأ تشدّه اليهـا ، وقد ابقت في خاطره اندى صبابة ، وامتع ذكرى .

وآمنة تتوق الى هذا الهادم البـاني ، وقد زاد خطره في مكانه منهـا . فامست لا تلتفت الى سواه من الرجـال ، مع وفر المقبلـين في التماسهـا . وكيفما جلست ، ونهضت ، اختلج طيفه في ناظريهـا . وكل من جالست حدثته ببطولة عبد الرحمن ، وبفضله على الدولة القائمة . وما يبدو في الكوفة خيال ، لرسول من خراسان ، حتى تهفو اليه ، وتسأله عن السيد المتفوّق . كيف حاله ؟ ... ومتى يبدو في صرح امير المؤمنين ؟ ... أما يشتاق الى الكوفة وساكنيها ؟

وعلمت انه بات زوج ثلاث نساء ، وعضّتها الغيرة . أيهيم بسواها ؟... على ان هذه الغيرة خمدت فيها ، لدن علمت ان ابا مسلم لا يقرب غير مرة في العام زوجاته . اذن فهو يستبقي لها ذخر الحنان . ورضيت عما اتصل بها عن بذخه . فهو سخيّ الكف ، واسع البساط . واكول ، بادي النهمة ، يسرف في التهام الطيبات . فالطهاة يزدحمون بالمئات في رحيب مطهاه ، وكلهم يعدّ لامير آل محمد اشهى طعام . فعادت تستفهم متحرّقة : أما من سبيل له الينا ؟

فقيل لها : سيقبل ، ومحال ان يتخلف عن التبريك !

وما اطربها الا ان تسمع حبابة ، جاريتها الحبشية ، تذيع فيها : مولاتي ، بالباب رسول ابي مسلم اليك . وانه ليرزح بالتحف الفرائد !

فاهتزت آمنة بنت علي . لا يفتأ الصبّ الهائم يذكرها . وصاحت وقد ماجت طرباً : اين هو ، يا حبابة ؟ ... ليسرع في الدخول !

ووقفت ترحب به . فانحنى بين يديها يقبل الارض ، كأنه في حضرة الخليفة نفسه . ورقبت ان تصغي الى بيانه ، فقال يبالغ في الاكرام : اوفدني سيدنا الخطير ابو مسلم الخراساني ، امير آل محمد ، الى ذات النقاوة والقسامة ، لتحيتها بوارف الاجلال . ومن الفخر لمثلي ابلاغها ان مولانا العظيم بخير ، وانه يذكر بالارتياح والاكبار عهداً سلف ، وما يزال يصبو اليه . ولقد رأى ان يتشرف باهداء هذه الغوالي الى ذات الصون والعفة . وانها لهدية دون المنزلة الباسقة . غير انها دليـــله على بعض ما تتقد به المهجة من اكبار !

فراقتهـا الديبـاجة . واعلنت بابتهـاج قصيّ : هل ساقك اليّ الامير المهيب ؟

فكشف عن عقد من اللؤلؤ في اكمل صياغة ، وعن خاتم مرصع بحجر وزين من الماس ، وقال وهو يعرضهما عليها: هذا ما ازجاني به اليك . وهو يعتذر عن تقصيره في أداء ما يتعادل ومكانتك . وانه لمقبل في الحثيث الى مقر ولي الامر !

فهتفت غير مكترثة للهدية النفيسة ، بمقدار اكتراثها لمرأى ابي مسلم : ومتى ، متى يبدو سيدك النبيل ؟

فاعلن وقد استشفّ من مقالها الشوق العجلان الى سيد خراسان: وهل من غنية له عن الوقوف في حضرة الخليفة يعاهده على الولاء ؟... ستبصرينه وشيكاً بين يدي امير المؤمنين ، وتنعمين بمتعة اللقاء !

فانسكبت ، على رغمها ، دمعتان على خديها ، وقد فاض بها هواها النديّ ، وكأنها درّتان رصعتا وجنتيها المتورّدتين بلهبة الهيام . وتجلت

للرسول حرقة الالفة المفجوعة بحظها من الارتواء ، فابان مشفقاً على القلبين المصابين بويل القطيعة : سأبلغ ابا مسلم ما يتولى الفؤاد الشجي من كاوي اللذعة . وسأدعوه الى الاسراع في نزول الكوفة ، وله عندك مذخور الوداد !

فقالت وهي تشرق بدمعها ، مع سعيها للوقوف به عن التهتان : ابلغه ان ابطاءه عني يؤلم خاطري . فليرفق بمن تقيم بالانتظار !

واطلقت من خفاياها ما يعدو المباح ، ولها من شرف محتدها ما يجنح بها عن مسايرة منازعها ، فاعلنت مستدركة : بل دعه ، سأصبر حتى تنجلي لي طلعته . وابلغه اني اشكر له نفائس هداياه ، واني ادعو له بمزيد الفلاح !

واحتجبت بلا ونية . حسبها ما اوضحت . وليس لها ان تميع في اشواقها ، ومقامها يأبى عليها الانطلاق في اظهار شجوها . فهي عمة الخليفة ، عدا كونها عباسية ناطقة الارومة ، وما تخفى عليها قرابتها من الرسول . وانسابت الى خدرها . ولحقت بها جاريتها حبابة لتبصرها في هاصر اللوعة . فلا تتمالك لفرط ما تذيب من عبرات . قالت الجارية الحبشية متأوهة : هل عدنا ، يا مولاتي؟... أما نبرح على حسرة؟... ما لك ولابي مسلم توثقين به امرك ، وهو زوج ثلاث ؟ ... انه لقمة في البطولة ، واللدونة ، والندى . بيد انه ما اكتفى بابنة عمر بن اسماعيل . مع انه عالنك بكونه يرضى بها اجابة لملتمس ابن اخيك ابرهيم الامام ، كي يخلعها عنه لدن تحين السانحة . فكان ان تزوج ، في خراسان ، اثنتين سواها . واتصل بي عن احداهما انه ، لفرط غيرته عليها ، ذبح برذوناً قادها اليه ، لئلا يعتليه رجل بعدها . وانى لك ان تقيمي على عهد من لم يصن عهدك ؟

فغاظ آمنة ما تلقي اليها جاريتها من واخز القول . وصرخت بها حانقة: هلا قدرت على لسانك الجمود ، يا حبابة؟... ما هذا التنكيد تقلقين به لبي؟... ابو مسلم ما يهوى سوى آمنة بنت علي. وهديته الي تصارحني، باصدق بيان، انه ذلك المستمسك بالوفاء . على ان مرتبتي تدفعه عني . فالعباسيون يضيمهم ان يتزوجني ابن سليط، وهو سليل اللقيط النغل. وان هذا الترفع ليحزنني. ويهيب بي الى سؤال نفسي: «أليس للقلوب من ميولها مستساغ الوصال؟... أيضير العترة العباسية ان يصاهرها ذلك الهمام ؟ » . والله ، يا حبابة ، ليس المرء بآبائه واجداده، بل بنفسه. وابو مسلم وفق ، بحد سيفه ، لتشييد دولة ما كان لها ان تتنفس لولا باذخ جهده. وهل لستائر الحرمان ان تنسدل بيني وبين من بسط لنا يد العون؟... أما يضارعنا في كرم النجار من رفعنا من الاغوار؟.. ان لم يكن نقي الارومة ، فان افعاله لتسمو به الى الجوزاء !

وتناثرت دموعاً . فهزت جاريتها الحبشية رأسها وهمهمت : لا تنسي جلالة النبوة ، يا مولاتي !

اجل ، هناك جلال النبوة ، وقد عطل منه ابو مسلم . افحمتها حبابة . وامعنت آمنة في سكب أساها . لم يبقَ لها غير منفذ واحد الى المشتهى ، وهو وعد ابن اخيها ، ابي العباس ، لابي مسلم . أما عالنه بان يعقد له على آمنة ، لدن يدرك العباسيون السنام ؟ ... ولقد ركبوا السدة، فهل ينجز ابو العباس ؟

وارتابت آمنة . فالوعد سيلقى المطل . فما دام ابو جعفر ذلك المعاند ، فما للرجاوة ان تشرق في ميعاد. وطال الاكتئاب على الولهى المعذبة الجنان. واضطرت جاريتها الى مقاسمتها الالم الخناق . فيا للمشتاق ، كم تقضم

من سويدائه الطمحات !

وابو مسلم ، وقد ايقن بعظمته ، وتجلى له شاحط سلطانه ، لم يقبل فوراً الى الكوفة لتحية ابي العباس ، وتهنئته ، بل استوى في خراسان على باذخ شأنه . فهو مشيّدهذا العز الشامخ ، الفيّاح . فهدم دولة ، وبنى على انقاضها دولة . وما كانت تقوم لهذه السيادة المستحدثة قائمة ، لولاه . ولم تنفك نفسه تحدثه بركوب المسند الاسمى . فلن يصلح للمعالي غير من وطد ركائزها . هو وحده للحل والربط في هذه الرحاب ، الممتدة من المغرب الاقصى ، حتى المشرق الاقصى . من اسبانيـــا ، حتى الصين . على انه يرقب الفرصة المأمونة . وآمله ، في صميمه ، ان يبطش ابو العباس بوزير آل محمد ، ابي سلمة الخلال . فهل عدنا الى عنجهية الامويين ؟

وتأففه من الغطرسة ، المستحكمة من العرب ، حداه على الوقوف عن هبوط الكوفة . فسيظل في خراسان . ومنها يطلق رسله الى ابي العباس يباركون له في الخلافة ، المتهادية اليه على حد الحسام الفارسي . فلن يبدو بنفسه لتهنئة من اغرقهم في عوارفه ، وقد امسوا مدينين له بهذا السؤدد الاريض ، بل سيطلق اليهم من يمثلونه ، نداً لند

وابى الا الايلام ، حتى في موقف التأييد. فالقى على رسوله ، الى مقتعد الامامة في الكوفة ، ما عليه في المعـــالنة . فليطعن ابا جعفر طعنة تهزه في مستفيض اعتزازه ، وما يفتأ يناكد رجل الثورة ، ومنشىء السلطة المستقرة الركن. والرسول اذعن لرغبة مولاه الاهيب. فوفد على الكوفة في موكب ضخم ، جرّار ، سطعت فيه فخفخة ابي مسلم ، وهي فخفخة الفرس ، عشاق الابهة والروعة. وما برحت الكوفة ترقب هذا الموكب للمبايعة الفاصلة .

فما بال ابي مسلم يتباطأ عنها ؟ ... هل جنح به الغرور والطمع الى الممانعة؟

وخشي العباسيون الصدوف عنهم في من رفعهم قباب المجد على مشمخرّ سموّها. وتآمروا. وساورتهم الوهلة. ونبر ابو جعفر : والله، ما اراه الا زاغ، والزوغان في لبه !

على ان الركب البادي زحزح عنهم الوجل. والتفت بعضهم الى بعض على ارتياح ومسرة. تدحرج الكابوس عن الجوانح. ووقف سيد الوفد في المجلس المعقود، في دار الامامة، يسأل شهوده : أيّكم ابن الحارثية ؟

وما اراد سوى شدخ هامة ابي جعفر. والى هذا الاستيضاح الدامغ اهاب به مولاه. فكأن لا يطيب لابي مسلم الا ان يخلع ابداً كبد خصمه. فليعلم ابو جعفر انه ممتهن، وليس ابن حرّة، بل ابن أمة، هي سلامة البربرية. اما ابن الحرّة، فهو ابو العباس، وأمه ريطة الحارثية. وغلب عليه لقبها، وقد ارضعته لبن الاحرار

وتخلخل ابو جعفر في مخه وعظامه. ألا يني المتجبّر الخبيث يعرّض به؟... والله، ليصرعنّه، وليقرضنّ فؤاده. فما به لا تهدأ له شقشقة، كمن يسعى الى حتفه ؟... واعترى الخجل الكاسف ابا جعفر. وتمنى لو ملك خاتم سليمان، فيتوارى به عمن حوله، لفرط استحيائه. ابو مسلم لا تسكن له فائرة، وهو من يستطيب القهر والطحن

واكره ابن محمد بن علي نفسه على الجلد، وقد غرز اظفاره في راحتيه، لامتلاك امره. وابتسم ابتسامة صفراء، يشيع فيها الكره الحاصد، لشدة ما تحتها من ضغينة. وما ابتسم لسوى التمويه واظهار الاستخفاف، لئلا يأخذ المشنّعون عليه بهذه القارصة، كلما شاقهم الغمز به

واعلن ابو العباس امره . فهو هو ابن الحارثية . قال الرسول ، وقد خر" بين يدي الخليفة ساجداً، يقبل الارض ، ويجاريه جميع من معه من رهط التبريك : السلام على امير المؤمنين ، سيد البلاد والعباد . ازجانا الى مولاي السامق القدرة ، ساعده الايمن العزوم الموفق ، والي خراسان ، عبد الرحمن بن مسلم . وقد حملنـــا الى امير المؤمنين التحف السمان من قائده الامين ، وسيفه القاطع . وان والينـــا ، امير آل محمد ، ليهدي الى امامنا المعظم، فائق اكرامه، ويدعو له بدوام العز والسعد. فالامنية السمحة اغتبطت بها الارواح، وقد تهادت الى منبتها ، ورسخت في موئلها . وليس لجميع من يخفق على اوطـــانهم العلم الاسود ، المنصور ، الا ان يطربوا لركوب السدة حاميها ، ولامتلاك الناصية هاديها !

فنشط ابو العباس للمعاهدة على الولاء . ما جهر ابو مسلم بالعصيان . وكم خشي الخليفة العباسي الاول انقلاب موطد المجد عليه. وما يقعد بالسيد، السحيق المضاء ، ان ينادي بنفسه عميداً، ويربع بالاريكة العليا ؟... فالحزم في عطفيه ، والدهاء في نهيته وقلبه ولسانه ، والجلد في ركابه . وليس في القـــادة إلا من يرهبه ، وهو اصدقهم في الغلبة ، واقدرهم على التنكيـــل والتدمير .

على ان صفاء الدخلة ما نبا عن القطب الاروع . فما انفك يحرص على الذمة ، لا يخمش نداوة الامانة . ونظر ابو العباس ، الى جميع من اطلقوا صيحة الحذر من ابي مسلم ، نظرة الاعتداد . فكاد يقيم وحده على ثقة بابن سليط ، امير آل محمد ، لولا ان ينطوي عليها عبدالله بن علي ، عمه ، وهو من الطامعين في الامامة ، وقد ارادها لنفسه بعد ابي العباس . قال عبدالله

ينسخ من الاذهان خاطر الارتياب بابي مسلم : والله ، انه لايخل بنا منا - سوف يأتيكم نبأ استقراره بجرزنا . وليس لمن اخذ لنا البيعة ، من كل مصر نزل ارجاءه ، ان يتلكأ عن الحبو الينا في التأييد . وشيكاً وتبصرونه فينا يفيض بالموالاة !

فما اقرّ ابو جعفر هذا الايمان بالفارسي الماكر. قال ينفي عن ابي مسلم الخلق القويم : ما يفتأ الخاتل يصانع ويداجي . فروى لي عنه سليمان بن كثير ، معتمدنا في خراسان ، ما ينفر بنا الى الالحاف في الوقاية. ما هو بابن سليط . خدعنا عن انفسنا فيما يطلع علينا بهذا النفاق الفاضح . ان هو الا ابن عثمان بن سدوس بن جردزده ، المنتهي بنسبه الى بزرجمهر بن البختكان ، وزير كسرى انوشروان . على ان بكير بن ماهان شحنه الينا كي يستعيد عز الفرس الهاوي ، مستعيناً بفرية ابن سليط ، وقد انزلها منا منازل اليقين . ولن يتردد ، والامر ملء يده ، في اعلانها دولة فارسية صرفاً . فيبيت العرب في كفة ، والفرس في كفة. كما كانت الحال في عهد الاكاسرة. وقد يخطر له ان يدمجنا فيه ، فيبيت سيدنا . فاحترسوا من الغادر . وما أفتري عليه ، يشهد الله . ولكنها رواية انقلها عن شاهد من اهله . وتعلم السماء اني لا ابتغي الا التحذير من الوقوع في الاشراك. صاحبكم لا يستوي على ذرة من اخلاص !

فذكروا نقمته على ابي مسلم ، وضحكوا . الا ان ابا جعفر ليس ممن يرتضون السخر بهم ، وهو على وفور ذكاء ، ووثيق حمية . فاذاع : اريد ان تخدعني ظنوني . بيد اني ما انفك اميل بكم الى التفادي من العثرة . صاحبكم ينصب لكم من الاحابيل ما لا يأمن شره من تمرّس بالآفات !

فرّوعهم . وداخلهم الريب جميعاً . فلم يسلم منـــه حتى ابو العباس ، الخليفة ، وعمه عبدالله . غير ان عبد الله لم يلبث ان نفض منـــه الشك في مطاوي ابي مسلم. لن يتمرغ امير آل محمد في الخيانة . فينسى من ائتمنوه على ارواحهم وغدهم . قال يخاطب ابا جعفر : انك لتغالي في الوهم ، يا ابن اخي !

فاستنبأ ابو جعفر بحدة : ألا يتراءى لك الصدق في سليمان بن كثير؟

فانتفض ابن علي وابتسامة التهكم ترعى في اساريره، وقال: سليمان حاقد ملسوع ، وقد كسفه ابو مسلم باقتداره وشبابه !

ــ وابطاء ابي مسلم عن المبايعة ، ماذا تقول فيه ، يا عماه ؟

فاعلن عبد الله لا يحابي : اقول فيه انه دلال . ولكنه موقوت ، يهيب بنا الى اليقين ان لنا في مضمار النصر شركاء ، وفي طليعتهم امـير خراسان . واذا ما استمتعنا بالمناعم ، فليس لنا ان ننسى من له في اعدادهـا اليد البيضاء !

وجبه ابن اخيه ، ابا جعفر ، بالحجة الدامغة . ابو مسلم يتدلل ، لا يجهر بالعصيان . وقد يكون مردّ هذا الدلال الى التماسه آمنة ، اخت عبـدالله نفسه ، وعمة ابي جعفر . انه ليشتهيها ويريدها زوجة . فلماذا حجبها عنه بعد حسن البلاء ؟... وهذا المبتغى تجلى لـكل من حضر وسمع. وتمثلت المخيلات آمنة في محياها الغرير ، ووسامة طلعتها . وتساءلت الاذهان : مـا للشرف الرفيع ان يهوي عن مرتبته، وآمنة تمسي للباني الاهيب. مشيّد مجد العباسيين لا تغلوه دمية عباسية يوثقه بها الجوى الاثيل !

على ان الجرأة هانت في هؤلاء العريقين في النبالة . فخاف كل منهم ان

يتهم بالحط من جلال ارومته . وما لدم نبعت منه النبوة ان يخالطه دم دونه كرماً . وابو جعفر ، مع يقينه ان عمه عبد الله افحمه ، ما انفك يكابر.

قال : الايام كفيلة بجلاء النيات ، يا عمي !

فقال عبدالله هازئاً من هواجس ابن اخيه : من رفع لنا اعمدة الملك ، وقادنا بيمينه الى الاريكة نجلس عليها ، يعفّ عن المكر بنا ، يا ابن اخي !

فظل ابو جعفر على سوء ظنه بذاك المعتصم بخراسان ، كأنه ربها . غير ان الموكب المطلّ على الكوفة ، يعالن بالتأييد ، ويبايع على النصرة ، خذله . ومما ودّ ابو جعفر ان يعلم ما قعد بابي مسلم عن المجيء بنفسه للجهر بالمبايعة . فما باله لا يفتأ ينال ممن يعلوه حظوة ، ومحتداً ، ويعادله همة وطماحاً ؟.. . فهل يتوق ابداً الى اللعب بالنار ، والعبث بمنزلة الكماة ؟

ونظر العم الى ابن اخيه ، وابن الاخ الى عمه ، وفي الاعين رمد يتنكر للوئام . عبدالله بن علي ارتاح الى مثول جماعة ابي مسلم في حضرة الخليفة يهنئون ، ويعلنون المبايعة باسم مولاهم . وابو جعفر دل بنظرته على عنجهية امير خراسان . فما هفا بنفسه يبارك لابي العباس ، بل اوفد من يتولى عنه الامر ، كأنه لا ينحدر من سامق شأوه ، فيكلف نفسه الحبو الى الكوفة ، والانحناء بين يدي امير المؤمنين

وبقي الاثنان على اعتصامها برأيهما في ابي مسلم . عبدالله يرى فيه ذا ولاء وامانة . وابو جعفر يكرهه وينتفض ألماً اذا ما خطر له في بال . وكم يخطر له في بال . فما كان ينأى عن ذهنه ، وقد رأى فيه عدواً كاشر الناب ، اشبه بالامويين . كأنه يتوهم ابا مسلم مقبلاً على السدة يحتلها ، ويدفع عنها الظل العباسي

ومال الى نسف الخطر المتوعد، الجهم . سيقشه، كأنه بيت العنكبوت . ورنا الى عمه بعين تتلظى نفرة . لكأنه يجد في هذا العم شراً عليه ، وحليفاً للخراساني المستعلي . وما نسي ما تنبأت له بـــه الكهّانة ، لدن انطلق من الحميمة الى الكوفة ، يفزع فيها الى حلم حفص بن سليمان ، ابي سلمة الخلال . وصحبه في الرحلة اخوه ابو العباس ، وعمه عبدالله . فاشارت العرّافـة الى ابي العباس تقول : يقتعد الامر هذا ، ويليه هذا !

وامتدت سبابتها الى ابي جعفر . وقالت وهي تلتفت الى عمهما : ويشذ عنه هذا !

وابو جعفر على ايمان بنبوءات العرّافين ، فوثق بما صارحته به الاعرابية كاشفة الغد . وتجلى له عمه عبد الله ظلّاً ثقيلاً لا يؤمن جانبه . وانى يستنيم الى هذا العم المطماع ، المتشوّف الى السيادة يبتغي ركوب مسندها ؟ . . . أما سمعه يدعو ابا العباس كي يوصي له من بعده ، وهو يحفزه الى مطاردة مروان ابن محمد ، الخليفة الجعدي ؟

اذن صدقت الاعرابية الراجمة بالغيب . ما عمه سوى عدوه . ومظاهرة هذا العم لابي مسلم الخراساني ، ما معناها ؟... انهما لخصمان قاهران . غير انه اعتزم ان يستعين عليهما بدهائه . سيكون نصلة في النحرين . فلا يكاد يطيح الاول ، حتى يلوي على الآخر ، فيتبعه صفيّه . بل سيضرب بعضهما ببعض ، فيقيمهما من انفسهما عدوين متطاحنين

ولابي جعفر من حدة فطنته ما يكعم به كل من يتصدى له بسوء . وما عليه الساعة الا ان يجامل . ولكل اوان حكمة . ولكل حكمة وجه . واصغى الى اقوال وفد التبريك ، وفي ملاغمه بسمة هازئة . ان هؤلاء المتكلمين ليذيعون

الافك. وادهشه ان يؤمن اخوه ابو العباس بما يسمع. أيكون ممن تستولي على ألبابهم الحيلة المنمّقة ، فيؤخذ بها ؟

وظل على صمت . بيد ان عينيه اظهرتا شكوكه . ما هذا الولاء المعلن غير اكذوبة للتخدير ، لئلا يحترس الخليفة ممن يسعى للحلول محله . واقلق ابا جعفر مرأى عمته آمنة تنصت لبيان الوفد البشير. فبدت من شق الستار ، المسدول في الزاوية ، بعينها السوداء ، وخدها السنيّ . وصرف ابن اخيها ، القاسي النظرة ، باسنانه . وقال بجارف الاضطغان : كلاهما لمدية الجزار . فلا عمتي تسلم من الهدم، ولا ابو مسلم . والله ، ان لم اذهب بهما معاً ، فلست ابا جعفر !

وما خلا بابي العباس، اخيه، حتى جاهره بقولة المرتاب: هل رضيت عن هذه المبايعة يسوقها الينا ابن سليط ؟

وشاعت في اساريره بسمته المتهكمة . فقال ابو العباس مدهوشاً من السخر القاشي في ابن ابيه : وماذا بان لك منها ، يا ابا جعفر ؟ . . . أفلا تبدو لك صادقة ، مؤمنة ؟... قل ، بحياتي !

فمضى ابو جعفر في ابتسامة الهزء القاطعة الحدين ، وهي تحزّ في نفسه ، وفي نفس من يسددها اليه ، وقال : لكأني بها تنضح بالمخاتلة . فما اراد المغموز النسب سوى معادلتك . فلم يقبل اليك بنفسه ، بل دفع الى ناديك اتباعه . وانها لقحة ما اطيق ان تبدو ممن خلعنا عليه جاهنا ، فاستقوى به علينا . ارى ان تجتثّ الساق الرخصة قبل ان تمسي جذعاً عصيّاً ، فيصعب عليك ان تسنّ لها فأساً تقطعها !

فارتبك ابو العباس. أما يزال ابو جعفر يصبو الى ضرب عنق ابي مسلم ،

مع كل ما أفاء به على العباسيين من عز ورفاء؟... ان هذا الجبار العنيد ، الكاره لكل جبار عنيد ، يغالي في الملتمس . وما يغيب عن ابي العباس ما بين الرجلين من بغضاء . فما ندّت عنه المهانة ، وقد رشق بهـا ابو مسلم خصمه المقيم على غطرفة واعتداد

وجنح الخليفة الى اخماد الغلواء الفائرة ، فقال: على رسلك ، يا ابا جعفر. والله ، ان لهذه الضغينة ، المستحكمة منكما ، اثرها الكاوي في نفسي . فـما اريد لها النماء ، وانا من يروم لكما التصافي . ألا خففا من جوامح النقمة ، وانتما من سيوف بني هاشم المصقولة ، وعليكما التمكين لهذه الدولة المكتحلة، منذ هنيهات ، بنور الوجود . على من نتكل وانتما في نفار ، وكلاكما دعامة في الاس القائم؟...أنبيح لكما الخصام ليمرح الاعداء على هواهم؟... سادعو ابا مسلم الى الكف عن ايلامك. ولا بد له ان يرتاد الكوفة في زيارة مستطابة ، فلابد من الجو الغمائم الدكن . هذه الشحناء في خير بني أمية ، وما تبرح لهم يقظة . فهل تدس علينا فلولهم في تحريض بعضكما على بعض ؟

فلمس ابو جعفر في اخيه الاحتراس من طاغية خراسان . فهو يرهبه ، ويتقي الحسام المشحوذ في « مرو » على أُهبة للاجتثاث . وما بالهين الفتك بمن فتك بخمسمئة الف ، وما يفتأ يبحث عن هامات يدحرجها . أيحلو لابي جعفر ان تتصدع سدة حديثة العهد ، ما تزال حجارتها متقلقلة، وطينها رطباً؟... ألا صبراً ريثما تصلب !

وانحنى على اخيه اللهفان يكفكف من بلباله . فليس من جمال الرأي تنفير الفرس، بعد مقتل ابي سلمة الخلال، من الدولة الطالعة. قال ابو العباس يبسط الحجة الناصعة: أيشوقك ان يفلت منا من ازدخرناهم لقهر الشدائد؟...

ماذا كان لنا ان نرجو لولا هؤلاء الشراة ؟ . . . عضدونا بكل ما استطال فيهم من وسع . وانهم لذوو مآرب في المساندة ، وهم من شيعة الطالبيين . غير انهم بذلوا بسخاء . فما توانوا في التضحية بالاموال والارواح ، وقد صبغوا الارض بدمائهم ، فيما يروونها بنجيع اعدائنا . ولقد جزيناهم شر جزاء . أما قضينا على ابي سلمة لنزوعه الى جماعة علي ابن ابي طالب ؟... وما لنا ان نتجاهل ما جاهد فيه من نشر دعوة ، مع اسراف في العطاء . فاتكأنا على ثرائه في إعالة مسعانا ، وكان ان بطشنا به ، والقوم ينظرون اليه باجلال . ولقد رأيتهم على امتعاض ونحن نطيحه . واخشى ان يغلي هذا الامتعاض ، فيمسي فتنة تخلخلنا ونحن نذهب بابي مسلم ، وهو منهم كما تقول . وما ادعاؤه الانتماء الينا غير خدعة نهد بها الى مساواتنا في الشأن . وانه فيه لدليل الطماح . فاذا جردنا عليه حسامنا ، اخترط باتره يجبهنا به . ولست ادري لمن يدين الفوز . غير اني لا ارى الهمة تنجدنا في مغالبة من اضحت لديه الحرب ألعوبة يلهو بها . أما تراه يملأ الثرى باكداس الجثث ، كأنه جزار في قطيع مسوق الى الذبح ؟... علينا ان نقف منه موقف الحذر ، لا النفرة ، والا تغدى بنا قبل ان نتعشاه !

فكره ابو جعفر هذه الهوادة في اخيه ، ونبر : والله ، انك لتمهد له ، بنومك عنه ، الى خلعك . فما دمت تدري انه على طماح ، فهل تسكت عن فحشه ؟... ما ادعى كونه ابن سليط ، الا ليستوي وايانا في الجلال . ولم يلتمس عمتي آمنة للزواج ، لسوى الارتقاء الى مرتبتنا . حتى اذا ما بات ، من اندادنا ، انشب اظفاره في اعناقنا ، واستوثق له الامر . ما ادعوك الى حذفه الا لادرأ عنك خطره . فكن رشيداً !

فاحس أبو العباس بلهجة الايمان تتقد في بيان اخيه. ان ابا جعفر ليطلق القول السديد. ما يسعى ابو مسلم لمحمدة. ولكن الحكمة تأبى المحو، قبل الاستجلاء. فان يكن ابو مسلم ذلك الجانح الى الختل، فليذق حمامه. ولن يعدم العباسيون طريقهم الى كسر شوكته. والتفت ابو العباس الى اخيه يقول: ساطلقك اليه كي تتبين مطمعه. فاذا بدا لك منه انه ذلك الماكر، فلا تطلعه على ما يساورنا فيه من ريبة. بل اقفل الينا، ولن يعصينا خلع نياطه. وساكتب اليه انك شاخص الى خراسان. فليكرم مثواك بما هو حقيق باخي امير المؤمنين!

فوافق ابو جعفر على الرحلة. سيركب الى خراسان مطيته. ويستطلع امر ذلك الممعن في مطّ خده على سادته. قال بحدة الواثق بنجحه في رسالته: ولكن لا يبدو لي اني ساعود اليك بما يبتهج به ضميرك. فما في خراسان غير دسائس واحابيل، يغلّفها الخبث والخداع. ابو مسلم يعطيك لعقة من حلاوة، على خابية من حنظل. فالسيف، السيف، يا ابن الاكرمين!

وحفزه الى القتل بلا ونية. على ان ابا العباس تردد. فما انفك يخشى صولة ابي مسلم. كأن رجل الثورة صاعقة جائحة، ما ان يتلبد الجو حتى تقصف رعودها، وتنقضّ ناراً محرقة، لا يفتر لها ضرام والتهام

٥

في دار الامارة ، في خراسان ، خلوة طال امدها . فوقف بين يدي ابي مسلم رسوله الى آمنة بنت علي ، في الكوفة ، يسرد له ما ادى مما عهد اليه فيه . قال وهو ينحني ازاء الرجل القصير ، الاسمر ، الاحور العين ، العريض الجبهة ، الوافر اللحية : قمت بالمهمة على خير وجه ، ايها الامير المفدّى . فاتسع لي الى خدر ذات النبل ، والمواهة ، لدن رسا في اذنها اني رسولك اليها . وبدت لعيني في بسمة المنتعش بعد سهوم ، كأن الروح دبت الى الذابل الحسير . وهتفت تسألني عنك ، وتعجب من ابطائك عنها . وما حفلت بالهدية لسوى كونها من مولاي العظيم . وهي تشكر لك التفاتك اليها ، وتلحّ في ان تراك . وقد ساءها قعودك عن الكوفة . فاشفق على لبها السائل ولوعاً وشوقاً ، ولا تحرمها زيارة تنقذ بها قلبها الاسيان !

فشعر في عروقه بدفق الحنين . كل ما احرز من مجد لا يضارع نظرة من آمنة . فانها لترتع في سويدائه ، و كأنها تربع بعرشها . هذه هي أيكتها ، وليس لذات نداوة ان تدانيها في مودة امير آل محمد . قال يستوضح رسوله : وهل بدت لك تتألم ؟

فاجاب الرسول يمعن في وقد الالفة : تألمت وفرحت . راقها ان تذكرها ، واوجعها ان يطول بعادك عنها . واحسبها بكت وانا اجلو عن مغناها !

فانتفض ابو مسلم جزعاً ، وصاح بمضض : هل بكت ؟... ويحك !

فاعلن الرسول بصدق في الاداء : عليّ ان اروي الحق كي يلمّ مولاي بالراهن . فلست اعدو الصواب في قولي اني ابصرتها تجهش بالبكاء !

فتجهت اساريره. وبدت له دنياه سوداء الوجه والقلب. وتعاظمت نقمته على ابي جعفر . لولا هذا المعاند ، في انالة الافئدة صبوتها ، لنجا قلبان حبيبان من صرام القطيعة . بيد ان المكابر يروقه تنكيد الارواح . وساءل ابو مسلم نفسه : ألا ماذا يعيب عليّ الجردان ابد الدهر ؟... إن هو إلا ذرارة في جفن سيفي . اذا امتد اليه نفَسي محاه. أيستلذ تنغيص عيشي ؟... والله ، ثلاثاً ، ما اطلقه الى النور غير هذا الساعد ، والا لبقي في الظلماء مغموراً ، أملط . انا من فتح له ولعصبته منافذ المجد ، وقادهم في دروبها أئمةً أعزّة . أفليس من حق الباني ان يتطاول ، فيدرك حرزاً خلع عليه من نفسه المناعة ؟... ماذا كان لهم ان يشيدوا من ركائز السموق لولاي ؟

وامتهن في ابي جعفر العنجهية الركيكة . واحتقر وزنه ، كأنه حيال سفساف، هزيل الرأي. فما لقي في هذا الملمّ باصول الفقه، المتضلع من البيان، الرهيف الذهن، رجلاً ذا مكانة . مع ان ابا جعفر على عزم وصولة. ولكن النفور منه ، واستعلاء ابي مسلم ، اهابا بامير آل محمد الى الاستهانة بمنزلة الجميع . فهو السيد الفرد . وليس لصوت، في الدولة، ان يرتفع بسوى رضى امير خراسان ، والا كان ناشزاً ، كريهاً ، محكوماً عليه بالصمت

وبهذه العين العابثة بالمراتب نظر الى ابي جعفر. فاي شأن له لولا انتسابه الى آل البيت ؟... وما ينتسب وحده الى هؤلاء الاخيار ، البررة ، وثمة المئات من امثاله. على حين يستوي ابو مسلم ، بلا شريك، على دكة الاستنقاذ،

وقد اهوى بدولة ذات مكنة، ورفع على انقاضها عصبة كاد يطويها النسيان

ولكن هل لابي جعفر ان تطول ايامه ، وهو السد المانع ، والويل الخالع ؟... ونزع ابو مسلم الى الانتقام ممن يجرّعه الغصص دراكاً . غير انه سيصبر على المحنة ما دام ابو العباس يمسك بالناصية . وما ان يلتوي عنها، حتى يشق الخراساني عصا الطـــاعة ، وينادي بنفسه إماماً . ولابي جعفر وامثاله ان يقفوا دون ملحاح الشهوة ، وليس لهم ان يجبهوا عنف التيار

والتفت امير آل محمد الى رسوله الى آمنة بنت علي، قائلاً له باستعطاف ما دبّ يوماً الى تلك النفس المتفادية من الخنوع : ألا زدني حديثاً عنها . ان اذني لتطرب لبيان الشوق ، مع كل ما يطفو عليه من كآبة . أما بدا لك منها غير ما اوضحت ؟

فادهش التياعه الرسول . ما عرف في هذا الجافي الطبع سوى غلاظة القول والسعي ، فما به يلين ، كأنه المنبوذ ، المسحوق الانفة ؟... أينزل الحب الافئدة سلطاناً طاغياً ، لا تعلوه مشيئة ، فيقود الحزون ، ويذل العصيّ ، ولا يبالي سيداً وعظيما ؟... قال الرسول المبهوت يزيل عن مولاه الحرقة : مولاي الامير ، ما رأيت فيها غير الجنوح الخالص اليك . فانت عندها سيد البسيطة ، بعد الله !

فانحنى رأسه على صدره لهفة . اي سيد هو ، وما يقوى على ان يستمتع بهوى يتيّمه ؟... ظفر بكل ما تصبو اليه نفس الكميّ ، وهان في منية قلبه. فتزوج ثلاث نساء كي يسلو آمنة بنت علي، فما قدر على السلوّ ، كأنه العاجز. وكاد ينوح على نفسه . فما اضعفه في مشتهى حنينه . وما اقواه في شفاء غله . أفليس عليه ان يأخذ ابا جعفر بكيده ، فينزل به جزاء منافرته ؟

ولم يكد يفيء الى نفسه ، حتى بدا حاجبه يقول ، وقد استبطأ الخلوة : مولاي ، بالباب وفدك الى الكوفة ، يستأذن عليك !

وما زال بحاجة الى سماع انباء الكوفة ، ولم يكن ليرتوي من معينها .

قال : ليدخل رجال الوفد !

ورجا ان يشفي . هل طعن رجاله، الى ابي العباس، طعناتهم المواحق، فهدموا في ابي جعفر صولة الخيلاء ؟...واصلح من نفسه . فارتفعت هامته ، وعبس . وبدت فيه الشدة ، كأنه النمر الوالغ في النجيع . وحار رسوله الى آمنة في ما تولاه، بين لحظة ولحظة، من تبديل. ورهب هذا المخضب الجبهة واليدين والروح بشراهة الفتك. وما تمالك ان همهم خشيان : اللهمّ، رأفتك!

ومثل الوفد في حضرة السيد الضاري يبسم بسمة الخوف والخنوع . ما فيه من يجرؤ على بسط نظرة التيه ، وحياله صخرة تحطمت عليها قرون العتاة ، ذوي الاضلاع الغلاظ ، والاعناق الغُلب . وقبل رجال الوفد الارض عند قدمي الطاغية المستنسر . وتكلم ارفعهم رتبة ، فقال ببشر مستكين : ليس لرب الامر فينا الا ان يبتهج ،وقد كسفنا له ابن البربرية. سألنا عن امير المؤمنين بقولنا لمن ضمهم مجلس الخليفة: «أيكم ابن الحارثية؟». وكأننا ذبحنا ابا جعفر بمدية صدئة . فخيل الينا انه يختنق . بل شخص لنا اننا ابصرنا روحه تطير . واغتبطنا بما لاح لنا، وقد شاهدنا فيه صفرة الموت تستصفي دمه . وتعجبنا منه كيف لم يزل حياً يسعى !

فرانت على نفسه الفرحة . وصرخ بشدة تمور جذلاً : هل فعلتم، عافاكم الله ؟

قال هامة الوفد : وما يمسك بنا عن ذلك الاستيضاح ، وما لسامعيه ان

يتهمونا بسوء النية ؟... اننا لنستهدي به الى امير المؤمنين !

فضحك ابو مسلم ، حتى كاد يسقط الى الارض . راقته برودة رسوله في الاستطلاع ، وما تبقي في خصمه على نفخة . إن هو إلا ابن أمة . قال يمعن في الاستقصاء : وهل اضطرب وانكسف ؟

فاعلن هامة الوفد بفياش ، وهذا مجاله : شخص لنا انه يبحث لنفسه عن حفرة في بطن الارض فيتوارى فيها !

فصاح بمستطير الاعجاب : والله ، ما حسبتكم تملكون هذه الجسارة . يا غلام ، احمل الى كل منهم ثلاثمئة دينار ، ولهامتهم الفاً . ان من تتقد فيه الجرأة الغلاّبة ، فلا يبالي امره في تحقيق شهوة سيده ، لمن ذوي الاخلاص والفداء . وماذا ظهر لكم في امير المؤمنين ؟

ـ لقد شاع في نفسه البشر ، كأنه لم يكن يؤمن اننا سننادي به علينا اميراً . وتلطف ففسح لنا في جنابه . واستنبأنا حال خراسان في عهدك . فقلنا ان اليمن لينذلع في ركاب سيدنا . فالعشب ينبت حيث يلقي ابو مسلم قدميه !

فارتاح الى ما تعي أذنه . لم يعدم في هؤلاء الاخوان ذوي حنكة وهدى . قال : عوفيتم . بامثالكم تعلو الامم ، وتنصقل الهمم . ان عندي للكريهة ابطالا ، وللتدبير رجالا . احمد الله وقد نصرني بكم ، واعلاكم بي . سأكتب الى خراسان باكملها انكم عين هذه الامارة البصيرة ، ويدها المديرة . وما انا غير نصلة في أيمانكم تضربون بها الشر العارم ، فلا تخيّبكم . زادتني بكم القدرة سامق عز ، وصؤول عزم !

وجاد بعوارفه . ليس في نفسه للمال وقع . فكأن التبر لديه تراب ، لا

يتحلب له ريقه ، ولا يفتنه بريقه

وكم اضاءت نفسه حبوراً لما قيل له ان ابا جعفر سيحبو الى ناديه ، وقد اوفده ابو العباس الى خراسان للشكر ، وللالمام بحالة القوم . فوثب قلبه استبشاراً. هذا اوان القهر. عدوه ينزل عليه ضيفاً. فاذا داراه كضيف،فلن يغفل عن تكديره، في صميم زهوه، كخصم بغيض،وسيخضد فيه غلواء الاعتزاز

وهتف بفائق المسرة : ألا مرحباً بالصفيّ الاريب . كلنا على شوق الى ذي الطلعة السمحة ، والنبل التليد !

ولم يذع ما يبطن .فانه ليتحامى الجهر بالنيات. وما للسياسة غير الكتمان من ناصر امين . وابو مسلم من الممسكين باسرارهم . فلا ينشرها، ولا يلقي حتى الى صفيّ من اصفيائه بطرف منها ، كأن لا ثقة له بذي ودّ . ولولا اثنان ، بذل لهما من أمانه، فتغلغلا في نفسه، واستقرا منها باللفائف، لصفرت كفه من الخلان الثقات . وما النجيّان الحميان سوى ابي نصر ، مالك بن الهثيم ، ونيزك ،كاتم السر النصوح . واليهما يفضي بالاشجان وبالمنازع . قال وقد خلا بهما، يطلعهما على ما يبتغي ابو العباس من ايفاد اخيه ابي جعفر الى خراسان : والله ، ما يرشقني به لسوى النفاذ الى حوابسي . فيشوقهما ان يعلما ما اخفي لهما من ميل ، وما اتجه فيه من نهج . لكأنهما يرتابان بمن شيد ورفع ، وليس لهما في المبنى العزيز سوى جهد المدلل . تعبت ، وغنما . وربّ ساعٍ لقاعد . غير انهما لم ينصفاني من زمني . التمست عمتهما آمنة للزواج ، فاباها عليّ ابو جعفر . ووعد ابو العباس ، ولم ينجز . كأني ، وقد اجريت عليهما النعمة ، ما ازال دونهما طينة ومرتبة . فهل رأيتما ، في الناس ، من يكافىء مجيره بمثل هذا الجحود ؟

وفار اضطغاناً . ومضى يقول : على ان آمنة إن لم تكن زوجتي ، فلن امدّ عمر الدولة الناشئة . ومن بناها لا يقعد به العزم عن تقويضها . فساذيق ابا جعفر ، من ضروب التنكيد ، ما يحس به بكوني ذلك الحانق ، الجافي . ساكرمه كضيف ، ولكن بمقدار . وسانال منه كخصم ، ولكن باسلوب مبطن بالدهاء . واذا قضي عليّ ان اكشف عن جبيني ، وأُجاهر بالعداء ، فاني لنابذ هذه العمامة عن مفرقي ، وشاهر ناصية معقودة ، لا تنبسط الا وقد غنمتُ ، او أرديت . ليقبل ابو جعفر ، ولينظر ، وليعلن حكمه . فما تقتلني في هؤلاء الغطاريس غير الشكوك !

فاعلن نيزك ، وهو من الحصافة على وفر ، ومن الولاء على طفاح : دعه يعلم ان ليس ، لذي اعتداد ، موطىء قدم في خراسان ، اذا اطلق فيه ابو مسلم النظر الشزر . فما تنفك تدفع عنهم الغوائل . واني لهم ان ينتصروا لولا ان تنتضي باترك ؟... فلم يرتفع لهم بند ، الا وانت تهدم في طريقهم الحوائل ، وتوطد لهم الدعائم . هذه العنجهية ، في هؤلاء النائمين على أمهدة من الديباج ، لم يتعبوا في نسجها ، تقلق حلمي . فما استطيع ان ألمّ بما يبيح لهم الازراء بجهود ذوي الضلاعة ، وهم يستندون في قيامهم اليه . ألا كن سيداً ، وانت من سما بهؤلاء المتجبرين الى موئل النماء !

ولم يكن مالك بن الهيثم دون نيزك حنقاً على تصعير الخدود . قال ابو نصر : ما افسدها غير هذا المقبل اليك . فهو من ألقى السم في الدسم . انه ليرى نفسه مجبولاً من تربة السماء . رجلاه من ابريز ، ورأسه قارورة ماس . ولا يجد بينه ، وبين سواه ، معادلة في كرم المحتد ، وجلال النفس . اراه يركب غروره . فان تكن النبوءة رفعته عن سائر الخلق ، فان دمها ليجري

فيك ، وانت ابن سليط . وان يكن يعتدّ بصلابة عزمه ، فانت من سهل له الى هذا الاعتداد . واي عزم ظهر فيـــه ، وما كان له ان يستروح عرف الطمأنينة ، لولا ان تبسط عليه بأسك ، وتنتشله مع ربعه من الجائحة؟...وهل هم ، وانت بعيد عنهم ، ان يلووا ساعد ابن هبيرة ، امير العراق للامويين ، النازل صميم واسط ، وما يزال يقاتل ، منذ احد شهراً ، قوات العباسيين الضاربة عليه الحصار ؟

ويزيد بن هبيرة استعصى ، في واسط ، على العباسيين. مع ان ابا العباس دفع عيسى بن موسى ، ابن اخيه ، الى منازلة القائد الاموي. فثبت له يزيد لا يهون . لن ينكفىء وفي صدره خلجة من نفَس ، وله من ثقته برباطـــة جأشه ما يحفزه الى الصبر الطويل

ورنا ابو مسلم الى هذا الضعف ، في العباسيين ، بعين شامتة . دحرج لهم الرأس ، وعجزوا عن احدى القوائم . قال : صدق ابو نصر . ذللنا لهم الدنيا ، وكبوا في زحزحة صخرة تجثم في الزاوية. وما يخجلهم التباهي والانتفاخ ، وهم في هذه الركاكة. ألا بئس الاشر ، وصاحبه غريق الرخاوة. سيعلم البطرون ، على هزال ، اي منقلب ينقلبون !

واطلق من منخريه الانفاس المستعرة . انه ليشقى بهؤلاء الواثبين الى المعالي بروح كنود . امتطوا اريكة السؤدد ، وتجاهلوا قائدهم اليها . قال نيزك : ما اراهم حثوا اليك المطيّ بسوى دافعين. خافوا منك على انفسهم ، بعد استنسارك ، وما يملكون همتك ولا دهاءك . واقلقتهم بادرة ابي سلمة الخلال !

وابو نصر ، مالك بن الهيثم ، وافق على القولة . ما حدا العباسيين على

ارتياد خراسان ، الا الخشية . وفي ظن ابي نصر ان لسليمان بن كثير يداً في قلقلة الضمائر . قال ابن الهيثم : عبثت الغيرة بلب سليمان ، فانطوى لك على غل" . وانه ليترصدك في نبوة لينم" عليك . ما ارى سواه امعن في اثارة البلبال . فنمّق للعباسيين انك شوكة في الخاصرة ، فألهب موجدتهم عليك !

فضحك ضحكة المزدري ، وصاح متوعداً : موعدنا بصاحبنا سليمان قريب . والله ، لن اسفك دمه في سوى حضرة ابي جعفر . ما يبدو لي ابن الفاعلة الا حرداً ، كأني جئت انافسه في عرش كسرى انو شروان . رمدت عينه ، ما اسفله . فما يلتفت الى قومه بمقدار التفاته الى نفسه . فإما هو ، وإما العدم . ولقد عرفت فيه هذه الاثرة منذ لقيته . فضاق به ان اكون له هادياً ، وحامياً ، وانا المقدام ، وهو الجبان . ليس سواه في ايغار الصدور ، صدقت ، يا مالك . على انه كتب نعيه بدمه !

وقام الى جنده يعرضهم بين يديه . أيكونون على قدر الشهوة النافخة في الاوصال ؟... ان الطماح ليشد ابا مسلم الى طي" البسيطة في ردنه . فأني قلب كمه لقيها في بطانته . وشاقه ان تزخر « مرو » ، عاصمته ، بالجيش اللج" . انه لفي حشد حفيل من الكماة ، لا يعيا به عن منازلة المرتابين بولائه ، اذا ما شهروها عليه حرباً اكولاً . والتفت الى نجيّيه ، ابي نصر ونيزك ، وقال : بهؤلاء ساقوض ما رفعت . فلتخفض الانوف من شموخها !

ورقب مجيء ابي جعفر ، ولي العهد . واعلن ساخراً : ولكن أيها ولي العهد ؟... أهذا الغر" المقيت ، ام عمه عبد الله بن علي ، وقد بايعه ابو العباس من بعده على الخلافة ، ان هو اقصى عنه شبح مروان الحمار ؟... سنشهد من المضحكات ، بعد ابي العباس ، طالت ايامه ، ما يهز" خواصرنا لفرط القهقهة !

وما لبث ابو جعفر ان بدا في خراسان يتمايل بابهة ولاية العهد ، وبزهو الشباب . غير ان ابا مسلم امسك عن لقائه بنفسه ، مكتفياً بان ينيب عنه من يرحب بالسيد العالي المناف . كأن هذا الهاشمي ، الكريم العرق ، دون ذلك الفارسي ، سليل بزرجمهر . وانتظر ابو جعفر ، على غير طائل ، ان يبدو ابو مسلم في الاحتفاء بخليفة الغد . فما ومض لامير آل محمد خيال ، كالمحتجب بصفيق الدهمة . فبلع ابو جعفر ريقه . ألا يني الفارسي النغل يتهنه ، كأنه السقاطة ، وهو القطب المنيع الحوزة ، العبل الذرع ؟

وصرف باسنانه على موجدة . الموت للقيط . ليسقينّه دمه . وتقدم حتى بلغ ابواب مرو ، وابو مسلم ملتفع بانزوائه ، لا تلوح له طلعة . ألا كم ينطوي له الذئب الشرس على ضغينة . وما ظهر ابو مسلم في الايناس بالسيد السامي المنتمى ، الشحيح بالكرامة ، الا والركب يقرع عتبة دار الامارة . فوقف ابو مسلم بالباب يقرأ الزائر المهيب السلام ، ولكن دون ان ينحني . ندّ تجاه ند . ابن سليط ابن عبد الله ، ازاء ابن محمد بن علي ابن عبد الله . فالفرعان الزكيان يتعادلان نقاوة ، وقد جادت بهما نبعة واحدة . واذا شاء ابو جعفر ان ينكر على ابي مسلم اصله العربي ، فهو من الفرس في السنام ، وجده بزرجمهر بن اليختكان ، وزير كسرى

وتصادم التشامخ ، الفائر النزوات ، فيما اليدان تمتدان للمصافحة ، والابتسامة تعلو الفمين . ومع طول ابي جعفر ، وقصر ابي مسلم ، احس الامير العباسي بان والي خراسان يتطاول اليه ، ويصبو الى كسفه

وتجلت له الابهة في الزينة ، والفخامة في المغنى ، والتنظيم في الجيش . وانه لجيش دهم ، يكسو الشواسع . فهل اخذت خراسان ، على بكرة

ابيها ، تمطر جنداً ؟... وهالت ابا جعفر يبوسة الجو ، مع كل ما يرفّ على الاسارير من بشاشة مصنوعة ، تخفي وراءها انكد الاوتار ، كأن كل ما في خراسان يتنكر لهذا الطالع عليها

واحتمل ابو جعفر . فالدهاء يتمدر المداهنة . وليس للحفائظ المكتومة ان تنفجر في غير اوانها . وساير ووارب . واطنب في الامتداح ، وفي بث الشكر . ابو مسلم سيف الدولة الناشئة . الا ان ابا مسلم اصغى ،بأذن غير مؤمنة ، الى المقال الخلوب . واتسعت في شفتيه بسمة الريب . ليس للاحقاد المستشرية ان تسترها كلمة خادعة !

وعرض ابو مسلم الجند على مرأى من ولي العهد . فاذا التحيات والهتفات لابي مسلم ، ثم لابي جعفر . واحس الفتى العباسي بالخسوف حيال امير خراسان . لكأنه دخان ينفثه عود ضئيل ، ازاء عجاج البركان المندلع الحمم . وكاد يضيع اخو الخليفة في التيار الهادر ،وليس له فيه مقام. ابو مسلم يلفّ بجناحيه ذلك الصقع النائي من بلاد الفرس . وإحراجه ، في سلطانه ، يعيد العباسيين الى ظلمة بددوا غياهبها ، وجلوا عنها . وما فتىء ابو جعفر يتظاهر بالملاطفة ، ويبتسم . مع ان احتمال المضض ليس من طبعه . ونزل روعه ان ابا مسلم ضيغم في عرين ، فلا يؤخذ بالشدة ، بل بالحيلة . وهي حيلة تفرض التمنمة في النسج ، والدهاء في القنص ، وإلا وضحت لفطانة ابي مسلم ، وتفادى من عواقبها . وقد تجنح به الى اطاحة حائكيها .

وتوالت على عين ابي جعفر مظاهر القوة والعظمة ، وهو يرى ، ويجرع الغصص . نجا العباسيون من كيد الامويين ، الا انهم فرّوا من بلية ،

لتلتهمهم بلية ادهى ، وقد باتوا تحت رحمة ابن سليط . وراعت وغادة الاقدار الامير العباسي . أيسودهم لقيط ، بل اعجمي ؟ ... ان البقاء تحت سيطرة الامويين ، العرب الاقحاح ، لاهون شراً

وما كان ابو جعفر يبصر حوله غير وجوه تغور في المصانعة . فتبدي المودة الزائفة ، وما بين الضلوع غير اراقم ، فاغرة الاشداق . وخاف على نفسه ، وعلى اخيه ، من هول الرزيئة . ما ربي في حجر قومه ، في الحميمة ، غير ذئب رهيف الناب ، جاحد المنة

وتوافد عليه الناس لتحيته . الا انهم كانوا ينحنون بين يدي ابي مسلم ، ويقبلون الارض ، ثم يسلمون على ابي جعفر . فالخراساني يعلو ، في عرفهم ، ولي العهد . واشتدت بابي جعفر النقمة ، والرهبة . هل لابي مسلم ، نفسه ، ان يرتضي هذا الاستخفاف بمنزلة الامير العباسي ، المدعو يوماً الى ركوب مسند الخلافة ؟... لكأن الامر مرسوم النهج

وتبرم ابو جعفر بالامتهان يعروه . وجلس الى المائدة ، بجانب ابي مسلم ، وما تعرف اللقمة سبيلها الى مبلعه ، لفرط ما انتابه من عبث امير آل محمد . فلا يسوق اليه ابو مسلم الكلام الا متشامخاً . ولا يميل به الى ابداء الرأي ، كأن لا حق له باعلان رأيه . ولا يلتفت اليه الا لماماً ، كأنه ليس ضيفاً عليه ، وللضيف حرمة الرعاية

ودعا نخبة من قادته الى الطواف بالامير العباسي في جميع خراسان . ورفض المسير برفقته ، كأنه لا يتنزل عن منيف مرتبته ليجري في صحبة ولي العهد . فكاد يختنق ابو جعفر . واوشك ان يتشظى سخطاً . بيد انه ما زال يستمسك بطول الاناة . لتبلغ الاستطالة في ابي مسلم امدها ، فلا بد له من اداء الثمن ، مهما

تسلق من قمم ، وحلّق في افلاك . أيكون العباسيون ، لديه ، من رديء الصلصال ، وهم زينة الدنيا ؟... وفارت الحفائظ في عروق السيد الحريص على كرامته ، وعلى مكانته . وغلت النفرة . إلا انه عرف كيف ينيمها لاحكام الساعة . فما بقيه غير التنويم سوء المغبة . وإن هو ازاح عن لبه التؤدة ، وثار ، فلن يبقي عليه ابو مسلم الراتع في ابعد امد من العزة

وابدى النزوع الى العودة .حسبه ما لقي من زري حفاوة، وما ساوره من طامس اكرام . بيد ان ابا مسلم ما اكتفى ، وقد مضى في العبث . فلم يكد يبدو له سليمان بن كثير ، ويلتمس دعوة ابي جعفر الى داره ، حتى صرخ به ، وما تغيب عنه مكايدة سليمان : ألا ماذا تقبل فيه ، ايها الشيخ الافاك ؟... والله ، ما اراك الا جئت تنفث سمك . أما شبعت فحيحاً ؟... اضربوا عنقه . إن هو الا صلّ خبيث !

وسليمان بن كثير ، في خراسان ، من الائمة . بل هو قطب هؤلاء الائمة ، واليه يرجع اهل النظر ، وعنه يأخذون.وارتعد، وقد سمع ابا مسلم يتوعد بالقتل ، بل يدعو الى محوه . والتفت اليه يستوضحه بوقار العاتب المتألم : هل نسيت هامة نقباء خراسان ، يا عبد الرحمن ؟ ... ألا من فسح لك في هذا المجد تستنشق اريجه ؟ ... هل كان لك ان تبلغ السؤدد العجلان لولاي ؟

فعاد يصرخ به لا يبالي حظوته : ما اعرفك غير دساس .غاظك سموق القدرة ، فسعيت لتقويضه . ولكني اقوّض فيك هذا المتعالي بين كتفيك ، اقتصاصاً من ختلك . احذفوا الهامة الغائرة في النميمة حتى ما تبين . وانقذوا النصاعة من مفسدها ، والاريحية من الداعي عليها بالليس !

فتطايرت السيوف الى اختطاف رأس سليمان . ولم يشفع فيه جهاده ، ولا مشيبه . وهوت جمجمته على مرأى من ابي جعفر المبهوت ، المشدوه ، الجاحظ العينين ، المرتعد الاعصاب . أما صان فيه ابو مسلم جلالة الضيافة ، ولا سمو النجار ؟ ... أيقتل في حضرته ، ودون ان يستشيره ، رجلاً من الاخيار ، اقبل في دعوته الى مأدبة يحييها ، امعاناً في اعلان التأييد ، وفي اكبار الشأن ؟ ... اذن ما ينهد ابو مسلم الى سوى القضاء على الانصار ، وامتهان النخبة ، ليخلو له الجو ، ويستأثر بالاعنة

وخرج ابو جعفر عن جميل الصبر ، والتحايل على السكينة . ان ابا مسلم ليباعد في الايلام والفياش . وهتف به ، والدم يلطخ اذيال الامير العباسي ، والهامة المضروبة تدحرجت عند قدميه : أتغتاله في حضرتي ، يا عبد الرحمن؟... أما تكرم ولي العهد ؟ ... ولكني امثل في ناديك الخليفة ، اما من كرامة ، ويحك ؟

فاذاع لا يتهيب : اخوك ابرهيم الامام ، عليه رحمات الله ، اباح لي دم المارقين ، وقد رشق بي العتاة معلناً : « أيهم تتهمه فاقتله ، ولا تأخذك عليه هوادة ، حتى من بلغ في الارض خمسة اشبار ! » . وسليمان بن كثير لا يحابس عني حديد مقوله ، فاتهمته في ذمته ، والخسيس ما ينفك يؤلب بيننا . فينقل اليكم عني من الوشايات ما يفسد صفاء الضمير !

فرقصت حنجرة ابي جعفر ، واصطبغ وجهه بالنقمة ، فنبر مغتاظاً : أما كان عليك ان تستفتيني في امره ، او ان تستطلع رأي الخليفة ؟... جاوزت المدى في سفك دم صديق . واذا ما عُدّ الخلصان فاخرنا ، في فرسان النظيرة ، بابن كثير !

فهدر امير آل محمد، وكأنه يأبى الجنوح الى المشورة في التدبير ،وهو، في يقينه ، صاحب القول الفصل في المصائر والارواح : لولا ما اعرف من زيغانه لسلم . بيد اني وقفت على مينه ، فانقذت من خبائثه نقاوة الجو . فما لجلال المغنى ان يصبر على قباحة النذل !

وصاح برجاله لا يكترث لابي جعفر :اطرحوا السافل في حفرة لا تحوم عليها ذبابة . فليس لسوى التراب ان يدري بمكان اللئيم !

وسمع ابو جعفر وتململ . فما لهذا اللقيط يقف في موقف السيد الاعلى ، فلا يكرم نبيلاً ، ولا يعفّ عن وفيّ ؟... ودمدم عليه ابو جعفر : ولكن الخليفة لن يكون راضياً عن هذا البطش البعيد عن موضعه ، يا عبد الرحمن !

فرشقه ابو مسلم بنظرة الهزء . وقال بمتناهي الاستخفاف : ليس لامر يقرّه ابو مسلم ان يلقى لدى امير المؤمنين غير الرضى . فطب نفساً !

ولم يعره شأناً . فليس لاحد ان يتدخل في ما يقرّ امير آل محمد ، كما قال ،حتى ولي العهد . فاهتز ابو جعفر كله ، كأنه المقرور . وتبدلت ملامحه، فاكفهر . غير انه احس بكونه دون هذا الطاغية المستطيل، فكظم غيظه. انه لمغلوب على امره ، وما يقوى على مشاكسة ، وزمام خراسان في قبضة واليها . على انه اضمر الشر. لن يهب لهذا المتحكم في الرقاب العيش المديد. فالشفرة الباترة تحن الى قدّ اضالعه ، والاصطباغ بدمه. وما كان ابو جعفر من سوى العابثين بالارواح . فالبشر لديه سوائم ترعى ، وتسمن ، ليضحي بها عند الحاجة اليها . والآن ، وقد استغنى عن ابي مسلم ، بل استغنى العباسيون باجمعهم عن منقذ قاموا به ، فما للرجل ان يبقى ، وشبحه يخيم

على صدور تميل الى اطلاق انفاسها على سعة . فان اعتداده بفضله ليجنح به الى احتقار ذوي السلطة ، وما يرى سلطتهم من سوى عوارفه . وصاحب النعماء مزهو . فالموت ، الموت للارعن التياه !

وقفل ابو جعفر الى الكوفة ، وجميع جوارحه تصيح برعدة ونفار : ان لم تمتص الارض دم اللقيط ، السليط ، فاني لساقيها دمي . لن تحتمل اثنين في مثل هذا الجماح الشرود !

وازمع البطش . فلمن تستقيم ، وفيها يسرح ذلك المتجاوز ، بشموخه ، مناط الغمام ، كأنه يزحم المعبود !

٦

في دار الخلافة ، في الكوفة ، صرخات راعدات ، يجلجل فيها الحنق والالم . وما يذيعها قائلها بخشية ، بل بعنف يهزأ بكل عتوّ . وجميع من في الدار استطاعوا ان يتبيّنوها ، كأنها تعلن كي تنشر ، لا لتبقى بين اربعة جدران

ووقع منها، في الآذان ،هذه الدمدمات السواخط : أقتله اذا شئت ان تبدو فينا اميراً للمؤمنين . اقتله ، وادرأ عن نفسك خطره . والا جرفك تياره . ما عرفت له عديلاً في الاستهانة بالرجال . فازدراني وانا اخوك . وبطش على مرأى مني بسليمان بن كثير ، ولم يتهيّب. مع انه ابصر الرجل مقبلاً اليّ في دعوتي الى داره . وهذا الاحتفاء بي اقسد على الجلف انتفاخه. كيف يدرج اليّ من يرحب بي في مبيته ؟... فبطش بسليمان . وتدهده رأس التعس في الارض ، عند قدميّ ، يصبغ بنجيعه ثوبي وحذائي . وما شاقني عند ذاك الا ان اشهر السيف ، واهدم الجبّير في عتوّه . بيد اني تماسكت لئلا تسوءك عملتي . اما وقد رجعت اليك ، فاني لاجود عليك بنصيحة تتقي بها الغائلة . احذف المارق، فتدرك الامان. والا كان خنجراً في صدرك، ونعشاً الى قبرك.فلقد طالت اظفاره، ورهفت انيابه ،واستطال فيه جناحان وثابان . واذا ما استبقيته ، زحف اليك لابتلاعك ، وقد فغر شدقيه لالتهام كل سؤدد وخير !

والمتكلم ابو جعفر . ولاح لاخيه ، ابي العباس ، في غليان المسوع في إبائه . فهتف به مرتاعاً : ماذا ، وقاك الله ؟

فزعق : بل وقانا معاً . فما في خراسان غير نيران تستعر ، ونيات تروغ . واني لاعيذك من شرها . فكأن الحياة من صنع ذلك الدعيّ ، وقد سخا بها علينا . فاللين الملمس ، الغضّ الاهاب في الحميمة ، خشن الاديم ، لاذع المقول في مرو . لكأنه السيد الاوحد ، وما نحن من سوى اتباعه . فامتهنني بقحة ما عرفتها حتى في بني أُمية . وسخر بي على الملأ . وما تنزل عن صلفه في لقائي . فلم يظهر لي في سوى باب صرحه ، كأني احد قادته . وما رافقني في جولاتي . ولا اكرمني الى مائدته . والناس والجند هتفوا له قبل ان يحيوني . وسجدوا بين يديه ، ثم مالوا عليّ بالتعظيم . فكأنه هناك يشيد لنفسه . واني يبالي امرنا ولديه بلاط ، وجيش ، واعتدة ، ومؤن ؟ . . . ارى عرش كسرى على أُهبة للبعث ، فنعود الى ما كنا فيه في الجاهلية من خمول ووهن . ألا اسفك دم ابن القبيحة ، والا سفك دمك . فالسابق في البطش هو المالك ، المستأثر بالعنان !

فهدّ حيله . أيشيد ابو مسلم لنفسه ، هازئاً بالحفاظ ؟ . . . اذن صدقت الهواجس . ما في خراسان غير صوارم ورماح ، تشق مرائر العرب واكبادهم ، سواء كانوا امويين او عباسيين . واستنبأ ابو العباس برهبة لم يملك بها نفسه : هل بلغت به الاثرة حد الاستهزاء بنا ؟ ... اذن فهو يتنمّر علينا . ولكن مهلاً . هل لنا ان نأخذه بالعنف ؟ ... انه لجذع مستطيل الجذور ، صلب التربة ، فلا تلين لنا مقاومته ونحن نصدمه . ومن الخير لنا ان نداريه . أما ترى باي نكال اصاب الامويين ؟ ... لقد حصدهم . واننا لنحاذر هذا الحصاد فينا .

ساخاطبه ، واخفف من غلاظته . ما كان ذلك الموتور لولا ان نفجعه بصبابته . اقصيناه عن شغفه بعمتنا آمنة ، فانطوى لنا على بغضاء . ولو عقدنا له عليها ، لازلنا فيه من غلاظة الجفاء !

فايقن ابو جعفر ان الخليفة ، اخاه ، يتناءى عن الكريهة . فما ينزع الى مخاصمة من مهّد وعبّد ، واضحى ذلك السيد المنيع القرار . وتمادى في ولي العهد فوران الحفائظ ، فصاح : لا تحدثني بشد وثاقه بنا . حسب أبي ما نفحه به من دلال . ولقد رفعه الى مرتبتنا . واني لنا ان ندركه وهو يتبوأ مقعد المجد ؟ ... أما يبدو لك ينهد الى معادلتنا ، بل الى التفوّق علينا في السؤدد والصولة ؟ ... عمتي آمنة غصة في قلبه . وما ان يتزوجها حتى يعلونا . له ان يشتهيها ، ولكن ليس له ان يبلغ مأربه منها . اهون عليه ان يطاول السهى ، من ان يدرك الصبوة الممتنعة . فمهما سما اليه من شأن ، فانه لمن خدمنا . ولنا ان نسحقه قبل ان يصلب على نعالنا !

ولكن ابا العباس ما يفتأ يحاذر القضاء على ابي مسلم . وليس يؤمن بكون القادة العرب يحفلون بمثال للخراساني في خوض الغمرة ، واحراز الغلبة . فانه ليروغ من عدوه ، كالثعلب . ويبطش به ، كالنمر . وتراءى للخليفة العباسي الاول انه مكدود في منازلة هذا الضيغم . فالاولى به ان يبدد عنه لوعته ، وهو المرزوء بحبه ، لا ان يصدمه ، في وثبة شوقه ، اذا ما عاد الى التماس آمنة بنت علي . قال يكبح من جماح اخيه : إن نحن نزعنا الى شهر حسامنا عليه ، يا ابا جعفر ، فلا بد لنا من تقليم اظفار ذلك المستعصي علينا في واسط . فلنكسر شوكة ابن هبيرة ، ولنزحف الى ابي مسلم نخضد ذرعه . اما وذاك المعاند لا يستسلم ، مع اضمحلال سادته الامويين ،

فاني نقوى على نحر امير خراسان ، وقد يستعين بعدونا علينا ، فنلتوي ازاء صنديدين ؟ ... أكفني شر ابن هبيرة ، وانا ظهيرك على والي خراسان !

وانفتح الباب ، على مداه، فيما يتواطأ الخليفة وولي العهد على ابي مسلم.

وانفجر صوت هادراً ، قاصفاً : أما نزال ننصب الفخاخ لمن جلا عنا الضيم ، واسبغ علينا العافية ؟ ... ما لكما ولابي مسلم تنسجان له الكفن ، ولم تنعما بالرفعة لولا مضاء ساعده . فاين كنتما وهو يخترق صفوف النار ، وينعش فيكما ذابل الحشاشة ؟ ... أتنكران يده علينا جميعاً ، بعد ما ظفرتما بقرص الحلوى ، وقد احرق يديه ، واذاب همته ، في اعداده لكما ؟

فانتفضا امتعاضاً ووهلة .هل سمعت آمنة ؟... اذن شاع السر .والتفت ابو العباس الى ابي جعفر معاتباً . هل له ان يطلق صيحاته في ما لا يجوز فيه الافشاء ؟ ... ابو مسلم ركن الدولة الدارجة الى النور بقدمين ما تزالان طريئتين . فاذا درى بان القلوب منطوية على اطاحته ، هفا الى معاقبة المتجرئين عليه . ولن يبقي من العباسيين اثراً ، وهو ذو السيف الحاسم ، الرهيف

ولمس ابو جعفر الهلع الفائر في ابي العباس ، اخيه ، فدمدم على عمته آمنة بقوله : متى اجزت لنفسك ان تتنصتي كالجواسيس ، يا ابنة علي ابن عبد الله ؟... ما عرفت ، في مكانتك ، من يلقي اذنيه الى الكوى وثقوب الابواب . هلا نزّهت عن نفسك الابتذال ؟ . . . ابو مسلم لا يخطر لنا في بال . ونحن هنا لشأن اسمى . بوسعك ان تنصرفي !

وتطاير ، من شدقيه ،كل ما تتأجج به نفسه من احتدام . وصبّ على عمته نيران مقوله المصوّح ، يحرق بها هذه المتقدة الاشواق . على ان الوهى

احتملت الضرم ، مع ازدواجه فيها ، ونبرت : أيخيل اليكما انكما تجريان في مساقطة الكلام بهمس ؟... ولكن الصرح يميد بزعقاتكما ، كأنكما في نائحة . أتكون اسرار الدولة مشاعاً ؟... ان الحكمة لتدعو الى الروية ، فاين حكمتكما ؟... اما انت ، يا ابا جعفر ، أفما تدري ان العقد لابي مسلم عليّ تفرضه السياسة ، قبل الهوى ؟ ... ان هذا الواقف باتره على اعلائكم ، لتقدره عليكم الحاجة . فاذا ما اوديتم به ، فانتم الخاسرون ، ولن تهتدوا الى نظيره . وقد يهدمكم ، قبل ان تهدموه ، اذا شعر فيكم بالمناكرة . فاكبحوا من غلوائكم . وعالنوه برضاكم عن تزويجه بي ، واطفئوا ثائرة قد تأكلكم ، اذا ما تعاظم سعيرها . وما ابتغي الهناء لنفسي ، ولا لابي مسلم ، بل لكم . ابو مسلم تزوج ثلاث نساء ، وبات بغنى عن الرابعة . ولن يضيق بي ان اقع على من يتزوجني . ولكنكم ، وانتم تفرّقون بيني وبينه ، لن تحلوا المشكل ، بل تزيدونه تعقيداً . فما ينقذكم من حقد ذلك المستعلي ، في خراسان ، غير الجمع بيني وبينه . ولا تبالوا بعد ذلك حاجزاً دون رسوخ قدمكم في مسند الحكم . قليلاً من لين العريكة ، يا ابا جعفر ، والامور المستعصية تسترخي ، ويسلس لكم العنان !

فهاجت في العابس ، الصاخب ، اوتاره . ورعد بمستفيض الكره : ادعوك الى الخرس ، يا عمتاه . هذا المنطق المستخذي لن يجري على ألسنتنا ، فنهون به في احسابنا . ابو مسلم لن يقربك في حلال ، ولا حرام . انه لغريب عن بيئتنا ، متقهقر عن مستوانا . واذا ما عقدنا له عليك ، فكأننا خسرنا ما غنمنا . وسيذاع عنا اننا نلنا من كرامة عترتنا ، مساومةً على منصب الامامة . والمنصب حق من حقوقنا ، لا خلعة تتكرم بها علينا يد معطاء .

ادخلي خدرك . وانعمي بمقامك . فان طلابك ليجاوزون العشرات . وكلهم حقيق بك . فليس لنا ان نكبو في مضمار الرفعة . وانت نفسك لن ترتضي لنا العار !

قالت بحرقة الالم : ولكن القضاء عليه يكلفنا ما احرزنا . فانى نقع على مثله في صناديد الرجال ؟ ... أما نخشى من فتنة تهب علينا ريحها فتقشّنا ، كأننا ذرّات ؟... ابو مسلم معقل منيع . فلا تجازفوا به . ان حرصكم عليه حرصٌ على شامخ العزة . أنهدم انفسنا بايدينا ، يا ابن اخي ؟

فزمجر : والله ، إن هو عندي الا نفّاخة . فمهما بلغ من حول ، فلن يزيد على كونه زغباً في خوافينا . واذا ما بطر العبد ، فما تنجع فيه غير العصا . ولقد اعددتها لهذا المتطاول على السادة السراة !

وغاب عن كل لين . فما لاح له في خراسان أعماه . فهتفت آمنة ملتاعة ألا رفقاً بالمهج ، يا ابا جعفر . اراك تلقي بنفسك في فوهة النار !

فزعق متأففاً : انصرفي الى زوايتك واقتعديها ، ايها المشتغلة بما تجهل . ودعي لنا سياسة الناس . فنحن ادرى منك بها !

فامعن في ايلامها . وهتفت تحت عنف اللسعة : ابو مسلم عنوان دولتكم ، فهل يشوقكم محو العنوان ، وكأنكم تذهبون بالدولة بكاملها ؟ . . . انكم لتدرجون في طريق وعر ، سوف تزلّ بكم فيه القدم . واحسرتاه عليكم ، وقد فقدتم صفيّكم الندب . فلن يبقى في اجنحتكم ريش لتطيروا ، فتصطادكم حتى طائش النبال !

فزأر ابو جعفر ، وقد وثب عليها قابضاً على حسامه ، مهدداً اياها بالقتل : ألا أغربي . والله ، ان نبسة اخرى ، تجيش بها شفتاك ، لتكرهني

على قطع هذا المتسنّم جيدك. على اننا، ونحن نذهب بابي مسلم، لن نصونك عن مصيره، وكلاكما لعاجل الفناء!

فصرخت به وهي تتجه اليه عارضة صدرها ورأسها: ألا اقتلني، اقتلني وانقذني من حقدك وحسدك. ساءك ان يعلوك ابو مسلم همة، وشأواً، فابيت إلا ان تزحزح عنك كابوسه. ويلي منك، وعليك!

فنزع حسامه من غمده. فصرخ به ابو العباس، وقد نفر اليهما يتوسطهما، ويمنع عادية الاذى: على رسلك، يا ابا جعفر. أما تتماسك؟... هذه آمنة، عمتك، هلا اكرمت فيها وشيجة القربى؟... بابي انت وامي، ما عرفتُ لمثل هذا النزق سبيلاً اليك. فاقهر فيك الاعصاب الحانقة، ولا تطلق للغلواء مداها. ان لدينا ما هو اولى بالالتفات اليه من ابي مسلم. أفما تذكر، في واسط، يزيد بن هبيرة؟

ومال على عمته آمنة يقول: دعينا لخلوتنا، يا عمتاه. سننظر في ما تعرضين علينا من رأي، ونجري فيه على سنّة الانصاف. ادخلي خدرك بامان!

واطفأ اللظى. وفترت الحدة في المتخاصمين، في ابي جعفر وعمته. وبرحت آمنة الديوان واثقة بقولة ابي العباس، وسينيلها الرجاوة، ممتعضة من ابي جعفر، وما يزال يخاشن. بل هي لم تله في قسوته، وما عرفته في سوى هذا الصلف. يعاند ولا يجنح الى مسايرة، حتى في الحق. فما يتراءى له هو الصواب، كأن الهدى لا يجلو عنه

وحدق ابو العباس الى اخيه، المتمادي في موجدته، يقول بابتسامة يغمرها مستطيل العتاب: أنظر في هذا الغضب الهادر، كأنه جماح

العاصفة ؟... ألا مهلاً . ما نزال نلاطف ونداري. فما الجميع عندنا بالامويين، وثمة من لا نقوى فيهم على خصومة . عمتي آمنة تعقد على ابي مسلم راسخ الامل ، وما ازال اعللها به . فما بك تنسف العلالة ؟ ... أيروقك ان تصغي الى النحيب والانين ؟... لنمسك بابي مسلم ونحن نعده بها . ولنمنعها من النواح المحروج ، وقد لوّحنا لها بالاجابة . فان القبض على طرفي الحبل يبقيه بين يديك . وابو مسلم وعمتي آمنة طرفا الحبل ، فلنظل قابضين عليهما معاً ، وليس لاحدهما ان يضيع منا. آليت على نفسي ان ابقيهما يترجحان بامنيتهما على المدى . فلا عليك . لنشخص الآن الى ابن هبيرة في واسط ، ولنزحزحه عن اعتصامه بها . وما ان نخلخله ، ويطأطىء بين ايدينا الهامة ، حتى ننقضّ على والي خراسان !

والمقال سديد . فليس من الحنكة خلق عدوين معاً . فالخصوم ، اذا ما تكاثروا ، بددوا القوى . وانحنى ابو جعفر ازاء النصيحة . ان ابن هبيرة لسنان متوعد ، ينزع بالعباسيين الى تحطيمه ، قبل الغمز من شكيمة ابي مسلم . قال ذلك الغاضب سرمداً : ساطوي اليه الفيافي . واني لمزحزحه عن ملاجئه . فليس له ان يناصبنا ابد الدهر العداء !

فقال ابو العباس يلاينه : وما ان تعود حتى نتفرغ لمداواة مناهضك في خراسان . فلن اجيز له ان يتغلب عليك في مسعى ، وشهوتك عندي مكرّمة اثيرة !

وازجاه الى واسط ، يقاتل فيها العدو الاموي المستكبر . انه لوتد في مستكاب الصلصال . نكل عزيمة في العباسيين لا تستأصله . وابو جعفر على جرأة وفطنة في النزال . فلا يروّعه الصدام . ولا تخفى عليـــه اساليب

المناوأة . غير انه ضاق بابن هبيرة . وما يجهل امر الوالي الصلب . نصبه الامويون اميراً على العراق لصدق تدبيره ، وحسن بلائه ، وهو في القتال من ذوي الشدة ، وفي السياسة من الاقطاب . ولقد نازله ثلاثة من قادة العباسيين ، وما ظفروا به . قحطبة بن شبيب ، فالحسن بن قحطبة ، فعيسى بن موسى ، ابن اخي الخليفة العباسي . ولقد اثاروا بهوانهم فيه ، شماتة ابي مسلم بالعباسيين جميعاً . فهل ينجح ابو جعفر حيث اخفقوا ؟

وابو جعفر دفع القوة ، الضاربة الحصـــار على واسط ، الى الهجوم . فلتقتحم اسوار مدينة الحجّاج ، ولتخرقها ، ولتنفذ الى صميمها فتمتلكها . بيد ان الغزوة عطلت من ثارها ، وما انفك ابن هبيرة يقاوم . فصرخ ابو جعفر بقادته ، وهو يكاد يطحن اسنانه ألماً : أما فيكم من يتكفل بتدويخه ؟

فانبرى له الحسن بن قحطبة يقول باستكبار : عليك به ، ايها الامير !

وابن قحطبة مرهوب الجانب ، مجدول الساعد . فسدد اليه ابو جعفر نظرة شزراء . بيد انه ما استطاع الا ان يبتسم على الاثر ، وما تندّ عنه مقدرة ابن قحطبة على التنكيد والكسر . واستوضحه ملاطفاً : ألا ماذا ترى فيه ، يا حسن ؟

واستماله اليه باستطلاع رأيه . فقال الحسن ينصح في المشورة : لا اجد خيراً من مباحثته في امر الصلح !

— أأدعوه الى المسالمة ، ويحك ؟

— لا غنية عنها ، يا ابن الانجاب . لنا في مقاتلته سنة وافية ، وما خضدنا من شكيمته . انه لفي صلابة المرّان . ونحن منه حيال صخرة متماسكة ، وما يبدو لي يلين الا وقد صافيناه !

ـ أتحفزني الى خطب وده ؟

ـ لا ندحة عن الخفض من عنجهية عُقام . اصلح الله الامير !

فاطرق ابو جعفر يروز الامر . أيوافق على مسالمة عدو ما يزال يغلي بضغائن الامويين ؟ . . . واستنبأ وشاور . وكتب الى اخيه في الكوفة يعرض عليه المخرج . أيفاوض ابن هبيرة بعقد الصلح ؟ ... انه لسعي المغلوب على امره . فارسل اليه ابو العباس يقول : ما نرجو الا الحد من وهجها . فاذا اتفق لك بالسلم ، ما يخفف عنك مؤونة الحرب ، فاجنح الى الملاينة مستظهراً بها على حل العسير . ونحن الغانمون في الحالين !

والرأي على أصالة . فلماذا الجهد في ما يُدرك بنزر من عناء ؟ . . . وابو جعفر دفع رسله الى المستعصي المقتدر . فتباطأ ابن هبيرة في التلبية . ليس ما يهيب به الى الفلّ من حميته . فما دام في وقفة المنيع ، فليمضِ في مناكرته . واطلق الى محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي من يدعوه الى المناداة بنفسه خليفة ، وله من العلويين وانصارهم ، والامويين وبقاياهم ، جيش لجّ ، وحسام ذريع . غير ان الامير العلوي تماسك عن الجواب ، والعلويون عانوا شر هذه الدعوات ، وجرعوا علقمها . فما ان يحسوا بانفسهم ، في موكب من الخلصان ، حتى يلتفتوا الى ما حولهم ، فلا تقع عيونهم على سوى خلاء

وتألم ابن هبيرة تكوي الغصة حبة قلبه . تحطمت درعه بنزول الامير العلوي عن حقه . ومال على هؤلاء الملوّحين له بالمودة يقول : والله ، إن تبقوا فينا على صحيح الانفة ، فلسنا عنكم بالمتنائين . على مَ تريدوننا كي نقف عن المناجزة ؟... هاتوا الحلو من البنود ، وخذوا الحلو من العهود .

دخلناها على شمم ، ويشوقنا ان نجلو عنها على شمم. فاذا راقكم ان تتسامحوا، فلن نكون دونكم رحابة واريحية !

وابو جعفر اشتهى سماع هذه القولة. فما سقطت اليه حتى كان يبسط يده للمصافحة . وارتفعت في الجيش العباسي صيحة فرحى : حيا الله الامير المنصور . عاش ابن الاجاويد !

ولزمه اللقب . فهو ابو جعفر المنصور . وكتب على نفسه ، لابن هبيرة، عهداً يقيه به العطب . فالامان له ولذراريه . وجاء الامان مختوماً بخاتم ابي العباس ، الخليفة النازل بالكوفة . فسكن اليه ابن هبيرة ، ونام خالي البال . على ان ابا العباس لم يشأ ان يحل معضلاً الا وقد اخذ فيه رأي ابي مسلم . ونزع الى استشارته في ما حقق ابو جعفر من شهوة . فانتفضت في امير آل محمد حزازة الكره . واوجعه ان يفوز ابو جعفر بما تضاءل عنه جيش ، فاعتزم تشويه المأثرة . واوفد الى ابي العباس من يعالنه :والله ، لا يصلح طريق يجري فيه ابن هبيرة !

وحرضه عليه . ليسفك دمه . لا نقمةً على ابن هبيرة ، بل زرايةً بابي جعفر ، الظافر بالمقاوم العنيد ، وناشر عهد الامان . وهاج ابو جعفر . وتطاير صوابه حنقاً . اي حرمة تبقى له وقد خُرق صك الحفاظ ؟ . . . وهتف باخيه : والله ،لن تختطف حياة يزيد الا وقد أرقت دمي. اني لسائر الى هذا الثاوي بخراسان اضرب قوائم سدته ، فينهار . فاي كرامة تبقى لنا ونحن نعبث بعهدنا ؟ ... ابن هبيرة اضحى اكرم الناس عليّ وجهاً ، بعدك . فدعني احرص ، ازاءه ، على ميثاق السماح !

ولكن ابا العباس أصرّ على انزال رغبة ابي مسلم منزلها من الاجلال .

ستطوي المنية يزيد بن هبيرة ، وينجو العباسيون من عدو حيّ يسرح في جلودهم ، حتى اذا ما سمن ، نهش لحومهم . فصرخ ابو جعفر : ويحك ، اقتلني به . فان لم اكن فداه ،فلن يضيق بي ان اذهب فدى العهد المقطوع !

فابتسم ابو العباس ابتسامة لينة ، تنزع باخيه الغضوب الى التؤدة . ليس يجور ابو مسلم على الامويين باستصفاء دمهم ، وما صانوا دم هاشميّ .

فجلجل ابو جعفر : ان يكن ثمة من يخلق بالسيف ان يقطعه إرباً إرباً ، فهو ذلك المجرم ، القابض على ولاية خراسان . رآني استميل الى جماعتنا سليمان بن كثير ، فقتله بتهمة الانتصار للعلويين ، بني اعمامنا . وورى باني اذللت في ابن هبيرة عنيف الصدام ، فجنح الى تكدير جلال الصنيع ، بهدم القائد النبيل الوجه . أتدري ما يقول فينا التاريخ ، وقد ازلنا من جاهرناه بالحرص عليه ؟

فلم يشأ ابو العباس ان يدرك ما سوف يفيض به التاريخ من بيان . وجلّ ما ارتسم ،في خاطره ، ان عليه ان يندفع في رضى ابي مسلم . فليس له ان ينقض حرفاً مما ينتفض به مقول والي خراسان . وفوجيء ابن هبيرة بالسيف ينذره بحمامه . فماج هولاً ، وفي حضنه ابن صغير له . وألقى الصغير جانباً،واقتحم الردى . على ان النصلة الباغية لم تطش عنه . ففلقت هامته ، تقدّ الجمجمة الصلبة ، كأنها تبري قلماً من هشّ الغزّار

واقام ابو جعفر على ضيم خالع ، وحقد جامح . فهو يستجير ، بالحق العادل ، من هذا المستأثر ، في « مرو » ، بكل عناد . انه لجعفر المدحور ، لا المنصور ، ان لم ينثر لفائف ذلك الفاحم الروح طعمـــاً للضواري ، والكواسر ، والاحناش

٧

انتشرت ،في العراق ،رائحة لا تطيّب بالمسك سمعة بني العباس ،وقد بطشوا بابن هبيرة ، بعدما خلعوا عليه الامان . فذاعت عنهم اقاويل السوء . وخاب مؤيدوهم في ما ارتجوا من مكرمة ، وطمعوا فيه من حلم . فاذا نعى العباسيون على الامويين رفعة الخلق ، وسلامة الطوية، فماذا ابقوا منها لانفسهم ، وهم يفتكون بمن آمن بالنبالة ، فركن الى الولاء ، ووثق بالعهد الشريف ، فانام وساوسه ، وكأنه دفنها في لحد ؟

ووقعت في اذن المنصور اصداء غمغمات الامتعاض.فنفثها في مجلس اخيه الخليفة ، وهو يجلجل بفورة من مقت وغيظ : أيطيب لكم ان نشذّ عن الصراط ، لنسمع المغامز علينا ؟ ... ابو مسلم ما يبتغي لنا الا الغؤور في الخزي . فيسلخ منا اعواننا بدفعنا الى تكدير عيشهم ، وقلقلة ثقتهم بنا . هذا فارسي ، لا عربي ، وما يرمي الى سوى رفع قومه ، واذلالنا . ولقد ضرب بعضنا ببعض . وحفزنا الى اطاحة اكارم رجالنا . وجرّنا الى ثلم مواثيقنا . فان ضربنا عنق يزيد بن هبيرة ، القائد العربي الرئبال ، لمكيدة لاستئصالنا ، أحكمها ابو مسلم في ليل ، وما يشوقه الا ان يفنينا . ومن النكد اننا نتبعه على عماه . فيقذف بنا في المهاوي ، ونحن نعالنه الطاعة . كأنه ، وهو المغرّر بنا ، هادينا . أفما سمعتم ما يشيع عنا ، في الافواه ، بعد ما اودينا بمن عقدنا له على ضميرنا؟... اني لاخشى ان نكبو قبل الاوان ،

ونحن نندفع في صعيد انتهى بالامويين الى الانقراض . هلا استيقظنا من غفلتنا ، وارعوينا ؟ ... لنتعظ بالسلف ، لئلا نكون موعظة لسوانا !

وجاد بكلماته قاطعة ، جامحة . وبلغ من بعيد اثرها ، في سامعيها ، ان تولى الشده المجلس الحافل بنخبة العباسيين . فما فيهم من تكلم ، او تحرك . حتى الانفاس تهادت ببطء واحتراس ، كأنها تخشى قطع صدى البلاغـة ، المتجاوب ملياً في الاسماع . وما انفك الخليفة ابو العباس السفاح يحدق الى اخيه ، ابي جعفر المنصور ، وفي شفتيه استيضاح يروم اعلانه ، ويتجانف عنه . ورنا اليه ابو جعفر ، وتجلى له فيه الارتباك . فصاح يميل بـه الى الاقتناع والمواءمة ، بلا حذر ، ولا ونية : أُقتله ، ودمه في عنقي . اني لاكرر عليك الدعوة الى البطش به ، بلا رهبة . فالنصلة الفاصلة وحدها تكفيك اذى المسيئين . انه ليبدي لك الالفة ، ولكن وراء هذه الالفة عالماً من ختل . فاحصده ، قبل ان يهون في اجتثاثه ساعدك . فاذا صلب مكسره ، فانت ضحيته . وعلى جمجمتك يشيد دولته . فهل ترقبه ، ريثما يعسر عليك رضخه ؟

وتراءى له ، بعد هذا التمادي في الحض ، انه اصاب من اخيه كوامن الغضب . واجال عينيه في جميع من حواهم المجلس ، فـاذا الخشوع يمسك بالالباب ، وما ثمة غير المؤيد والمؤمن . قال ابو العباس ، ولم يجد مناصاً عن الاخذ بشكوك اخيه : ما كنت اشتهي ان يقال فينا اننا من اهل الجحود ، فنكافىء الجميل بالكفران . اما وثمة رغبة في اقلاق سؤددنا ، فعلينا ان نقهر الساعين لاحراجنا . سيلقى ابو مسلم من الرضّ ، والكبح ، ما يثوب بـه الى هداه . هذا الاستعلاء فيه ساطوي من عرامه ، وأفلّ من باذخه . وان

تكن الضلاعة ، رفعت ذلك المتنمّر ، الى سامق الذرى ، فما كان يتسع له الى الظهور ، لولا ان ننشر عليه لواءنا ، ونطبعه بميسمنا. فما عرفه الاعوان ابا مسلم الخراساني كي يتبعوه ، وهو ذلك المغمور ، بل عرفوه سيفاً من سيوفنا ، فجروا في ركابه يؤازرونه ، وينصرونه على الشانئين. ما اذاع ابو جعفر الا حقاً . وإنا لطلبته لمؤيدون !

فهتف ابو جعفر بمستطير الغبطة : اذن لقد عرفت كيف تحكم أسّ سلطانك . منذ الساعة بدأت تظهر فينا بمظهر الامام الاثيل !

غير ان ابا العباس ، مع ايمانه بضرورة القضاء على هذا الممعن في تصعير خده ،في خراسان ،ما انفك يتردد في بتّ العنق الغلباء .أينجو من الواقعة ، وهو يبطش باثنين من خيرة الفرس ؟...دعا الى قتل ابي سلمة الخلال وزيره ، فهل تبيح الحنكة والحكمة نحر ابي مسلم ، قائده الموفق ؟

وخشي ان يتنبه الفرس ، وهم ابداً على نفرة ويقظة .ومن يجد في عونه اذا خلعهم عنه؟... وهاله ما يلوح له حوله من فراغ .فالعرب لا ينجدونه ، وهم شيع وارهاط . وللامويين عليه ثأر . وللعلويين مثل هذا الثأر . اباد معظم الاولين ، واستحل حق الآخرين ، وهم يرون انفسهم اولى منه بالخلافة . فكيف يظاهرونه على الفرس ، والفرس على مذهبهم في الامامة ، وما يؤثرون فيها بشراً على ذراري علي ؟

ونهد الى سياسة الوخز ، واللمز . فيحطّ من مكانة ابي مسلم ، ويجنح به الى التخفيض من غلوائه ، كي يشعر بان له سادة ، لا يجيزون له الانطلاق على هواه مستبداً ، عاتياً . فان لهؤلاء الائمة رماحاً ما كلّ لها سنان ، ولا التوى جماح . وليس لمن يصادمهم ان يرقب في المناوأة غير الانهزام

وما توانى في انتهاج سياسة الترويض ، طامعاً في تقليم اظفار ابي مسلم ، وخضد شكيمته . فان لم يحطم فيه فائر الانتفاخ ، ذهب ضحية الفياش المستشري . واهاب بأبي الجهم الى مكاتبة ابي مسلم في ضرورة استئذان امير المؤمنين في نزول الكوفة ، لاعلان الطاعة ، وتجديد المبايعة

وابو مسلم في شوق الى ارتياد مغاني العباسيين ،وآمنة ترقبه على مضطرم الحنين ، وهو يتوق الى مرآها . فما احجم عن المسارعة في استجازة القدوم على الخليفة ، ولم يتفق له ان ابصره بعد الغلبة . ولكن ابا العباس لم يحقق له الشهوة . فكتب اليه يقول : خراسان لا تحتمل مفارقتك لها ، كي تخرج منها . فابقَ في اريكتها !

فادهش الجواب ابا مسلم . أيلتمس المثول في حضرة الخليفة ، لمعالنته بالرسوخ في العهد ، فلا يظفر بالرغبة ؟... واقام طويلاً على تفكير في الرد الغامض المرمى . وساءل نفسه أيميل به ابو العباس ، عن ارتياد الكوفة ، لئلا تثور لواعج الاشجان في قلبه ، وقلب آمنة ، فلا يتمالك الخليفة ان يعقد له عليها جزاء حسن بلائه ، ويحس العباسيون بكونهم أُصيبوا بحميتهم في هذا الزواج ؟

ولكن الخليفة بنفسه حفزه الى الوفود عليه ، فما حداه على النكوص ؟... هل نفرت به عن البغية نصيحة ابي جعفر ، وما يشير بسوى الايلام ؟ . .. وحار ابو مسلم في ما يعلل به الموقف المتناقض ، وليس يغيب عنه ان له في ولي العهد العدو البغيض

ورصد ما سوف يطلع به الغد . واذا رسالة أُخرى ترد عليه بتوقيع ابي الجهم ، لا بامضاء الخليفة ، تستصوب ان يعود فيلتمس الاذن في

هبوط الكوفة ، للسلام على امير المؤمنين . فما تلكأ امير آل محمد عن الاذعان . وجل مشتهاه الوقوف على النيات . هل افسد ابو جعفر ما بين مرو والكوفة من مودات ؟

وعاد اليه الجواب ان ابق : خروج امير المؤمنين اليك ايسر من الاذن لك ، وإخلاء ما اصلح الله بك !

فانتابه ممض الذهول . ان الكوفة لتعبث به . فماذا تبتغي من مقاذفته، كأنه في يمينها ألعوبة، فتدعوه اليها، ثم تقصيه عنها ؟... أيروقها الاستخفاف بشأنه ؟... وتوترت اعصابه . وبلع الغصص . ألا يكون لدى القوم على كرامة ؟... ونفر الى الالمام بما يقع في تلك البيئة، وفيها من يغتابه . وحنق على نفسه ، وقد هانت لديه . ان القوم ليزدرونه . واحس بسعيهم للنيل منه ، فانطوى على جزع . قهره ابو جعفر في شوط المناحرة . بيد انه لن يقر بالهزيمة ، وسيكافح حتى المنتهى. وهاجت اوتاره. ما يزال سيفه مسماحاً، وجنده مطواعاً . فلن ينام على الكدر . وما وردت عليه رسالة ثالثة، تزين له التماس المجيء الى الكوفة ، حتى كان يطلب من ابي العباس ان يبيح له الشخوص اليه . وهاله ان تعاد الصدمة ، وتستعاد . فألحف في المطلب يحتج بحنينه الى اداء فريضة الحج

وافتر مبسم ابي العباس وهو يطالع ما ينزع اليه والي خراسان . وعرض الرسالة على ابي جعفر يقول له : أما تراني رضضت فيه نخوته ؟... امسى كالارنب المهدودة الحيل . تطمع في الجري ، وما تستطيع حبواً . وسامعن في ارهاقه ، فيبيت بين ايدينا أذل من حصاة . فاجيز له الحج تحت رايتك . على ان لا يظهر فينا في جند يعدو الخمسمئة . وعلى م يقوى

فيهم ،ونحن بالمرصاد ؟... فانت امير الحج ،وهو وعصبته قافلة في ركبك. ولن ازيده الا غضاضة وانا ادفعه الى هدفه مستظلًا لواءك !

فرضي ابو جعفر عن فلاح التنكيد . اضحى ابو مسلم ذرارة . ووافقه ابو العباس على ارتياد العراق ، فالحجاز . على ان هذا التقييد ، في عدد الجند ، لم يرق امير آل محمد . فسأل الخليفة في ان يصحبه الف من الكماة، معلناً برجاوة : اني قد وترت الناس ، ولست آمن على نفسي !

فصرخ ابو العباس بفيض البهجة ، وابو مسلم يتشفع اليه في امره : لويت شكيمته . أيسمع ابو جعفر ؟

واحسا بان عبئاً هوى عن اضالعهما . لانت العقدة المستعصية ، وغدا ابو مسلم لا يخيف ، ما دام يسترحم. قال ابو جعفر : ما بعد هذا الرضخ غير الذبح . ليقبل في الف ، وعليّ الامعان في شدخ جبروته !

وطلعت على مرو رسالة الخليفة ، تجيز للمتمني براح خراسان في الف مقاتل . ولكن ابا مسلم جلا عن قاعدته في ثمانية آلاف ، وزعهم في طريقه الى الكوفة . من نيسابور الى الري . واودع امواله وخزائنه مدينة الري، يصونها فيها من التلف . وبلغ الانبار في ألف رجل . وغمز به ابو العباس وابو جعفر ، وقد جاءهما انه على ابواب الكوفة . واعلن ابو العباس مزهواً : ادرك الآن اننا اخذنا نضيّق عليه مسالكه ، خافضين من عجبه. ولن يمضي في دلاله علينا ، وقد بات ذليل الناصية !

فما زال ابو جعفر على رأيه في البتر بلا تؤدة . لن يبسط العباسيون اجنحتهم بامان ، الا وقد نجوا من الظل الشنيع . فليضربوا النغل في كبده ، وليسلموا من غدره . على ان ابا العباس فزع الى سياسة تثبيط الهمة ، وكبح

الجماح . فهي ادعى الى صون السمعة ، واستبقاء الخليف . قال : سنفسح له في الحج ، يا ابا جعفر ، ثم نرى . حسبنا الآن ان نكون قصصنا من جناحيه ، وحطمنا من خطره !

وازجى قادته وجنده الى لقاء الامير الاهيب . العراق ومن فيها على حفيّ الايناس بالمقبل الاغرّ . وبالغ الخليفة في الاكرام . وتعانق الصفيّان ، وكلاهما يود لو نفذ الى باطن الآخر ، فتنجلي له دخلة صاحبه . ونادى ابو العباس بامير خراسان منقذاً . واستفاض في تعظيمه . وما رجا الا ان ينيم فيه الظنون . فلا يدهمه ارتياب بخلانه ، وما ينصبون له غير الاحابيل .

وسرّه ان يلمس فيه بعض الارتباك ، كأنه لا يؤمن بكل ما ينبض في عينيه من حفاوة . أيثق بهؤلاء الفارشين له الديباج ، ام يشكّ في صفاء سريرتهم ؟ ... ان ابا العباس ليبدي له من الملاطفة ، والاجلال الكميل ، ما لم يكن يرقب منه هباءة . فهل يسكن الى المظهر الفخم ، ويطمئن الى نقاوة الضمير ؟

وغاص في قاتم الهواجس . هؤلاء المستندون اليه في المحنة ينهدون الى التخلي عنه ، وقد لاينتهم النعمة . وفارت في نفسه البغضاء . فما يكرهه ابو جعفر وحسب ، بل ان الجميع له من الكارهين . ومصدر الانقلاب في المنازع ليس يجهله ابو مسلم . فالحقود الشانيء ، ابو جعفر ، اجاد نفث الضغن

وكظم ابو مسلم غيظه . ومن صواب الرأي ان يتجاهل ويتجلد . أفما يرجع الى خراسان ؟ ... ولكنه لن يرجع اليها وحده ، وستكون آمنة رفيقته الى المعقل النائي . أما وعده بها ابو العباس ؟ ... ومن حقه ان يطالب بالانجاز ، والا فاي قيمة لوعود تلقى جزافاً ؟

وبحث عن آمنة لدن انتهى الى الكوفة . اين ذات الرواء الخضل ، والبهجة السمحة ؟ ... انه ليعلم كونها تنتظر مجيئه بفرحة ، ونفاد صبر .

ودفع امين سره نيزك الى الاستيضاح . اين عمة الخليفة الصغرى ؟

وطامع في مرآها ، والليل مبسوط الرواق ، والظلام يحجب عن العين النور . فليس اشهى من العتمة لمن يوثقهم رباط الالفة . وهمس في اذنه نيزك ما شفى همه ، قائلاً : آمنة ستدلف ، بعد منتصف الليل ، اليك . فهي منك على شوق لجوج !

فنبض قلبه بشدة ، وابتهجت نفسه . ما يزال القلب الهائم مشدوداً بوثاق الولوع . واستوضح نيزك ، وهو نجيّه : هل وعدتك بان تأتي ؟ . . ألا كيف اتسع لك الى مرآها ؟

وشاقه ان يلمّ بالدقائق ، فلا تغيب عنه خافية . قال نيزك : سألت عن جاريتها حبابة الحبشية . وسرعان ما بدت لعيني . وهي في البحث عنا اوفى بها منا . قلت ، وقد عرّفتني بنفسها : « ألا اين سيدتك آمنة ؟ . . . أما تدري من نزل الكوفة ؟ » . قالت : « بابي انت وامي ، اني لاجوب هذه العرصات في التماس اثر منك ، او من صاحبك . أفما يعلم ان سعير المنازع على اضطرام ؟ ... مولاتي كلها صبوة الى لقاء من لا تزال ترقب اشراق نوره فينا ! » . قلت وبيانها ينشط بي الى الافضاء بكل ما كلفتني من شهوة : « ومولاي على مثل هذا الجنوح . فاوفدني الى الهمس ، في اذن مولاتك ، انه يرغب في لقاء ذات المودة التالدة ، العابثة بالفناء . فمتى تستطيب ان تجمعها بسيدي خلوة يتبادلان فيها احاديث الوجد ؟ » . فابانت ، وكأن جوابها يتحفز عفواً للانطلاق : « لدى نصف الليل . في هذه الفسحة ، عند

تلك الجذوع المتلاصقة من النخيل ! » . وادركت من قولتها انها على اتفاق وسيدتها . فعدت اليك وانا اردد في سمعها : لدى نصف الليل. عند الجذوع المتلاصقة من النخيل !

فكأنه سكب في مهجة ابي مسلم النشوة . ما تبرح لواعج الافتتان في اتقاد . قال امير آل محمد ، يرنّح عطفيه الطرب : بورك فيك ، يا نيزك . والله ، انك لذو وجه ميمون ، وما أجدك إلا ذلك الموفق في قضاء حاجاتي. رفعت عن عاتقي حملاً ارزح به ، وانت تيسر لي رؤية من تيّمتني . أرأيت هؤلاء القابضين على المقاليد ، المالئين دنياهم اعتداداً وزئيراً ؟ . . . انهم لكالخيال عندي . وما اكترث لهم في حلّ ولا حرم . وهيهات ان يثبتوا على صيحة واحدة مني . غير اني اداريهم لاجل هذه المالكة النهية . وفي سبيلها احتمل الضيم والتنكيد . وكل ما اشتهي ، من زمني ، ان يسعدني بالعقد لي عليها ، وانا سيد هذه الارجاء . فالخلافة لي وابنة الاكرمين في بيتي !

فلمس فيه نيزك جموح المطامع . وما كان يجهل ما يلتهب في امير آل محمد من رغبات سمان . فانه ليتوق الى السيادة ، بلا شريك . وليس لهؤلاء العباسيين ان يشمخوا عليه ، وبيده انتشلهم من المهواة . وما نيزك غير فارسي . فرضي عن هذا النزوع الى المرتبة السامقة ، في والي خراسان ، وسيحرر به الفرس من ربقة الاستعباد . قال يؤيده في بغيته : آمنة لك ، والخلافة لك . فانت ، منذ الساعة ، امير المؤمنين !

على ان دخول ابي العباس قطع عليهما ما يغوصان فيه من الاماني . وفي اثر ابي العباس بدا رهط من القادة ، ورجال الحاشية . وشاع في الوجوه المرح ، ترحيباً بابي مسلم . قال ابو العباس يبالغ في اكرام ضيفه : ما نحسّ

بسوى الغبطة وانت بيننا ، ايها الوفي الامين . لكأن مرآك يحيي الانس فينا . ألا اكثر من زيارتنا ، وكلنا يجد فيك الوجه العريق في النبل، واليد الصادقة في الذود . إن بهجة أيامنا لفي نزولك مثوانا !

فما كان ابو مسلم ليدري زَيْفَ القول من صحيحه . أيكايده ابو العباس ؟ . . . لقد اشتمّ فيه رائحة النافرة ، فكيف يلاينه ، حتى ليكاد يذوب لطفاً وتوقيراً ؟ ... وتجلى له ان نفوس القوم على ختل . ومال الى التشبه بهم في الكيد . سيزجي اليهم من بضاعتهم ،ويمكر بهم .قال يردّ على التدليس بمثله: ما كان لي الا ان اوفق بالاخلاص المصفّى، يا امير المؤمنين. فما يندّ عني اني في قوم يجدون في مثلي أخاً ناصراً ، وحساماً ملبياً .ووالله، ما انا فيكم غير نبتة تستمد عوارفكم. وليس لي إلا ان انهج نهج الحفاظ حيال بني أمي !

فاعلن ابو العباس، وما زال يبدي الجذل: ارتاح ابو جعفر الى مسيرك الى الحج في عام سيحج فيه . وسيتلاقى الركبان.وارجو ألا يزوغا عن حرز الوئام . وغبطتنا في استكمال الوحدة . وما اراكما لها من سوى الخلصان !

فسخر ابو مسلم في نفسه من هذا القول الكاشف عن دغله . ألا اين ابو جعفر كي يستشعر منه بالمودة النقية الدخلة ، وما ابصره في ركب الاحتفاء ؟ ... أتزول عن الحقود نفرته ، وهو لا يبرح على جهامة تباعد بينه وبين والي خراسان ؟ ... ولم يشأ ابو مسلم ان يتلفظ باسم ابي جعفر امتهاناً له . وهل يجهل كم تراكمت الاحن ، على الاحن ، بعد المشاكسة المستفحلة بينهما ؟ ... وابو مسلم هو الظافر . فقتل سليمان بن كثير ،تشفياً واستهانة بمكانة ولي العهد . ودعا الى البطش بابن هبيرة، ثلماً لمقام ابي جعفر،

وقد خلع على القائد الاموي الامان . وليس لمن تنزل به هذه الرضوض ان يصفو . فالسخائم تمور اذاً في الكبد الوارمة حنقاً

واكتفى امير آل محمد بان يبتسم ابتسامة لا لون لها . ان يكن في نية ابي جعفر ان يحج، فما ثمة من مانع. ولكن على مَ يدل هذا الاتفاق المشبوه في حجّ الرجلين معاً ؟ ... أما يعلن كون ولي العهد حسيباً على والي خراسان ، فيرصد حركاته في الحج ، لئلا ينهد الى الاقلاق ؟

واحتملها ابو مسلم . الا انه ابي ان ينام على مضضها . سيذيق ابا جعفر في حجه كل مذلة . فلا يتماسك عن تحقيره بمقدار ما يبيح له ذرعه ، حتى ليستخف به كل حليم . قال ابو العباس ، ولم يسمع من هذا النمر المخوف ايضاحاً عما يهيب به اليه من سماح :ألا يروقك ان يكون ابو جعفر شريكك في الحج ،يا ابا مسلم ؟ .. . والله ،ما تسكن نفسي الا وقد ابصرتكما حليفين حميمين !

وهتف بمن معه من القادة : نادوا لي ابا جعفر !

فاذاع والي خراسان معارضاً بوفر من دماثة : ولماذا تكليفه هذه المشقة ، يا امير المؤمنين ؟ ... أفما يدري أن له ، في امير آل محمد ، اخاً نصوحاً ، وعوناً موفوراً ؟.. . سنلتقي هناك ، في طريق الحج . وستغنينا المفاجأة عن اجتماع ممهد يخلو من لذة البغتة .دعه في بعده عني ، وليس اطيب من المشاهدة المرتجلة !

غير ان ابا العباس لم يشأ ان يبقيهما على خصام . فنزع بابي جعفر الى المثول ، على عجل ، في الايوان . فتململ المنصور . إنه ليدرك ما يميل باخيه الخليفة الى الالحاح في الدعوة . ولن يبدو في حضرة من صدمه مرتين،

يذلّ فيهما من سموه ، ويحط من مناعته . وهل له ان يصافح اليد الساعية لتحطيمه ؟

ولكن ابا العباس لجّ في المناداة . وليس لكلمة الخليفة ان تلقى الاعراض . فاطاع ابو جعفر مكرهاً ، مكدوداً . ودلف الى القصر على فتور همة ، ونفرة روح . وبدا مقطباً لكل من ابصره ، كأن في نفسه كربة لا تنجلي . ووضح امره لاخيه . انه لفي انكد ساعة من أيامه . بيد ان ابا العباس اجتهد في تبديد الجفوة المتلبدة في الاسارير . فانتشرت ابتسامته تملأ وجهه . ونهض لاخيه يرحب به باكبار . وهتف له بوافر الاكرام : ألا طال احتجابك عنا ، يا ابا جعفر . أدلالاً ، ام ملالاً ، يا ابن الميامين ؟... والله ، إن شوقي اليك ليحدوني ابداً على مجالستك . فهلا نزلت نادينا ، واحتفيت بمن تكرّموا فزارونا ، واشرقت بهم مجامعنا ؟

واشار الى ابي مسلم . فلم يلتفت ابو جعفر الى والي خراسان . وابو مسلم وقف مطرقاً ، جافياً . فانتفض ابو العباس ومشى الى اخيه يعانقه ، ويقبض على ساعده ، ويقوده الى امير آل محمد . فاجتهد المنصور في التفلّت من قبضة اخيه ، وهو يعلن بغيظ : ليعفني امير المؤمنين مما يحمّلني . فالكواهل ترزح بما لا تطيق !

فما انفك ابو العباس يجرّه الى ابي مسلم ، قائلاً بدفق من أُنس : نحن ابناء اسرة واحدة ، يا ابا جعفر . وليس للحقد ان يتسلط علينا . ألا اغسل كبدك من ادرانها ، وصافح من لا نقوى على فصله عنا ، وهو في اللباب منا . ان هذه الايدي المتضافرة على الخير ، لا تتنكر ، مهما تصلبت في الجفاء ، لكل من عاونها على اداء رسالتها . وابو مسلم في نظيرة الاعوان

الاوفياء . بل هو المدبر ، ونحن السائرون في جادة رسمتها يمينه ، وشقتها ضلاعته . واني لاعرفك اسمى من الغل ، ايها المنصور !

وضغط ذراعه يميل به الى المسالمة . وهل يجهل ما تقدر عليه الساعة من نبذ ضغن ، وافترار مبسم ؟... فالخدعة لا تبلغ مبلغها الشافي ، من المتطاول على العزة ، الا وقد توسد المخمل ، وافترش الديباج . فليخفف ابو جعفر من حرده ، وليكن ذلك اللين القاسي . فيبدي الفرحة حتى والمدية ترتوي بدمه

غير ان المنصور لم يستطع تسكين فائره . وجمد ابو مسلم مكانه بوجه السيد المطمئن الى صولته . فان له من حسامه ما يفلق به ذريعاً هذه الهامات المغالية في الكيد . واضطر ابو جعفر الى التخفيض من حنقه . ووقف من ابي مسلم وقفة القرم الجريح الانفة ، وقال وهو يبسط له يده : غفر لك الله ما خلعت به من باذخ وكدي ، ايها المتباهي بمضاء نصلته . اننا لنقر لك على سامي شأوك ، بيد انك افرطت في العبث بنا . ونحن قوم ننتصف لحميتنا !

فصاح ابو العباس يزيل من عنف القولة ، لئلا يبدد شائكها الجهد المبذول في نسج الاحبولة : ما يقدم ابو مسلم على سوى الجميل النبيل . وانك لتذهب في الوهم بعيداً وانت ترميه بالافتئات بحقنا . فأمسك عن تهمة لا تجد لها فيه موضعاً ، واكرم في الشجاع بطولته ، وفي الوفي حفاظه . لقد كان لنا من اصدق الخلصان ، ولمّا يزل !

فارتاح ابو مسلم الى هذا الاطراء الخلوب يرسله فيه الخليفة ، وقال ببسمة تشف عن وارف الشكر : اني لمن ابناء هذا البيت العالي المناف ، فكيف لا اقف على اعلائه وسعي ، وفي اكنافه اشتد ساعدي ، واكتنز لحمي ؟... والله ، اني للعاق إن اجحد بيت ابي . فما لمسعى اقدم عليه الا

ونصب عيني اعلاء مجد قومي !

فاذاع ابو العباس ، وهو يحدق الى ابي جعفر بعين تقدر عليه الصمت :
وهل من يدحض هذه المنة ؟ .. . لا ، وابيك . فما فينا غير المعتز بك ، المعجب بضلاعتك . وان رغبة تبدي لهي رغبتنا جميعاً ، ورأياً تقطع لهو رأي العرب والعجم على السواء . ابو جعفر اخوك ، وانت من اكرمنا نجاراً . فمرحباً بك فينا !

وسايره . ومال به الى الاطمئنان. فما ينزل غير ديار تفتخر به ،وتوقن بصدقه . وزاد ابو العباس فقال : وغداً تعرض الجند ، وتختار منهم من ترى ان يصحبك الى الحج !

فاعلن بلهجة تطفح بالشكران : ولكني في جندي . وهم ألف كميّ ، بين فارس وراجل . وكلهم من صفوة القوم في خراسان . وامير المؤمنين ، حفظه الله ، يأبى ان اسير في عدد اوفر !

وابتسم ابتسامة ترشح بالغمز والوخز . فضحك ابو العباس تمويهاً ، وقال : لك ان تسير في عشرة آلاف ، وليس من يصدّك . وما اردنا في التحديد سوى بريء الدعابة ، فحسبتها جداً . ألا خذ غداً لركبك ، وانت تعرض الجيش ، كل خراساني . ولا على موكبك وقد تضخم . فان للابهة في فارس بليغ الافصاح !

ووكل اليه امر عرض الجيش تناهياً في تبجيله . فمن الشرف للجند العباسي ان يقف فيه ابو مسلم وقفة الراصد الآمر . وشاق والي خراسان ان يختار اتباعه ، وان يضمهم الى من يواكبونه في حجه . غير انه رقب ان يخلو بنفسه تأهباً للقاء آمنة . سئم هذه الوجوه الرجراجة لفرط مرآها ،

وما فيها ، كما شخص له ، غير ختل وشر . وما الانبساط المنشور عليها الا مظهر كاذب . ونهض ابو العباس وقد شاقه ان يكون وفق بين المتنافرين ابداً . وصافح ابا مسلم ، وتلاه ابو جعفر ، فالامراء العباسيون ، فالقادة

ودنا الخليفة من اخيه المنصور يهمس في اذنه : اراه هوى في المصيدة . فما ان يصطفي الخراسانيين ، دون سواهم ، حتى تقوم عليه قيامة الجند ، وقد آثر بعضهم على بعض !

وابتسما ابتسامة الراضي عن الشرك . سيعزلان المتنفخ عن جميع المعجبين به ، ليسلس لهما العنان في كل بقعة من دنيا العرب . وهمهم ابو جعفر : لا يدفع عنا ضيره غير البطش به !

وهو رأيه الصارخ . ابو مسلم خطر على العباسيين ، وقد رسخ في يقينه انه كتب لهم الوثوب الى المعالي ، وما كانوا ليدركوا العزة لولاه . على ان ابا العباس فاتته الجرأة . أيقوى على ابي مسلم ، وفي الرجـــل شبوات وانياب ؟... ونهد الى تنويم غلواء اخيه الحاقد ، فقال : لا بأس عليه وقد حجّ ، ثم ننكل به . كل ما نهدف اليه الآن تدويخه . وبعد التدويخ ، الذبح بلا رعشة تنتاب ايدينا !

فاوجع التردد ابا جعفر . ابو العباس يخشى خطر الخراساني . وهل من يتعرض لامير المؤمنين في رغبة طاب له انجازهـــا ؟... وزفر المنصور . ولقيت زفرته لدى اخيه بسمة ترطب من جفافها . قال السفاح : ليس للحاجة ان تعصف باوتارك ، والا ورطتنا في ما يعقبه الندم . أما تستلذ رؤية دمه يسيل ؟... فعلى هونك ، والغد كافيك الشجن !

وابو مسلم جلا لصفيّه نيزك ما اهتدى اليه في الخليفة وولي العهد من

مصانعة . قال : مبالغة ابي العباس ، في المؤانسة ، لا تهيب بي الى الركون اليها ، يا نيزك . وغلاظة ابي جعفر توضح لي نتن الدخلة . والله ،ما يحومان على سوى دمي . على اني لمتقيهما بمهندي . خاب السقيان وانتكسا !

ووقف في مقره ،في قصر الخليفة ،وقفة الاطراق .ماينشر عليه السكينة غير آمنة . فهي من اشترى منه ارواح العباسيين بما يتأجج فيه من صبوة . ولولاها لباتوا ، بمضاء حسامه ، اكباشاً نحرتها مدية الجزار . قال يخاطب نيزك : هل لمست المكر البليل ؟ . . . اجادوا زخرفته كي استأنس به . ولكني لن اذهب ضحيته . ليمعنوا في تزويقه، واني لصابر على روغانهم حتى اجتذب آمنة من براثنهم . وبعد ذاك يحلو الشدخ والاذلال . ولكن اين هذه القائمة فيهم بمقام الف ؟ ... اني لارصدها !

وضاق به الانتظار . أليس للنهار ختام ؟ ... قال نيزك يهوّن عليه : ما اراها بعيدة عنك . فالشمس في الغروب . والظلمة على وشك الاندلاع . فاذا ما تعشيت ، وسهرت ، طلع عليك ، من قميص الليل الاسفع ، الوجه الوسيم الموموق !

ومال به الى الطواف في حدائق القصر الصيّاحة البواسق ، الفوّارة الاكباد ، والاشجار والمياه على دفق فيها ، كأنها عالم فسيح من واحات متشابكة ، متسلسلة ، لا آخر لها . وفي كل ممشى من مماشيها صفان من النخيل . وبعد النخيل رحاب من لوز ورمان . وعلى الجدران تتعرش الدالية والياسمينة . والاحواض كالبحيرات ،بعيدة الجنبات ،بين مستديرة ومستطيلة . وحجارتها من الرخام ، او المرمر ، وقد عام فيها البط والاوزّ ، وسبحت في مياهها الاسماك الملوّنة

ونبتت الرياحين حول الاحواض متألقة التيجان ، ميّاسة القدود ، كأنها موكب من غادات في عرس مخمور. وعلا دق عود، وصوت رخيم، وهتاف نشوان ، وتصفيق ، وقهقهة . فالتفت ابو مسلم الى امين سره نيزك يعالنه بقولة المبهوت ، المغتبط : إيه ، ماذا تسمع ؟

ونيزك راقه ما يهيم في اذنيه من رنات ، وقهقهات . فقال طروباً : والله ، هي الجنة !

فقال ابو مسلم مؤيداً : وان هي الا كذلك . لنسترق السمع والنظر ! واقتربا من سياج من القصب ، تعلو وراءه الاغاريد والهتفات . ولاح لاعينهما ما ادركتهما به الفتنة الساهية . فوقفا مشدوهين ، مذهولين ، وقد راعتهما المباغتة . فابصرا ، وراء السياج المترنّح ، كوناً رحيباً من حسن ، ورشاقة ، ونداوة . فعقدت حفنة ، من ذوات الصباحة في التصر ، حلقة من أنس، احتشدت فيها النضارة الرخصة الاماليد، والسحر الجهير الاعراق، واخذن في الغناء الماتع ، وفي الرقص الوثاب ، لا يحترسن من رقيب ، ولا يرهبن مفاجأة ، وهن الموقنات بكونهن في حرز حميّ

وبدت فيهن آمنة ، ذات القسامة الريّا ، كأنها خميــلة من درّ . فضحكت ، وغنت ، وصفقت . وما كانت الحلقة لتتسع لها لفرط بهجتها . فسال قلب ابي مسلم حنيناً ، وهو المسبوك من حجر . عجباً للحجر يسيل ! والحب بركان ، واي بركان . فالجامد الغليظ يمسي به موّاراً . فتذوب تحت وقعه الصخرة قطراً سكوباً ، كأنه عصا موسى ، ينبجس به الجماد سيلاً دفاقاً ، كالنمير السلسال

٨

في غمضة العيون النواعس ، وظلمة الليل الكثيفة الغلالة ، أظلّت جذوع النخيل المتلاصقة ، بجانب قصر الكوفة ، اشباحاً اربعة ، ما تتكلم الا همساً ، وما تدرج الا حذراً ، مع انتشار الحلكة ، وخلو الناحية من الارصاد . فالجميع ناموا ، حتى الحراس والعسس . ولم يبقَ ساهراً غير المولّه الشجي ، المكتوي المهجة بميسم الحب اللاعج ، وما يؤرق الجفن كالشوق اللهبان

والهمس شفّ عن استيضاح يبالغ في الوقاية : من ؟ ... آمنة ؟

فوثبت نأمة تهمهم : اني لهي !

فماج المستوضح فرحة . وهاجه الوجد ، فانتفض صدره ، كأنه بحر يتلاطم . واقترب من هذه المعلنة نفسها ، بوشوشة تتأجج شوقاً ، يقول : هل جئت ؟ ... ما كان لي ان ارتاب بموعد ضربتِ . يشجيني ان اراكِ ، بعد غيبة طال فيها الاجل . ألا كيف حالكِ ، وقد فصلت بيننا شواسع الآماد ؟

ولامست يده يدها ، وتجرأ فقبض على ذراعها فماع ، مع كل ما يتقد فيه من شدة . وتجلى في كلماته الالتياع . فهو يتفجع على معاندة الاماني في النوال . وآمنة ناحت على انقضاء الايام على جهامة ونشافة . كم امتد زمن الفراق . قالت وفي حنجرتها غصة ، وفي قلبها من الامل رفيق غلالة : لست اشتهي للعقرب ان تنزل بها بليتي . فما من ليلة الا اغمضت فيها عيني على رمد .

وتسألني أترابي عن السهوم العابث بمهجتي ، فأنبي . وهل للنفي ان يكون عن امري جواباً ؟

وعضت شفتها السفلى . وهزت رأسها ، والالم يكوي صميمها . واذا لم يبصر ابو مسلم ، في الدجى ، ما يعروها من لذعة ، فقد دله صوتها ، وزفيرها ، على متوقد أساها . قال يبدي من الكمد ما يتكافأ وجواها : اذن كلانا على وحدة في السقم . لكأننا نكرع في كأس واحدة ، وقد تعادلنا صبابة ، ورزيئةً بالصبابة . على اني جئت كي انصفك مني ، وانتصف من زمني . فما وطئت العراق الا لاستنجز اخاك وعده . واريد ان يجيبني الى الرغبة . فليس للاخلاف ان يهب له العيش الرخيّ !

وجذبها اليه بقوة افلت منها الهدى . فهو في لظى من حنين الى ذات الكف النصيع . والقت الى صدره رأسها ، وما كانت دونه وجداً . وتكلمت الاشواق ، فكانت تعتعة ونشوة . على ان العفة ما شكت الكبوة ولا الهوان . فالهوى الوسيم اتقى الانغماس في القباحة . وانطلقت هتفات ، كأنها صخب الاوتار بعد هينمة النغم . هتفات حافلة بنداء المنازع . وما لحبيبين ، ترامى بهما الامد ، ان يكتما ما ينبعث من الصدرين من حوابس الشجن . فلقد رفعت آمنة يديها تدفع بهما عنها ابا مسلم ، مدمدمة عليه : ألا ابتعد . ابتعد ودعني . هل جئت الى النار تسألها في نفسك كي تنقع بها ظمأك ؟... انت ضالٌ مخدوع . ما اقسموا على سوى قتلك ، وقد رابهم طماحك . من ازجاك الى الكوفة ما رام غير القضاء عليك . سمعتُ ما تشاوروا به فيك . فما يطيب لهم الا ان يبصروك في جوف الرمس . انطلق ودعني . انهم ليبيّتون لك الويل . ناضلت عنك شديداً من اذاهم ، فاصروا على بترك . فاسلم بنفسك ،

وانا كفيلة بنفسي ، ولن يتجرأوا عليّ !

فاصغى اليها باذن سامعة . وما ارتعد . الا انه عبس . هذا السعي لحذفه ليس ابن يوم وليلة ، وعنده منه خبر . فالعباسيون ، وقد سادوا ، ابوا ان يمتنّ عليهم بالسؤدد وجهٌ غريب . فعزموا على استئصال ذوي القدرة ممن نبا عنهم الطابع العباسي الاصيل . وابو مسلم صفوة المغاوير الغرباء عن الدوحة العباسية ، فاني يبقى ، وله من فسيح المطامع ما يتلع عالماً ، لا دولة وحسب ؟

ووضحت المكيدة النكراء لسليل بزرجمهر . رأسه يترجح على رهيف الشفار . ولكنه لن يتدحرج ، وسيصونه بجنّه . أيغتاله من يبسط عليهم ظله ، وليس لهم ان يثبتوا في الاريكة دونه ؟ ... انهم ليهزلون . بيد انه لم ينشط لنياتهم . ان يكن جزاؤه منهم القتل ، بعد ذلك الفيض من البذل ، فبئس الجائزة الكفور . وامسك بمعصم آمنة ، وضحك ضحكة سقطت رناتها العابثة في مسمع ابنة علي ، واذاع بتمادي السخر : أأفرّ منهم ، يا آمنة ؟ ... والى اين ؟ ... لا ، وحقك ، لن اجلو عن مكاني . هذا النقيق تعوّدته فيهم ، وما يبرحون ضفادع في حوض . وهل كان لهم ان يخوضوا الكريهة لولا ان اقتحم ساحها ؟ ... اطفأتُ جذوتها ، وما انفكوا يتقونها . وما اطمأنوا الى وسائدهم الا وقد نشرت عليهم ظلال هذا الحسام . وإني لمقلقلهم عنها الساعة ، اذا شئت . وماذا يخيفك منهم ، وهم في السكاة الذنابى ؟ . . . أيروقك ان ألوي فيهم الشكيمة ، وان تبصري ظهورهم ، وقد شمّروا للفرار ؟ ... زعقة مني تذروهم غباراً . انك لتمزحين وانت تهيبين بي الى اتقاء صولتهم . لا ، سابقى !

فعادت الى هتفتها الحشيانة : بل ابتعد، ابتعد. اخاف عليك من غدرهم. فاذا اعجزتهم عنك القوة، فان لهم من مكرهم ما يبدد فيك الانفاس. انا ادرى منك بهم. فلا تبقَ في الكوفة، وارجع الى خراسان!

فاعلن بعزم ركين : لن ارجع اليها الا ويدي بيدك. فاذا لم يبرّ ابو العباس، ابن اخيك، في وعده، فاني لناقض عهدي له. فاخطفك، واطير بك الى مقري في مرو، او نيسابور. وللعباسيين، على بكرة ابيهم، ان يجروا في اثري، وذئاب فارس تشحذ انيابها لنهش لحومهم، فيما انثر جماجمهم للوحش والطير. اني لارصد الانجاز. فاذا عدل عنه ابو العباس، فلا يرقب مني الا العدول عن ذمتي. نكثٌ بنكث. والعتب على البادىء. وللمقدام ان ينازلني. فمتى عرفتني احترس من البعوض؟

فارتجفت. أيدكّ صرحاً بناه؟... قالت، وما تزال تخاف عليه: ولكنك في حماهم. وما ارتضوا ان تبدو فيهم في ما يزيد على الف رجل. وهل غابت عنك طويتهم، وهم يفرضون عليك هذا الحد؟... أُعيذك من الاستنامة الى اخاديعهم، وما تطيب دخلتهم لكل من ينافسهم في المجد!

فمال فيها على مكمن العاطفة مستوضحاً: وهل يطيب لك بعادي، وما تزالين، منذ سنوات خمس، ترتجين ان اظهر لك كي ندرك المنى؟

فاعلنت بقوة في البيان: اني لأوثر ان ابقى طول ايامي في حرمان، على ان تصاب بلكزة. أترى الحياة تلذّ لي، وانت في كمدة؟... لا، فدتك روحي، الموت اطيب مذاقاً من رؤيتك في ضيق. والقوم يأتمرون بك. ويشجيني ان يعرضوا عنك، وانت المنقذ من الكربة. ولكنه حقد ابي جعفر المنصور، وليس له مدى. فحشاهم غلاً كي يبطشوا بك. وفي

ظني انهم فاعلون . ولن ترجح في عرفهم ابا سلمة الخلال !

فاثارت في نفسه حفلاً من هواجس، ما كان ليكترث لها وهو الشجاع. الا ان تكرار اعلانها جنح به الى الاطراق . أيظـــل ابو جعفر يتأثره بنقمته ؟ ... أما تسكن هذه السخيمة المحتدمة في ابن البربرية ، كأنها اغنية الابد ؟ ... وعاد الى اساءة الظن بالعباسيين ، وقد تعمدوا تحديد ركبه الى العراق فالحجاز . لماذا الاكتفاء بالف رجل ؟ . . . هل يريد القوم نسفه ، او انهم يخشون اتساع شأنه ، فيقلق فيهم الامان ، وقد اطلّ عليهم في جيش رحب ؟

ولام نفسه في ابي سلمة . هو الداعي الى قتـله . استشاره في امره ابو العباس ، فكتب اليه يقول : « لا ترحم فيه سنه ! » . فهال ابا العباس ان يفتك بقطب فارسي . ونصحه عمه داود بدعوة ابي مسلم الى القضاء بنصلته على ابي سلمة ، فيودي فارسي بفارسي ، وتتقى فائرة الجماعة. فما احجم امير آل محمد عن التنكيل بوزير آل محمد ، وقد دفع اليه من خراسان من يطيحه . واستراح من شره العرب . وخسر به الفرس سيداً ذا حزم ورأي . وهال ابا مسلم ان يلقى الويل نفسه . فينقرض قادة فارس ، ويبيت العرب بنجوة من اولئك المستيقظين ، الناشطين في استعادة المسلوب

على ان ابا مسلم توسم الخير في عرض الجند غداً، وسيخرج من الصفوف كل من ليس خراسانياً . والخراسانيون له . وسيستظهر بهم على مناوئيه . قال يجاهر آمنة باعتداد المؤمن بمؤاتاة زمنه: ما احسبني،في اصحابنا العباسيين، ابا سلمة ، يا آمنة . ابو سلمة نزع الى مبايعة العلويين بالخلافة ، وانا ما اردتها لسوى عباسي . أفما لهذه المواءمة حساب ؟

فهزت برأسها تنفي عن بني قومها التفاتهم الى موالاته ، وقالت : انهم ليخشون انقلابك عليهم واستئثارك بالامر . وكيف يقيمون لمناصرتك اياهم وزناً ، وانت في زعمهم انكد عليهم من ابي سلمة ؟ ... ما اخرجوك من وكرك فرداً الا ليهون عليهم هدمك . فاين حجاك ، وقاك الله الضلة ؟ ... هل لمثلك ان يغترّ بالمقال المعسول ؟ . . . مكيدتهم واضحة الخطوط ، فصنْ منها نفسك . انا منهم وفيهم . فأسمع ، وأعي. وما استطيع الا ان اطلعك على ما يدسون عليك . لا تركن الى بيانهم الخلوب !

فاقلقته وهتف بها : اذا شئتِ ان ارحل ، فكوني رفيقتي في الابتعاد عن اجحار الثعابين . فنفرّ معاً . ونعيش معاً . وندين الموبوئين . ونقبض على الناصية . فلا يبقى في البسيطة سوانا !

ورسم لها طريقه . فالامامة بغيته. وهل له ان يقف دون من جاد عليهم بالسعد والسلطان ؟... قالت : أما ان نفرّ ، فهو ما لست استجيزه . وانت مطلع على رأيي فيه . فلا تلتمس ما يعدو الوسع . وجلّ ما عليك ان تستنجز الخليفة الوعد . فاذا حقق الشهوة ، ومن الصعب تحقيقها وابو جعفر يطاولها، فانك لتجدني لدن تطلبني . والا بقيت فيهم انقل اليك ما يتواطأون به عليك . وسأناضل عنك بحياتي ، وهي لك . فإن يظهر لي منهم انهم يضمرون لك الشر ، ذدت عنك بمهجتي ، لا ابالي الموت . واني لاشتهيه ان يكن يدرأ عنك العوادي السود !

واجتهدت في ان تخفي رأسها في صدره ، كأنها تحتمي به من خطر يتهددها . وما تمالك ، مع صادق عفته حيال النساء ، عن تقبيلها في رأسها . واضطرمت فيه منازعه ، فهوى فمه على الشفتين الرخصتين ، الحافلتين بالاغراء .

فلم تعترض على لواعج الشوق ، وهي تصبو الى هذه القبلة الماتعة ، المندلعة هياماً . فما ينفك ابو مسلم يستميت في مودتها . قال يكبر فيها صدق الحنين: راعتني بطولتك في الفداء . على اني ما اريدك ضحية ، بل حبيبة دانية القطوف ، لا أعاني فيها مضض الحرمان . وما ارى ابا العباس يقطع كلفي بك ، وهو المعاهد على شفاء قلبين والهين من حرقة الفراق . ساحدثه غداً بالوعد المعلن ، وما يلوح لي منه غير الوفاء . والا فلا بقاء للدولة الناشئة . صدّقيني . ان سيفاً جلا عنها الستار ، سيعيدها ذليلة الى بطن التراب !

وتكلم كجبار هادم ، لا كحبيب لين المجسّ . فالاستخفاف به ، اذا استمر ، شديد الوبال على العباسيين ، وسيكلفهم ما تنوء به العواتق . فالعز فيهم لن يرجح كونه برقاً خاطفاً . ما ان يضيء ، حتى يحلولك ، شأن قصار الاعمار

قالت آمنة تطلع عليه بالراهن السافر : كان ابو العباس ذلك الوفيّ النصيح ، اما الآن فقد اعتلّ وداده . غلبك فيه ابو جعفر ، وانت الثاوي بخراسان . فالغائب ، لا يملك في اقرار مشيئته ، اسلوب الحاضر ليل نهار !

فنبر : وهل لهما ان يقهرا شأوي ، وان يتقدماني في الوثبة ؟ ... كفرا بالحق إن يؤمنا بكوننا نستوي في الضلاعة . ما يزالان عني في التقهقر النائي. واني لاعدوهما مضاء ، وأصالة رأي ، ووفرة اعوان . فاذا ما تصادمنا ، فلن يجدا حولهما غير المستضعف ، الجبان !

وهز برأسه ، وانقطع عن الكلام يأبى ان يتحدث عن نفسه . وشاعت بسمة ساخرة في شفتيه . فقالت آمنة ، وقد تبين لها فيه مدى اعتزازه : لا اريدكم على صدام . فاجتهد في الحؤول دون المناكرة ، ودعني لضؤولة

حظي !

وسمعها تبكي . فاعلن بخشونة صوت ، وهو يحس بها ترتعش ألما لفرط اليأس : لن ارجع الى خراسان الا وانت بجانبي . والا فالويـــل لهؤلاء الراتعين في العلياء ، متوكئين على رهيف سناني . لا تبكي . فهم الباكون اذا ما فجعونا بالرغد !

وتمتم بنفاد صبر : موعدنا صباح غد . فإما ان ابلغ الامنية على جمام، وإما أن اقوّض ما شيدت من وطيد الركن !

وامسك عن الاصغاء الى ما يجاوز هذه الرغبة. وازدرى المكايد، وليست تخفض من بأسه . ان يكن ابو جعفر ناراً ، فهو صاعقة . وسيذيق المنتفخ، من هول النقمة ،ما يرضّ به الشامخ من جماحه . وتراجع عن آمنة ، وقد صافحها بيد ملتهبة نزوعاً ، فيما يضرب لها الموعد . قال وهو يهمّ بالرحيل : سيخاطب نيزك جاريتك حبابة في ما سوف ننتهي اليه .فالى اللقاء ، يا ذات النور والنار !

وحجبته عنها الدياجير . ووقفت تنصت لوقع قدميه . وما ان تلاشى كل حس ، حتى غارت في النواح . ان في ما تحدثها به ظنونها لكربة لا نجوة من فوادحها . ولم تكن تؤمن بان ابا مسلم سيتقي لؤم الوعيد الهاصر . فالمنايا تطاوله . وهو عنها كليل ، بل غافل . وتراءى لها ان مصرعه مرهون بحجه . سيقتله ابو جعفر لدن تضمهما فيافي الحجاز . وهفت اليها حبابة الحبشية ، مكلومة اللب ، تصيح : مولاتي ، ما يحملك على النوحة ؟ . . أما سمعته يعبث بالمكاره ، كأنها غبار في نعليه ؟ . . . فما للتشاؤم يعروك ، وما أراك الا سيّالة الشؤون ؟

قالت تستجير من حبابة بها : لا ترفعي الصوت ، ايتها الحبشية ، وإلا فضحتني . رفقاً بمولاتك الشقية ، وحسبها ما تكابد من تباريح !

وهانت في ألفاظها المسترحمة ، المصدوعة . ما تراءى لها أنها ستلقى من دهرها هذه اللواذع . فيحفزها الى الشغف بمن تتجرع في حبه مرارة التنكيد. وليس لها ، وقد احبت، ان تنكص عن هوى اوثقها به الحفاظ . فانها لمشدودة اليه بعهود تزري بصليب القيود .واذا ماحاولت الافلات من وثاقها ، احست بانها دون العبء . ونهضت تجلو عن ظلال جذوع النخيل المتلاصقة . وتبعتها جاريتها ، وكأنهما تسيران في جنازة . أيموت شوق آمنة بموت من تهوى ؟

وارتاعت حيال الخاطر الداهر ، الطاغي عليها . فما بها لا تلتفت من زمنها الى سوى الدواهي؟...وكان لها من الصبح، السافر الوجنة ،تحية المشفق على المكتوي بالارق الاسيان . فانتقع لونها ، واحمرّت عيناها ، وقد انسكبتا نبعتين غدقتين ، تستعصيان على الجفاف

واغمضتها للبكور .ورقدت ،وكأنها في غيبوبة ،لا في هجعة .فالوجع اثقل رأسها ، واطبق اهدابها ، كأنها تقاسي وطأة كابوس . انها لعنوان الترحة الزاخرة بالالتياع المرير

وابو مسلم جفاه الرقاد ، ولكن الى حين . وغاظه ان ينشب الجفاء في الاخوان اظافيره ، وان تأخذ الحزمة في الانتثار، بعد مكين الالفة .وغمز بابي جعفر على مسمع من نيزك . وتوعد . اذا تماسك الخليفة عن البر في وعده ، فلا يرصد غير الاضمحلال

وطلع الصباح ، فنهض امير آل محمد يسبح الله ، ويحفز نيزك ، امين

سره ، الى الاهبة ، وسيدعوهما اليه ابو العباس . وتهادى حاجب الخليفة الى والي خراسان يتضاءل ازاءه ، حتى يكاد يقبل الارض ، ويقول : روحي فدى مولاي . اميرالمؤمنين يفسح له في ايوانه . فليتلطف بالتلبية !

فاعلن ابو مسلم بعنجهية ما كانت لتجلو عنه ، حتى في ساعات أنسه وتعسه : إنّا لمبنّون !

ومال بالحاجب الى اليقين بكونه في حضرة من يعادل الخليفة سمواً وجلالاً . ومشى الى ابي العباس في اكمل زينة . يرخي على كتفيه عباءة بيضاء من حرير ، مطرزة بخيوط من ذهب . ويشدّ رأسه عقال ابيض ، مجدول بالنضار ، كأنه اكليل الظفر ، ضفرته الامة لبطلها الاروع . وبدا من تحت العباءة مقبض سيفه ، وهو من خالص الذهب . وتهادى في خطو يندى بالوقار . انه ليدرك حظوته ، ولن يهوي عن عليائها ، وقد بنى دولة ، وأملى على التأريخ

وسعى اليه ابو العباس ، لدن رآه ، يعانقه بوفر من اكرام . ووقف له ، على تجلة ، جميع من في الايوان . انه لبطل الساعة النابه ، المرموق . وخاطبه ابو العباس بقوله : ما عرفت الكوفة يوماً اغرّ الطلعة كيوم نزولك مغانيها . فانها لتبتهج بمن باتت كلمته امراً ، وطعنته قضاء !

فتبسم ابو مسلم . وما تمالك ان ساءل نفسه عن هذه المظاهر المبطنّة بالمواربة . أيخشاه القوم ، حتى ما تملكهم جرأة البيان ، فيحرقوا بين يديه البخور ، ليخفوا رائحة النتن الفاشي بين الضلوع ؟ . . . ألا فليصارحوه بدخائلهم ، وليسوقوه الى رمسه غير مبالين . فما للرهبة تمسك بهم عن الفتكة ، كأنهم الجبناء ؟ . . . واجاب ، وعينه تسدد الى الخليفة وميضاً من تهكم :

هذا السخاء عليّ بالالقاب يطغى على منزلتي ، يا امير المؤمنين . فما ازال منكم عوداً رخصاً ، في دوحة باسقة . وكل ما اجهد فيه جهدي ، ينكسف ازاء حسن صنيعكم اليّ !

وما خفيت الوخزة على ابي العباس . كلاهما يداهن . قال يردّ الثناء المصنوع بمثله : ولكنك تخطيت كل مكرمة ، ايها الامير . فما في دنيانا لك عديل ، وقد شأوت كل صنديد !

وأيد السامعون قولة امير المؤمنين ، معلنين من حناجر عراض : صدق خليفة الرسول !

فقال ابو العباس ، والمجاملة ترين على كلماته بدماثة حلوة الرنين : الامة جمعاء على اكبار المآثرك ، فكيف تريدنا على الجحود ؟ . . . نحن قوم ما قهرنا الظلم ، لولا ان تحطم يمناك فينا دعائمه !

فهاج القصر بهتاف : الله اكبر !

واشار الخليفة الى فناء الصرح معلناً : وها هوذا الجند يرقبك كي تعرضه . ولن يتفق له ،في كل حين ،ان ينعم بهذا الشرف الباذخ. فما في كل يوم يبدو فينا والي خراسان !

وازجاه الى عرض الجند المالىء الساحة . فانحدر ابو مسلم الى الرحبة الزاخرة بذوي السيوف ، وحملة البنود . وما أطلّ في موكبه حتى تطايرت النصال من اغمادها في تحيته . فابتسم ، وما زايله الوقار المبطن بالقسوة . ومشى في الصفوف المتراصة ،من هؤلاء المتمرسين بالقتال ،يهتف بهم : ليخرج منكم من ليس خراسانياً !

فاهتزّ سوادهم الاعظم وقطب نفرة . أيقصيهم عنه ، وقد جاؤوا

يكرمونه ؟... ويرحوا الصفوف على نقمة . أهذا هو ابو مسلم ، رجل الثورة ؟... خاب ظنهم به ، وقد حسبوه اسمى خلقاً . فليس من شيمة الحر اذلال المعجبين به . وتجلى له فيهم العبوس والحرد ، فما بالى امرهم . يكفيه اهل خراسان . ولكن نيزك ، امين سره ، وقد تكشفت له خفايا الدسيسة ، جنح اليه هامساً : أتبعد عنك كل من ليس خراسانياً ، وانت من اصبهان ، لا من خراسان ؟... ألا احترس من ذوي الكيد . انهم ليسجّرون تنوراً حامياً لاحراقك !

فانجلت عن بصيرته الغشاوة ، ووضح له الفخ المنصوب ، وكادت تقضقض فيه عظامه . ابو العباس اضحى من الشانئين ، وقد اوغر صدره ابو جعفر . وتراجع امير آل محمد خطوة لرأب ما صدع ، صائحاً بالجند المنفصل عن الصفوف : عودوا الى اعطانكم . كلكم عندي ابناء أمة واحدة !

وابتسم لهم مستعتباً . وحيا الاعلام المنشورة . وتقهقر الى الصرح بحنق المهزوم وحقده . ليدحرجن هؤلاء الرابعين بسنام العز ، وما ارتقوا اليه ، في عرف ابي مسلم ، الا بطلاً وزوراً . وعزم على الاشتفاء منهم بلا ونية . فما عليه اذا مكّن لسيفه من صدر ابي العباس ، ونادى بنفسه خليفة ، وتزوج آمنة سليلة الرهط الاثير ؟... بيد انه خشي ألا يؤيده المسلمون وهو يركب الخلافة ، وما ينتمي الى عترة الرسول ، حتى انه ليس عربياً . واضاء في ذهنه الخاطر الحافل بالاغراء : هل كان الامويون من عترة النبي ؟

الا انه ، وهو الملمّ بتاريخ العرب وادبهم ، ما لبث ان اجاب عن نفسه بنفسه ، فقال : الامويون عرب اقحاح ، سادوا قريش زمناً . وصاهرهم الرسول . وقام منهم في الخلافة عثمان بن عفان ، قبل ان ينتهي امرها الى

علي بن ابي طالب. ثم عادوا فاستردوها من علي . ولقد سلخوها منه بالحيلة. ولكن بعد ما كان لهم فيها قدم . واين مثلي منهم ؟ ... انا ابن سليط . بيد اني ابنه على كاذب دعوى . فما نشأت في سوى الفرس . والعرب قتلة أبي . ونحن من ذراري بزرجمهر . واني للسقط ان لم انتقم لعثمان بن سدوس بن جردزده ممن فتكوا به . على اني لن انتقم له الا وقد تزوجت آمنة . فهي همزة الوصل بيني وبين العليـــاء . فيوثقني نسبها باشرف بيت في العرب ، ويدنيني من الصدارة . فأشق اكباد الزعانف ، ويخلو لي المقام !

وملك نفسه وهو يقف فيحضرة ابي العباس. ان في آمنة الدرع الواقية، وصعيد المرتجى . فاستوضحه الخليفة بمرح غرّار : ألا ماذا لقيت في اسيافنا، يا عبد الرحمن ؟

فاعلن ببشاشة تخفي من الضغن كل متلاف : انها لاسياف مسنونـة ، قاطعة ، يا امير المؤمنين . ولسنا نعيا ، بمثل هذا الجند ، عن غزو العالم . اننا لفي اطوع كماة ، وامضى قادة . ما رأيت غير شرر يتطاير ، ويوشك ان يحرق البغاة . ان جيوشاً ، من هذا المعدن ، لحقيقة بمكارم ابي العباس !

وامتدح فيه جلال الخلق ، لتليينه. فلا يمنع عنه الملتمس اذا طلب اليه العقد له على آمنة. أما وعده بها ؟... فلينجز امير المؤمنين. وابتسم له ابو العباس مستنيماً الى بليل الشكران . وما درى ان ابا مسلم ينفحه بمثل ما يسخو به عليه من زائف المودة . قال يجامل أمير خراسان: ولكن هذه الجيوش المستبسلة من صنع يديك ، يا عبد الرحمن . والله ، ما كان لنا ان ننعم بهؤلاء المغاوير لولا ان تكون لهم قدوة . فهم اغراس يمينـك . ألا كم اعطيت هذه الدولة ، وكم سوف تعطي ، وانت في الخيرة من هداتها !

فاعلن بابتسامة مرّة : على اني ما نعمت بسوى الاجحاف ، يا أمير المؤمنين !

فصاح ابو العباس يبدي الدهش : أتشكو الاجحاف ؟... ويحك !

ــ نعم ، الاجحاف ، يا امير المؤمنين . فهل نسي الخليفة ، دام له العز والبقاء ، ما عاهدني عليه ؟ ... ذاك العهد يحتاج الى البرّ فيه ، يا مولاي !

فما اضطر ابو العباس الى ارهاف الذهن كي يدري ما يرمز اليه ابو مسلم . قال لا يعتصم بالتجاهل : أتتحدث عن عمتي آمنة ، يا عبد الرحمن ؟

فسرّه الاستجلاء الصريح ، وابان : عنها نفسها ، يا امير المؤمنين !

فاذاع الخليفة لا يتردد : هي لك ، يا أخا الالفة . ان هوى ينمو بمثل هذا الخصب ، لا تلتوي فيه مناعة ، ولا يعتريه هزال ، لخليق بان يستوي على نعمى . ما ان ترجع من الحج ، حتى تكون آمنة هبة خالصة للاسد الحميّ . عهدنا لا يخرق ، ويميننا لا تجفّ ، ايها الصادق الذود عن العرين !

فانحنى ابو مسلم انحناء الرضى والابتهاج . هل آن للزهرة ان تتفتح ، وللثمرة ان تنضج ؟ ... أما في الوعد مواربة وغش ؟... وودّ ألا يكون مخدوعاً . وجمدت عيناه على ناظري ابي العباس . واذا الابتسامة تشرق في ثنايا الخليفة . واذا به يهفو الى العناق ويتمتم : انت منا ، وستبقى فينا ، يا ابا مسلم !

وضمه الى صدره ضمة عنيفة ، كابسة ، ضاع بها ابو مسلم عن تقدير الواقع . فماذا يستنط اليه ؟... أصدق ، ام رئاء ؟

٩

ما كانت سبل الحج غير معارض للصولة . فتنافس فيها القطبان ، يبذل كلاهما من وكده ، ويباهي بقصيّ شأوه . ولجّ ابو مسلم في التفوّق . فاجرى ،بالجفنات، المال على المسترفدين . وحفر الآبار لارواء العطاش . واصلح الطرق . واطعم الاعراب . وتغامز واعوانه على ابي جعفر المسيك، وقد غالى في التقتير على نفسه ، وعلى سائليه ، شحّاً بذخره . وتهامسوا فيما بينهم ساخرين : « هذا ابو الدوانيق ! » ، يعيبون عليه مفرط بخله

وابو جعفر ضنين بدرهمه . فلا يسخو به إلا مكرهاً ، كأنه قطرة من دمه . وغاظه ان يكون ابو مسلم رفيقه في مراحل حجه . فكأن امير الحج والي خراسان ،لا ولي العهد. وانفصل القطبان بعضهما عن بعض على اضطغان، وليس للوئام ان يجمع بينهما ، وما يسلس لاحدهما قياد . وما فتىء ابو مسلم ينشر عوارفه بزهو مراء ، ومطلبه قهر ذاك المستعلي ، المتمادي القطوب، كأن من حوله عبدان

وجاءت انباء الكوفة تقول إن أبا العباس مريض بالجدري . فدعا له الموكبان بالشفاء. وما حسبا أن الداء،مع ذريع فتكه،سيودي بامير المؤمنين. ووجما ، حين شاع ، في اطراف الحجاز ، ان الخليفة قضى . فكيف تداعى السيد الوزين ، وما يبرح على رسوخ وريعان ؟

واطرق ابو مسلم لفرط الكمدة. حاله مع ابي العباس اسلم مغبة منها مع

من سيخلفه . ومن سيخلف امير المؤمنين ؟ ... اخوه ابو جعفر المنصور ، ولي العهد . وانتفضت حنجرة ابي مسلم بغصة كاوية. سيرقى الى السدة من يعشش في قلبه الحقد على امير خراسان

وشعر امير آل محمد بصداع يقلق لبه. لم يرقب هذا الانقلاب المفاجىء في الاريكة السامقة . وتراءت له آماله تضمحل . خسر آمنة ، ولن يهبها له ابو جعفر ، وخسر قيادة المسلمين ، وقد شخص ببصره اليها في العرب والعجم

وتقلى على لذعة الجمر . ما اصعب احراز الاماني . لا تكاد تقبض عليها الايدي ،حتى تتطاير شعاعاً. وصرف امير آل محمد باسنانه ارتماضاً .أيبطش بابي جعفر ، ويعلنها حرباً على العباسيين ؟ ... انه ليسير في ضئيل جند ، ويتبطن الحجاز ، وجميع من حوله ينصرون ابناء عم الرسول . وسمع بانباء المبايعة . فالوفود تتقاطر الى ابي جعفر تؤيده ، وتبارك له بخلافة المسلمين . فهل يحذو حذوها ،ويمشي الى هذا المنتهي اليه الامر ، فيعالنه بالنصرة ، ويقر به سيداً ؟

وعزّ عليه النكوص عن مطّ خده على ابي جعفر . لقد امتهنه ، وشاء ان يباعد في هذا الامتهان ، فكيف ينحني له ؟ ... وما خطر له في بال أن أبا العباس ، وهو اصغر من ابي جعفر سناً ، سيقضي نحبه قبل من يكبره باربع سنوات . مات ابو العباس في سنة ١٣٦ للهجرة ، وما يجاوز السابعة والثلاثين ، بينما يحبو ابو جعفر الى الثانية والاربعين

وجمع والي خراسان اخوانه يستشيرهم في الموقف . أيبايع ، ام يشهر السيف ؟ .. فاجاب الاخوان ، وكانوا على حنكة : ليس لك ان تشذ

عن نهج الكنانة ، ايها الامير . نادوا به خليفة ، فلا تبخل عليه بهذا النداء . وما انت في ارض يهون عليك فيها التكشير عن نابك ، وتجريد حسامك . فالحلم يقدر السكون الى الراهن . وليس لك ان تطاول الليث في عرينه ، وقد جلوت عن حرزك . منا كرنه تجديك في خراسان ، لا في الحجاز !

فوافق على المنطق الرشيد . ليس له ان يدعي القوة حيث تخذله حتى الرمال المبسوطة تحت وطء نعليه . وكتب الى ابي جعفر يقول ، ويده تضطرب في تزويق الحروف : « عافاك الله ، ومتّع بك . انه أتاني امر قطعني ، وبلغ مني ما لا يبلغه مكروه ، ألا هو وفاة امير المؤمنين . فنسأل الله ان يعظّم اجرك ، ويحسن الخلافة عليك . انه ليس من اهلك احد اشد تعظيماً لحقك ، واصفى نصيحة وحرصاً ، على ما يسرّك مني ! »

وانتظر يومين وهو في كسفة المبغوت . فراعه دلال الاقدار وما تسالم صفيّاً . غير انه نام على جرحه ، ودرج الى مكة يجهر بالبيعة ، وفي ضميره فلول من اسى ، ارخى عليها ستاراً من بشر . ورحب به ابو جعفر ، وما كان يرقب هذا اليسر في اخذ البيعة لنفسه من والي خراسان . وافاض بالشكر . غير ان الاشجان انطبعت في اساريره ، كأنه على خشية وهو في أوج سلطانه . فاستوضحه ابو مسلم متعجباً من هذه الغمة المخندقة في مهجة الخليفة : ألا ما بي اراك على سهوم ، يا امير المؤمنين ، مع انك بلغت من زمنك اسمى بغية ، وارفع ذروة ؟ ... أما تزال في لوعة على ابي العباس ؟

فاعلن بصوت تجري فيه البحّة ، كأنه ينوء بالكلوم : والله ، ما جرح اصابني في اخي ، رحمات الله عليه ، ان يندمل مرشفاه . غير ان ثمة جرحاً آخر يهولني وأتقيه . أما سمعت ابا العباس ، اخي ، يعاهد عبدالله بن علي ،

عمي، على إنالته الخلافة إن هو انقذه من مروان الجعدي، آخر خليفة أموي؟

فاذاع ابو مسلم مباسطاً : وددت لو قلت فيه مروان الحمار !

فاوضح ابو جعفر ، وما خرج عن عبوسه : اياه عنيت . وذاك العهد ما امحى من خاطر عمي عبدالله. ويتراءى لي انه سيستنجزه. فيجرّني الى مهلكة لا اراني فيها على طمأنينة. وهل يندّ عنك خطر عبدالله بن علي، وهو نجيّك؟

فابتسم امير آل محمد ، وابان : لا اراه يتصدى لك. واذا فعل فما انت دونه . وطد لنفسك واقهره بما أوتيت من وسع . فلا يعزّ عليك !

ــ وتنبو عني في المصادمة ، يا ابا مسلم ؟ ... والله ، ما اتحاماه بسوى عضبك وعضدك، إن هو شمّر للنزال . وما للكريهة سوى فتاها الاغرّ !

ولاينه ، وامتدحه ، واتكل عليه. بيد ان ابا مسلم ، ليس من عبدالله ابن علي غير الصديق الامثل، والرفيق الامين ، فكيف يناوئه ؟ ... أعدو في ثياب خدين ؟ ... انها لمذلة خاسفة . قال ابو جعفر يغريه بدم عبدالله : ولكن لا تخف ، في مناوأته، على اخته آمنة . فلن تكرهك وتفلت منك ، وقد غالبتَ اخاها ، بل ستظل لك على وثيق الود. وساعقد لك عليها بيدي وانت تدفع عني شر المطماع . ففي جوفه مزالق لالتهام كل حلاوة ، وما ينفك يقيم على نهمة ، كأنه من قوم يعيشون على جوع !

فخارت في ابي مسلم مناعة الحفاظ ، وهو يسمع ما يعلله به ابو جعفر من متعة . وجرض بريقه هياماً بالنشوة الطارئة ، وساءل نفسه : « أيساوم ابو الدوانيق ؟ ... والله ، لقد رضيت. وستغفر لي آمنة هذه الجرأة عليها، وما ثمة اسلوب آخر الى احراز الشهوة ! » . واستقرّت عيناه ملياً بعيني ابي جعفر، كأن النظرات تستطلع صحة الالفاظ. واذا به يستنبىء بلسان يتلعثم:

ألا تغضب آمنة ، وانا اقاتله ؟

وتناسى الخادنة ، كأن الدنيا باجمعها آمنة . فقال المنصور يبالغ في الاجتذاب : عمتي طوع يدي. فاذا رضيتُ عن زواجك بها ، هفتْ اليك . فالجميع ينصرونكما في الامنية ، ما عداي !

وانه ليذيع حقاً . فهو وحده الحاجز دون لقاء الاليفين . ولكن ابا مسلم لم ينزل فوراً قلبـــه الايمان . فهاله ان يخرج المنصور عن شهوته في الانتقام ممن احتقره ، ورضّ فيه الاباء . وما يكاد والي خراسان يظفر بعبدالله بن علي ، حتى يجد نفسه كبش الفداء . اذن سيتجانف عن التلبية . وما عليه اذا تنافر العم وابن الاخ وتلاشيا ، يخليان له الميدان ، فيقبض على الناصية ، وينعم بآمنة ، ويسلم من خطر القرمين العنيدين؟... قال يعتذر : ولكن انباء خراسان لا تبعث على الارتياح ، يا امير المؤمنين . فقد جاءني عنها ما يهيب بي عاجلاً الى الرجوع اليها ، والفتنة في اتقاد . وللخليفة ، من جيوشه ، ما يكفيه مؤونة الاستناد الى مثلي في الكفاح !

فلم يفسح له ابو جعفر في الاوبة . لا بد من النزال ، وقد رهب انضمام الصديقين واتفاقهما عليه . وما يبقى منه وهما يتحالفان على كسره ؟ ... أما عيسي تحت حوافر جيادهما نواة مرضوضة ؟ ... وألحّ في دعوة ابي مسلم الى الامتثال للرغبة ، ولله آمنة في مقابل هذا الجهد الصارخ . فاذعن امير آل محمد ، ولم يجد عن الموافقة مناصاً . ان ابا جعفر ليقبض عليه بيـــديه الاثنتين . قال ببيان المكره الراضي : سامنع عنك ويله ، يا امير المؤمنين. فاعتمد فيه على حسن بلائي !

فدفع عنه الخليفة الباهظ من الاعباء . وايقن ان النصر بجانبه اذا ما

تصدى له عمه الشره الى المجد والسلطان. واكرم في ابي مسلم اجابته السريعة الى النجدة. انه للصفي" الندب. وعبد الله بن علي لقي من نفسه ما يحدوه على امتلاك الاعنة لدن سقط اليه نعي ابي العباس. فالخلافة له، وقد اوصى له بها ابن اخيه الراحل. وأحنقه ان يبايع القوم ابا جعفر. ونادى بنفسه، في دمشق، خليفة. له سيادة المسلمين. ووثب بقواته على الكوفة يروم احتلالها، والاستيلاء على مرتبع الامامة. الا انه فوجىء في طريقه بابي مسلم، فتولاه ارتباك مقعد مقيم

أيقاتله من توثقه به آصرة الاخاء، وامانة النجوى ؟ ... إنه لعقم في المودات هذا الشذوذ عن حق الصداقة. ورهب عبدالله خصمه. فما يغيب عنه امر ابي مسلم، مختلس الارواح، وطامس الابطال. ولم يصدق ما تلقي في مسمعه الالسن من فادح هالع. ألا وزن للمخالصة ؟... ولكن الخراساني مغبون في إمامة ابي جعفر، فكيف يجري في عونه ؟

غير ان عبدالله بن علي ما نادى وحده بالعصيان، بل جنح اليه رهط من اصدق الذادة، ينكرون على ابي جعفر حقه بالامامة. وفي هؤلاء حميد ابن قحطبة، وخمسة عشر الف فارسي. واضطرب حميد لما درى ان ابا مسلم في المناوئين، وقد سبق له ان سلخ من الامويين ألوية النصر، تحت امرة والي خراسان. واحس منه عبدالله بالالتواء في المساندة، فلجأ فيه الى المكيدة، وعالنه بكونه اقامه والياً على حلب. وعهد اليه في كتاب الى اهلها. وارتاب حميد بامر الرسالة، ففضها في الطريق. واذا هي امر بقتله. فاحتدم وارتد الى العراق، يلتحق فيها بسيده، امير آل محمد. واخوه الحسن بن قحطبة، والي ارمينية، التحق مع جيشه بهذا السيد. والاثنان في القتال على ضلاعة،

وما يدرجان في هزيمة ، ولا يخبو لهما استبسال

وازجى ابو مسلم قواته الى نصيبين . وفيها نشبت المعركة . وضايقه هجوم المناهضين ، فاندفع في طريق الشام . واحس بكونه اضحى بين نارين، وهو يسلك هذا الطريق. نار مقاتليه، ونار الشاميين. فاستظهر بالحيلة للخلاص من موقفه الحرج . و كتب الى عبدالله بن علي يقول : والله ، لم اؤمر بقتالك ، ولكن امير المؤمنين ولاّني الشام ، وانا اريدها !

وذهب للقولة اثرها البعيد في الجنود الشاميين في جيش عبدالله. أيكون ابو مسلم والياً عليهم ؟ ... فيا للوالي النسّاف!... وما يجهلون بطشه ،وهو المفرط في القسوة . فالارواح لديه هبوات مذرورة . وطاروا الى عبدالله ابن علي يعالنونه بارتياعهم، هاتفين:ألا كيف نكون بجانبك،وهذا الفتّاك المخوف يروم ديارنا ، ولن تأخذه فينا هوادة وهو يخترط سيفه لاخترامنا ، فيقتل اقوياءنا ، ويسبي نساءنا ، ويقوّض مبانينا ؟ ... دعنا نرجع الى بلدنا لصد شر الغازي عنا . فاننا لنقدر على وقف تياره ونحن في ربوعنا !

ولكن عبدالله خشي على نفسه اذا اطلقهم الى منازلهم ، فيتضاءل عدد جيشه. ولقد ضعف هذا الجيش بعدما اودى القائد العباسي ،الناهد الى الخلافة ، بحد السيف ، بخمسة عشر الف فارسي من جنده ، هاله ان ينتصروا لوالي خراسان ، ابن أبيهم ، فاطلق فيهم الشفرة المجتثّة ، يمحوهم بها محو الريح للغمام

بيد ان الشاميين لم يتعظوا بما لاح لابصارهم من تنكيل . فقفلوا الى بلدهم عابثين بوعود عبدالله بن علي ، مع فيض الاغراء فيها . لن يقاتلوا من له في اكراه الاقدار، على مجاراته في مقاصده ، ابرع يد ، ومن تنبو عنه

نصال مناوئيه ، وهو ذو السيف الجُراف

ولمس عبدالله بن علي مبلغ الشدة المضروبة عليه . وما فتىء يتعجب من انقياد ابي مسلم الى انكد خصم ، والى منازلته ، وهو اكرم صديق . فهل نسي ما جبهه به ابو جعفر من عنت و كبر ؟... ابى عليه ان يتنفس ، ودعا الى قتله . فهو في عرف ابن الامة ، سلامة البربرية ، نغلٌ لقيط ، لا يجمل به حتى ان يكون ملحقاً بالعباسيين

ومن انتصر له فيهم ؟ ... اثنان لم تشب ريبة ولاءهما له ، ابو العباس وعبّدالله بن علي ، دون سواهما . فايداه في منتماه العباسي الاثيل ، وفي مطمح لبه . فما ضن عبدالله باخته آمنة على هذا المقبل عفواً لمناجزته ، كأنه له عدو كفور . قال عبدالله وفي عروقه ضرم من حيرة ورهبة : هل اضحى له الخصم الالد صديقاً حفيّاً ، والصديق الامين بغيضاً مجفوّاً ؟ ... والله ، اني لاتهيّب لقاءه ، وكنت احسبه بجانبي . فما هذا الانقلاب في الميول ؟ ... هل تبدلت الدنيا حين جئت استظهر بها على الطلبة ؟

ونفخ نفخة كالريح الرعناء ، تطفىء النار وتضرمها . ونظر الى غده وشعر بالهزيمة . غير انه مانع في ان يبيح اليه للقنوط سبيلاً . سينافح بمهجته عن حق يرى نفسه به خليقاً

ولم يشأ الايمان بصدق ابي مسلم في دعواه أن أبا جعفر ولاه الشام ، ولم يأمره بمصادمة الراغب في الامامة دونه . فان هذه المماكرة ، يطلع بها عليه امير آل محمد ، مما تنسجه مخيلة خصبة في التضليل. وعبدالله بن علي لا يضيق بهذا الخيال الغرّار ، وما يجهل ان الحرب خدعة. قال ، وصريف الاسنان يمسك به : والله ، ما يشتهي اللقيط سوى هدمي ، كي يجرّني الى مولاه

ذليلاً . فهل غابت عنه احابيل ابي جعفر ، وليس لعهده وفاء ؟.. ان اكن اجيد ، وذلك الواثب الي ، الختل والمواربة ، فان ابا جعفر لثالثنا في ابتداع الاشراك . فليحذر ابو مسلم . انه ليودي بنفسه وهو ينطحني . انا اليوم ، وهو غداً . فهل وعده ابو جعفر بآمنة ، اختي ، ورماني به ؟.... من الراهن انه فعل . ولكنه يسخر منه . آمنة لن تكون في عرف ابي جعفر للقيط !

وهزّ برأسه . وتصاعد زفيره . ابو جعفر أدهاهم جميعاً في ما دبر ، وسيقودهما عفواً الى منيتهما . وما اصلبهما عليه لو اتحدا ونازلاه معاً . إنهما لكفيلان بمحوه . ولكنها مكيدة مبيتة ، صوغ حاذق مقتدر . قال عبدالله ابن علي ، وما عرف الوجل يسطو عليه في سوى هذه الوقفة الحرجة : أأوفد اليه من يدعوه الى الروية ؟ ... إننا لنهون على ابي جعفر وأحدنا يطوي الآخر . فما له الا ان يمدّ يده كي يلوي عنق من بقي منا . اما اذا اتفقا عليه ، فهو هو الراحل ، لا نحن !

وهتف بملء فيه ، كمن اهتدى الى ذريعة يدرأ بها عن نفسه الخطر : اين عثمان بن صفوة ؟ ... ليسرع اليّ !

وصفق بيديه يدعوه . هذا حاجبه الاروع . وعثمان بن صفوة من ذوي الشدة والعزة . طويل كالنخلة . سريع كالومضة . جريء كالنمر الضاري . يفلق بحد سيفه عشرين هامة ، ويتابع طريقه كأنه لم يشهد موقعة ، ولا بطش بعدو ، وما تروّعه الصروف . وبدا في خيمة عبدالله بن علي يقول بابتسامة الواثق بطول باعه : ها انذا ، يا ابن الاكرمين . فماذا ؟

فاعلن عبدالله : هل لك الى والي خراسان ؟

فانتصبت قامة ابن صفوة دهشاً . الى والي خراسان ؟... ولكنه الخصم المفاجىء . هل تلاشت في عبدالله بن علي الهمة ، فابتغى المصالحة ؟... وسدد الحاجب الى سيده نظرة ما خلت من الملامـــة . لم تفلت الغلبة من القبضة الحريصة عليها ، كي تنحني الجباه ذلاً وضراعة . فقال عبدالله ، وقد لاحت له في حاجبه النظرة المندوة : اراك لم تفطن لبغيتي ، يا عثمان . ألا فاسمع . لست اجهل ما نحن فيه . كما اني لا اجهل ما سنصير اليه . فاقفز الساعة الى ابي مسلم واصرخ به : « أيتقاذفك عدو السوء لمناكرة خدين الصفاء ؟... انك لخائب حتى مع ظفرك . فارجع الى نفسك ، فتنبئك بكونك أكرة ، تضرب بها يد حاقدة ، صخراً اصمّ ، لتحطيمها. حذار هول المغبة ! » . أبلغه أنه ألعوبة ، وأنه في مصارعتي يكتب على نفسه بيده الموت !

فادرك عثمان مرمى سيده ، وزالت عنه نظرته الخشنة ، فابتسم وقال : في هدى سيدي من الحنكة ما يرجح كل ما تنطوي عليه ألبابنا،نحن الحشم. فان للقادة من اساليب الدهاء ما تقصر عنه عقولنا الخاملة !

فلم يتأثر عبدالله بن علي بهذا المديح الرحراح . وزاد فقال : ولا تنسَ ان تلوّح له بآمنة !

اجل ، بآمنة . فهي مبددة العسير ، ومستميلة الحرون . وفهم عثمان ابن صفوة ، وله بالاسرار إلمام ، فابان : ساروّض فيه العاتي. انه ليعرفني ، ولن يتنكر لي . وما ان يجري على مقولي اسم آمنة ، حتى يلين العنود !

وطوى السهول والحزون الى ابي مسلم . وما كان وزير آل محمد على بعد شاسع . ومثل في حضرته عثمان بن صفوة يقول ببسمة راضية ، عاتبة : ما رقبنا من النجيّ ان يصادم النجيّ ، يا عبد الرحمن . والله ، ان عبدالله

ابن علي للهوائم، وما كان الا الوفي. فهل تزوّر عن الاصفياء لتحالف الخصوم ؟... هذا انقلاب على السنن ما حسبناه في من يقرّ الحق ، ولا يكترث للمضرة. فاين الحفاظ في حامل اوائه ، بل اين المودة في حاميها الندب ؟... أتهون الصداقات في يوم تبلى فيه حرمة الولاء المصون ؟

فارتعد ابو مسلم ،وغصّ بريقه. إنه لمكره. وهل لعبد الله بن علي ان يدرك امد هذا الاكراه ؟... فرض عليه ابو جعفر مقاتلة وديده، فامتثل لامر الخليفة ، وليس لكلمة امير المؤمنين مرد. ووعده ابو جعفر بآمنة. وفي الوعدجزيل الاغراء. وانى يصدف الولهان عن آمنة ،وهي مطلب الروح، وبانية السؤدد الاشمّ ؟... قال وما يدري باي لسان يعتذر لرسول عبدالله ابن علي: ولكن امير المؤمنين ، ابا جعفر المنصور، قادني الى منازلة اكرم وجه عليّ ، يا عثمان. وليس لي عن تلبية الخليفة محيد. وكيف أُبادره بالعصيان ، وهو رب الامر ؟... والله ، اني لعاجز. وليس لعبدالله ان يلمّ بما في خاطري من الكمدة ، وانا المسوق الى مقاومة احب الناس اليّ. الا انها مشيئة سيد البلاد والعباد. وأنى يتسع لي الاعراض عنها ؟... عفو عبدالله بن علي عن المدفوع ، على رغمه ، الى مصاولة اصفى خليل !

فقال عثمان بن صفوة ينفذ الى لفائف الصبابات : ولكن عبدالله بن علي يمتّ الى آمنة بصلة وثيقة. وهل يخفى عليك انها اخته ؟... ولآمنة كرامة لديك ، لا احسبك تجازف بها. فهلا تنزّهت عن مخاصمة اخيها ؟

فتأوه. وضرب الارض برجله. واذاع بحسرة: حديثك يؤلم كبدي، يا ابن صفوة. أما ترفق بي ؟... والله ، ما عبدالله غير الاليف المؤاتي. بيد ان هناك رب البدو والحضر. واني لمجرور الى طاعته. وعليّ ان ألتمس

من سيدك المغفرة اذا اسأت اليه ، مغلوباً على امري . وعلى م يقوى مثلي ازاء امير المؤمنين ، وليس لي عن الخضوع غناء؟ ... ليعلم عبدالله ان يدي تحاذر ان تمتد في مناوأته الى سيفي . فاني لاتقي البطش الذريع ، وما أجد غير اللين من دواء . وسأعالج به رفيق صباي . لينزل عما يدعي من حق ، وانا الكفيل برضى امير المؤمنين عنه !

فتململ عثمان . أيدعو سيده الى النزول عن حقه بالخلافة؟... انها لجرأة لا يتراءى له في الاقدام عليها مأمون السلامة . وما انفك يتغلغل في المودة اللباب ، فقال : لا يبدو لي ان آمنة تأنس الى مناكرة اخيها !

فتجهم ابو مسلم . ما لهذا الرسول يستطيل في ما لا يجوز لمثله ان يخرق نطاقه؟ ... وأبان بجفاف : ويحك ، يا عثمان ، أحسبني على نفسي قيّماً ، وقد اصبحت منذ زمن قصيّ رشيداً . فدع عنك ما ليس لك ان تتدخل فيه !

فانتفض ابن صفوة امتعاضاً . ونبر محتدماً : ولكني ادلك على طريق الخلاص !

فلم يطق ابو مسلم دلال الرسول ، وصرخ به وهو يتطاير نقمة : أأحتاج الى نظيرك في الهداية؟ ... غاليت في الخيلاء . ما لهذا الرأس ان يتشامخ بين يديّ ، والا سلته من مجثمه . أُخرج ، لا أُم لك !

وصرفه عنه على اخفاق . وذابت في عثمان بن صفوة عنجهيته حيال غضبة ابي مسلم ، فتقهقر مكدود البال . وما تمالك ، وهو الجبار الهيكل ، عن لفتة حاقدة يرشق بها القزم الطاغية . الا انها لفتة كلفته الغالي من زمنه. فهدر والي خراسان ، ولم يحتمل النظرة الخادشة : اضربوا عنقه . ليس له

ان يبرح هذا المعسكر حياً . أيعترض النذل على مشيئتنا فيه ؟ ... انه لسخيف يبحث عن حتفه !

فذل عثمان بن صفوة ، وسجد يلتمس الرحمة . ولكن سيوف الحرس تخطّفته تصبغ بدمه التراب . واشتدت الواقعة بين الجيشين المتحاربين ، وعبدالله بن علي يتعجب من قعود رسوله عنه . فهل خانه عثمان بن صفوة ، واضحى لابي مسلم ، او ان ابا مسلم حجبه عن سيده انتقاماً ؟...أأسره ،ام قتله ؟

وتوالت المعارك على مدى خمسة اشهر كاملة . واستنجد عبدالله باخته آمنة ، يدفع اليها من يهتف بها : ألا ردّي عني شره ، وانت مالكة امره!

وهرعت آمنة الى النجدة ، تطلق الى دمشق جاريتها حبابة.بات الانقاذ عليها فرضاً . غير ان ابا مسلم ضرب جيش عبدالله ضربة ما افاق منها الا وفي كبده شفرة ماضية ، هدّت عزمه ، وفرضت عليه الكلال ، وقد لجأ فيه والي خراسان الى التغرير.فتظاهر في ميمنته بالرغبة في الهجوم،حتى اذا ما انصبّ عليها جيش عبدالله ، نحره في قلبه ، وفي ميسرته ، واوقع وليّه في الاسر

وما كان نصيب الشاميين ليعلو نصيب قوات عبدالله بن علي . فصدع ابو مسلم شملهم ، ومزق فلولهم . واستقر بدمشق آمراً ، ناهياً ، مستأثراً بناصيتها . و كتب منها الى ابي جعفر يبدأ بنفسه ، متباهياً بقدرته : « من ابي مسلم ، امير آل محمد ، الى ابي جعفر المنصور ، امير المؤمنين — أما بعد ، حفظ الله مولانا الخليفة الاكرم، فقد والانا النصر. و كسرنا شوكة المناكرين . ولامير المؤمنين ان يستبشر خيراً بالسعد الطالع ، وبجنده

الطائع . فما من غارة يدعو اليها الا ويحالفه فيها الفتح المبين . ولقد طأطأ عبدالله بن علي رأسه ، وطمأن ظهره . واني لادفعه اليك في موكب من حراسه ، كي ترى رأيك فيه !»

وتسلم ابو جعفر الكتاب، وقرأه . فما ابتهجت له نفسه . مع كونه حافلاً باطايب المنى . فان ذاك الفياش، الراسي في لب ابي مسلم، أقسم ألا ينجلي عنه ، حتى وابو جعفر يركب السدة . فظل الاستخفاف الكامن فيه ينفث حممه ، كأنه الخليفة، وكأن الخلفاء خوله . وراع ابا جعفر ان يلقى ابداً الزراية من هذا الصلف . فما به، وهو يخاطب رب الامر، يبدأ بنفسه، فيقول : « من ابي مسلم » ، امير آل محمد ، الى ابي جعفر المنصور ، امير المؤمنين » ؟... أما كان عليه ان يقول : « الى ابي جعفر المنصور ، امير المؤمنين ، من عبد الرحمن أبي مسلم ، امير آل محمد ؟... انها لصفاقة لم يحتملها الخليفة ، وما يفتأ ذلك المتشامخ يصعّر عليه الخد ويزدريه ؟

وصاح صيحة الجيّاش الحفائظ : والله ، ما ظلمته وقد أدنته . حكم الموت وجب فيه . سيرى المارق من حلمي ما يكلفه نزقه ، وساهدم فيه غطرسته ،حتى يبيت أذلّ من حصاة !

وهتف بحاجبه، وكل ما فيه يميد، كأن نبأ النصر بسمة عابرة ، لا وزن لها في احتدام الغيظ : اين ابو الخطيب ؟... هلا اسرعت به اليّ ؟

وخشي الحاجب على نفسه من مرأى الخليفة . فان هذا الحانق سرمداً ، الجافي الطبع ، الرهيب المنظر ، ازدادت فيه الجهامة، وبات شرراً يتطاير.

ونادى الحاجب ابا الخطيب يصيح به برعدة : ألا أجب امير المؤمنين !

وقاده الى مولاه الناقم ، كأن ما يطيب له عيش . وعالنه ابو جعفر

بصوت خشن ، يطلق الكلمات نواتىء مسنونة : عليك ان تركب الساعة الى دمشق،وان تجاهر أبا مسلم بكونك رسولي اليه ، وبكوني اوفدتك لاحصاء الغنائم . ولا تحفل بما يبدي من نفرة ، وبما يدمدم به عليك . واذا ما توعدك ، فاني لساحق هامته . ولا بأس ان يهيج هائجه وقد امسكت عنه ثقتي به . كن فظاً . وليدرك الانكد اننا من القسوة بما ينخلع له لبه!

ورقب ان يفور ابو مسلم ، وان يطلق القول العضوض تألمـاً ، وما ابتغى سوى ايلامه . واذا مال الى العصيان ، وهو ما يصبو اليه ابو جعفر، فانه لسافك دمه.وللحياة ان تصفو حين يسلم الافق من ظل الصفي" البغيض، وما يجلجل فيه سوى نعيق الخطر

وركب ابو الخطيب ،على عجل ، الى دمشق، اذعاناً لملتمس الخليفـة . فليوضح ابو مسلم امر مكاسبه في المعمعة ، وليس له ان يزدردها ، ولا ان يقضم منها

ولمس ابو الخطيب جانب الواقعة ، وما كان على حمق . ففي نفس ابي جعفر كلمة حاسمة ، يروم اعلانها ، ولن تطيب لها نفس والي خراسان

١٠

حبابة في دمشق ، تزعق هالعة : أيؤذي امير آل محمد سيدتي آمنة في حبة فؤادها ؟ ... ألا اين صون الذمم ، ايها الامير الجليل ؟... مولاتي ساقتني اليك متشفعة في اخيها . فهبطت دمشق وصيحات النصر في أذني ، وانباء القتال تصارحني بان عبدالله بن علي سقط في الاسر ، وتوشك قوة من الجند ان تسوقه الى الكوفة ، لينظر في امره ابو جعفر . فهل غاب عن والي خراسان ان عبدالله بن علي اخو مولاتي الاميرة، وان هذا المهزوم اسلس مقادة من ذلك المتوسد الاريكة ، وانه دحر خير نصير نتوكأ عليه في احراز العلالة ؟

وجمعت لهجة حبابة اللوم الصراح ، والشكوى الصدوق . هل درى ابو مسلم انه حرم نفسه المتكأ المنيع ، وهو يخضد شكيمة ابن علي ؟ . . . فاختلجت في خيال امير خراسان ملامح عثمان بن صفوة . وشخص له انه يسمع اقواله، وحبابة تنعى اليه الطمأنينة، بعد ما طوى راية أخي آمنة . لم يبقَ سواه لسيف ابي جعفر . وانه لهين التصديع ، وهو القضيب الاوحد السليم في الحزمة . قال وقد راعه ما يحفل به تنديد حبابة من جليّ اليقين : هل اطلقتك اليّ آمنة ، يا حبابة ؟ . . ولكنك جئتني بعد الاوان ، ايتها المستجيرة بي مني .وليتك اقبلت في الحين المؤاتي . سبق السيف العذل، يا ابنة الاحباش . والله ، اخذت اقرع سني ندماً . فلا حول ولا قوة

الا بالله !

وحجبت غشاوة من اسى عينيه . لعب به المنصور ، فابعده عن هدفه ، ومال به الى البطش باصحابه . ولكن ابا جعفر وعده بآمنة ، فهل يحبو الى الوفاء ، او انها خدعة استجازها كي يباعد بين صديقين حميمين، يخشى منهما على نفسه ؟

وساورته الضعضعة . أينجز المنصور ؟... واذا انجز ، فهل ترضى آمنة ؟... وخاف ألا ترضى . فاستوضح بجزع : ما اهاب بمولاتك الى التأخر باستشفاعك الي ؟ ... ألا تدري أن كلمتها قاطعة عندي ؟ ... لست انكر اني اسأت في قهر اخيها، ولكني لم ازد فيه على احقاق طلبة ابن اخيها ، امير المؤمنين . ولم اقدم على كسر ذرع عبدالله، الا والخليفة يعدني بها . فهل ترينني ابتعدت عن نهج حنيني اليها ، يا ذات الولاء ؟

فاستفهمت بفيض حبور : هل وعدك بها ابو جعفر ؟

فاتلن بلهجة بائسة ، يلتمس بها لنفسه البراءة مما اجترح : نعم ، نعم ، يا حبابة ، والا لاحجمت عن مصادمة من ارى فيه مثال الحفاظ والشدة . فما ثلمت مناعة الولاء لولا ما علاني به امير المؤمنين المنصور . فعودي الى ذات الالفة الناصعة ، وحدثيها بما اضطررت اليه من امتثال . وما كنت لامتثل لولاها. فهي من قاد خطواتي في هذا المضمار. ولا تنسي دعوتها الى التأهب ليوم الزواج ، وقد بات ادنى من الهدب الى العين !

فاطربها وذهب عنها بالهواجس . يوم الفرحة وشيك . واعادها الى الكوفة مثقلة بالهدايا والبشاشات . فالحواجز تصدعت على وفرتها . وما اشتهت حبابة الا ان ينعم المستهامان بهذا الغيث من المنى . فتطمئن الى راحة

سيدتها وهنائها في غدها. واقتحمت الفيافي عائدة الى الكوفة، وفي مبسمها اندى اهزوجة، واسنى بشرى

غير ان حبابة ما كادت تغيب، حتى اطل ابو الخطيب ينفض مقوله في حضرة والي خراسان. قال يوضح ما جاء فيه: امير المؤمنين اوفدني الى سيدي الهمام. بلغته انباء النصر فارتأى احصاء المغانم. وكلفني المهمة. فهل لي الى تحقيقها متسع ؟

ففشا القطوب في اسارير ابي مسلم. واستدارت عيناه دهشاً وموجدة. وصرخ بابي الخطيب بنفرة يشيع فيها الغيظ: ويحك، أيأتمنني على الارواح، ويرتاب بي في الاموال!

واضطرمت فيه الحفيظة، واستحكمت منه الغصة. أهذه هي المكافأة المرصودة لمن ضحى باكرم صداقة، وحاز اسمى ظفر ؟... من لعبدالله ابن علي يخلخله لولا والي خراسان؟... وايقن ابو مسلم ان خدمة ذي السلطان وبال على من يخلص فيها، وان ابا جعفر ما يبرح ذلك الممتلىء القلب نفرة وغلا. فكل بذل وفداء لا يمحوان، من كبده، كاسح الضغن

وازمع امير آل محمد القفول الى خراسان. فهناك قاعدته، وبها يعتصم. وليصادمه امير المؤمنين ان يكن ذلك الواثق بعزته. فالرجال في النزال. واقسم على التقويض والتدويخ. سيذكر ابو جعفر تشامخه الاثيم ويندم. ولكن ساعة يبيت فيها مخلوع الكبد. فالثورة المنذرة بالاندلاع لن تبقي منه على سوى شبح مهزول، تبدده زفرة، كأنه دخان خيط نسيل

وغمغم ابو مسلم مهدداً: موعدنا وشيك!

وما التفت الى رسول الخليفة، بل صاح بجنوده، والحدة تلتهب في

نبرته : الى خراسان . هلموا !

وسمع ابو الخطيب ، فكاد يطير جزعاً مما في العودة الى خراسان غير تحريض على الفتنة. وما ابو الخطيب بالملتوي الرأي ، وفيه ذكاء . فاستفهم مرتبكاً : رويد مولاي العظيم ، قد اكون سهوت عن مشيئة امير المؤمنين . فهل له ان يفد عليه ، فيستطلعه بنفسه الامر ؟

فأجاب ابو مسلم بجفوة الموتور : ما نضحت بسوى ما امتلأت به . وهل لك في تحريف ما سقط اليك ؟..... مكاني خراسان. فاذا احتاج الي" مولاك ، فليلحق بي الى مرو ، او نيسابور !

وما ابطأ في النزوح عن الشام ، وفي صدره حسائك لا يسكن لها وهج. ان يكن اميناً على الدم ، خائناً في المال ، فما عليه الا الانفصال عن رهط لا يستأمنه على التافه البخس . ولكنه انفصال الشانىء الناقم ، لا الخانع المسالم

وحان له الانسلاخ من هؤلاء العرب ، قتلة أبيه ، ومستعبدي أمته . أما بايع بكير بن ماهان على استئصالهم يوم يشتد" عوده ؟... فما به يماطل في الانقلاب عليهم ، وقد بلغ من المناعة ما ليس لذي ناب ان يقوى فيه على عض ، او نهش ؟

سيشعلها ناراً لهوماً ، لا يفتر لها لظى. إما هو ، وإما ابو جعفر . واذا كتب له الفوز تزوج آمنة ، وكان خليفة المسلمين . وعلى من يحاوله في المطمع العفاء

وشهد فيه رجاله عبسة الليث الغضوب ، فتحاموا الدنو منه . وليس لهم ان يقتربوا من النار الاكول ، والا ذهبوا لها وقوداً . على ان ابا الخطيب ما كاد يبصره ينأى عن دمشق ، حتى اطلق الى الكوفة من يبلغ ابا جعفر

المنصور ، المقيم على شره الى انباء ابي مسلم ، ما تجلى في والي خراسان من جفوة ، وما اقدم عليه من وثبة . وما تمالك ابو الخطيب عن معالنة امير المؤمنين بقوله : ان في حرده لثورة تتأجج ، اخشى منها على الاملود النامي، يا مولاي الجليل !

وسقطت الى ابي جعفر الرواية الناخعة ، فاهتز . ما اراد هذه الفورة في امير آل محمد ، ولن تعفّ عن غضير ، ولا عن يبيس . وقلق وارتعش . لن يحجم ابو مسلم عن نسف قواعد بناها بقوة ساعـــديه . فيلتوي شأو العباسيين ، ويقبض على نواصي العرب لقيط دعيّ

وصاول الندم كبد الخليفة المندلع الضغن . لم يكن له ان يطعن قائده الاغرّ هذه الطعنة الهاتكة ،في مقابل حسن البلاء . فان ابا مسلم لوسيع المنة على بني العباس في استقرارهم باوج الدولة ، وامتلاكهم الامر . وهل كان لعبد الله بن علي ، عم الخليفة ، ان يتقهقر في الشوط، لو لم يصدمه ابو مسلم، سيد خراسان؟

واضحى المنصور على ستفاقم اللبكة . فاين المخرج من الورطة؟...وهاله سوء المغبة . اذا بلغ ابو مسلم خراسان ، فالنار ستجتاح كل وكر ، وكل جحر . فلا يبقى من العرب غير لفظة في فم

وما درى امير المؤمنين كيف يخمد البركان،وقد حفزه بيده الى الانفجار . ذهب الغلّ بالحلم . وبات ابو جعفر لا يرى غير نهج واحد للامان . فعليه البطش بابي مسلم قبل ان يلج درب خراسان ، ويطلق صيحته الراعدة، فتميد لها الافلاك

وطال ارتعاش ابي جعفر ، وانتشرت الدكنة في ملامحه . انه لمقبل على ناقع

الخطر . وفتق له ان يلجأ الى المصانعة . فيلين حيال والي خراسان ، حتى اذا تمكن منه ، هدمه. وليس كالمكر ينجع في ادراك الاوطار

وتذكر عمته آمنة . انها لذات اثر بليغ في الوالي المخوف. وما عليه وهو يعدها بابي مسلم ، كما وعد ابا مسلم بها، ويطلقها في مناداة الجامح، الشرود ؟

وشخص له انه وقع على الملتمس . آمنة ممهدة الوعر . وصرخ بحاجبه : هل لعمتي آمنة سبيل الي" ؟... لتظهر بلا ابطاء !

فما تقاعست آمنة عن المثول بين يديه، وفي معارفها سحائب من عتب . وما اكتفى ابو جعفر بحرمانها من تحب ، بل امعن في المنافرة . فقهر اخاها عبدالله ، وطرحه في الاسر، كأنه موكل بايلامها

وانخنت ازاءه ، والاصفرار يكتب في محياها اللوعة . وحيته بصوت ملهوف ، وقالت : ها انذا في حضرة امير المؤمنين، دام عزّه وبقاؤه !

فابتسم لها وتجاهل مضضها . وقال بمديد الايناس : مرحباً بالعمة . لا عجب اذا اشرق بها نادينا ، وهي مكمن النور . وقعت لك على منفذ الى الفرج ترضى عنه نفسك ، يا آمنة . فليس ابن اخيك بمن يسدّ عليك رحاب الامل . وما النفع من المصادمة في ما لا يجدي ، يا عمتاه ؟... فما دمت على دين ابي مسلم ، فليس لقوة ان تقصيك عمن وقعتْ عليه خلجة الانفاس . ابو مسلم لك . وقد عاهدته على العقد له عليك . فهلا دعوته كي أبرم ما اعلنت؟

فسددت الى ابن اخيها نظرة مرتابة . فما هذا الحلم ، بعد الجفاء ؟...هل تبدلت النيات ، بين ليل ونهار ؟... وجمجمت تمانع في الاجابة : أيليق بي ان ادعوه الي" ، وهو قاهر اخي ، يا امير المؤمنين ؟... ألا ماذا يشيع عني في دنيا العرب ؟... ما عاشت عمتك في سوى الحفاظ . فهبها

لحفاظها، ولا تطلب منها الخروج على اكراهها لاخيها . فلست اجحد دمي ، يا مولاي العظيم !

فهتف بها : أليس دم ابن اخيك دمك ، يا آمنة؟... ولكني اشبه بعمي في صلتي بك . وليس لك ان تؤثريه علي". عبد الله بن علي ، جنح الى اغتصاب حقي ، فعاقبته بما وجب فيه من جزاء . وما اراك تؤيدين البطل ، وانت تدرجين في النهج السوي". فمن احبت ، على بضع سنين ، من لم تثنها عنه الحوائل المناع ، يصعب عليها ان تزيغ عن محجة الانصاف . اخوك افترى ، وابن اخيك درأ عنه الظلم . فاحكمي واعدلي !

فسكتت . ليس لها ان تعترض على ما يسقط اليها من قولة لا تتنكب عن الصدق . قال ابو جعفر : والان ، يا عمتي ، وقد ظهر لك اني لست بالمتحامل ، أريدك على دعوة ابي مسلم الى الكوفة . ولن اتباطأ عن زفافك اليه . واحدة بواحدة . وانت الجديرة بالشكران !

فلم يرتفع لها صوت ، كأنها تخشى ، اذا ما لبت النداء ، ان تجازف بمن تهوى . وما ند" عنها ما كان من الخليفة في ابي مسلم ، وما بلغ من حنق والي خراسان ، وقد استأمنه امير المؤمنين على الارواح ، وحجب عنه ثقته في الاموال . وعلمت ان ابا مسلم ، وهي المتسقطة اخباره بامعان ، نفر الى خراسان غاضباً ، مهدداً . ولم يطلب اليها ابن اخيها دعوة النائي ، على ضغن ، الا وقد يئس من اعادته بنفسه اليه . فالشدة واللين خابا معاً في الغاضب الاباء.

ولكن اذا دعته ، فهل يسلم من فتكة الساخط ، القابض على الزمام؟... ما انفك ابو جعفر يصادمه ، فهل نزع الخليفة من جأشه الموجدة ، وبات

ذلك الصافي الضمير ، الامين الذمة ؟

ما ايقنت آمنة بصدق الطوية . فما ثمة ، في عرفها ، غير فخ منصوب ، ظاهره ازاهير ، وباطنه شفار . فاذا بدا ابو مسلم في الكوفة ، فلن يلقى من ابي جعفر غير نصلة تطعنه ،في صدره ،طعنة نجلاء، وتدفعه حثيثاً الى الرمس.

قال السيد القهّار مستنبطاً بيانها : ماذا ، يا عمتي ؟

وما خلت لهجته من الحدة . فاعلنت آمنة بفيض من ابتسام : فدتك نفسي ،هل لي إلا أن أُجيب ؟... سأكتب اليه. وألحّ عليه في المجيء . وجميع ملتمسي ان تقيه الهلكة.أيعاهدني امير المؤمنين على صون ابي مسلم من التلف ، وانا استدعيه ؟

ولمعت عيناها ببريق الشك الساخر. فهتف ابو جعفر بعنف يتصنع الجد: ألا تؤمنين بما سمعت مني ، يا عمتاه ؟... خلعت على ابي مسلم الامـان . ليأتِ وهو شريكي في بسطة جاهي ، له ما املك من عز وسلطان!

ـ أتدنيه اليك حتى يمسي عديلك في السؤدد ، يا امير المؤمنين ؟

ـ حتى يمسي عديلي ، وحقك ، يا عمتاه . فلن تتوطد هـذه الدولة بسوانا . والويل لنا جميعاً اذا اقمت واياه على خصام . أيروقك ان نهدم بانفصالنا ، ما شيدنا باتحادنا من ركين ؟...ابو مسلم النصلة ، وانا الساعد . ولن يصلح احدنا دون الآخر ، ولن يحل محلنا ذو اقتدار !

قالت وما انفكت تتخابث : وددت لو ادرك امير المؤمنين ، قبل الساعة ، هذه الحقيقة الناصعة. فما كان للكيل ان يطفح ،ولا للشر ان يبلغ مداه !

فصرخ : واي شر هذا ، يا عمتاه ؟... ما نزال على خالص المودة . الا

أن ابا مسلم اخطأ ادراك مرماي ، فشمّر على امتعاض. واريد ان يرجع كي يلمّ بوضاءة النيات !

وتأجج فيه الغيظ . فاحترست آمنة من تفجير غلوائه ، وقالت بلاينة تسيل عـــذوبة: انا في رضى امير المؤمنين. اين من يحمل رسالتي الى والي خراسان ؟

فقال ابو جعفر : بل رسالتي ورسالتك ، يا عمتـاه . فسا كتب اليه اني وليته مصر والشام !

واملى على كاتب ديوانه نص رسالته الى الوالي المهيب، المرهوب :«اني قد وليتك مصر والشام ، وهما خير لك من خراسان . فوجّه الى مصر من احببت . واقم بالشام بقرب امير المؤمنين . فان نزعت الى لقائك ، اتيتك من قريب ! »

وكتبت آمنة اليه تقول : « ألا اسرع في المجيء ، وامير المؤمنين ، ابو جعفر المنصور ، صارحني بكونه رضي عن العقد لك عليّ . فاغتنم السانحة، ولا غنية عن العجلة في نيل المنشود . والسلام عليك ! »

وحمل رسول الخليفة الكتابين يطفر بهما ، كالومضة ، الى امير آل محمد .
وقرأ ابو مسلم كتاب امير المؤمنين ،واستولت على لبه الهواجس. وطالع رسالة آمنة ، فتبدد من نفسه بعض الريبة . ولكن أما هناك مكيدة تعاون ابو جعفر وعمته على حبك خيوطها ، فيدعى ابو مسلم الى الكوفة بمختلف الاساليب ، ليلقى فيها حتفه ، وينجو من خطره امير المؤمنين ؟

وساءل نفسه هل تغدر به آمنة ، وهي من سادت مهجته ، انتقاماً منه لاخيها ؟... وقلب شفتيه. وقال في ضميره : ربما!

الا انه لم يكن موقناً بانقلابها عليه ، وقد تكون مكرهة على تحبير رسالة الاغراء ، بدافع من الخليفة ، ابن اخيها

واطرق والي خراسان متريثاً في الجواب . ودعا الى اكرام رسول ابي جعفر . وخلا بمضربه يستشير نفسه . أيلبي ، ام يتقاعـد ؟... واذا بحاجبه يمثل بين يديه ليعالنه بقوله : بالباب امرأة تلحّ في الوقوف في حضرة مولاي . فهل اجيز لها الدخول ؟

فابان دون ان يدري ما يعلن لفرط ارتباكه : أبحْ لها خيمتي . لا بأس . فما هي حاجتها ؟

وبدت المرأة يخفي الحجاب وجهها . الا انها ما كادت تقف ، تجاه والي خراسان ، حتى ازاحت نقابها تكشف ملامحها. فهتف ابو مسلم متنفساً عن فيض ارتياح : أأنت ، يا حبابة ؟ ... ألا ما بك ؟...اي ريح دفعتك اليّ ؟

فاوضحت لا تتردد : نفسي فدى مولاي الامير . اطلقتني اليه سيدتي آمنة ، كي اصارحه بانها مغلوبة على امرها في رسالتها اليه . فلا تؤمن بحرف مما جاهرتك به . ابن اخيها ، ابو جعفر المنصور ، مال بها الى تسطير تلك الدعوة المبطنة بالرثاء. فاذا شئت الوقوف على صادق رأيها ، فلا تعرّج على الكوفة ، وفيها جدتك . امير المؤمنين يظهر لك السماح ، كي يجرّك اليه ، حتى اذا امسيت في حرزه ، ضرب عليك حبائله ، فاودى بك !

فاصغى اليها وهو يبلع ريقه . أيمكر به ابو جعفر ، فيبدي له اللين ليغتاله ؟... على انه لم يكن يرقب من المنصور غير هذه المكايدة . فيتناهى لطفاً ، ليجيد المحق . قال يخاطب حبابة : اذن هناك دسيسة محكمة ، يا ابنة

الاحباش . ولقد ابت آمنة ان تخادعني فيها ، فأماطت عنها اللثـام . ألا شكراً . ليس للحب الاثيل ان يطيق الغدر . أبلغي سيدتك أني عامل بنصيحتها . فلن ارتاد الكوفة ، بل سأتابع مسيري الى خراسان. وهنـاك سأنظم شؤوني . وللمنصور ان ينازلني اذا استطاع !

ـــ أتشهرها عليه حرباً طحوناً ؟

ـــ لم يبق َغير الطعان. فالمودات فسدت ، وابو جعفر ينفث فيها السم. وليس لخصمين لدودين ان يسوسا بلداً واحداً. وللايام ان تدل على الرجل منا!

ووراءه ان يكافىء العباسيون فضله عليهم بالكفران به . قالت حبابة: نعموا برفدك وتجاهلوك ، بل مالوا الى قتلك. بئس الجزاء . على انك ما تبرح أوزنهم. فانت الجذع ، وهم الفروع. ولك، حين تشاء، ان تطمس فيهم روح النماء ، وما يزالون براعم . ولا عليك ان تقاتلهم، وقد اضمروا لك العداء !

فصاح بصريف وزفير: ما عرفت المروؤة تزدرى كما هي حالها عند هؤلاء العتاة، الكارهين لمجيرهم ، وقد اشتهوا له الفناء، لئلا يتذكروا المعروف . على ان النهاية حانت ، ايتها الحبشية الامينة . ستبصرين اولئك المستوين على الارائك مبسوطين في النعوش !

فقالت تضرع الى ربها كي يوفق هذا القطب الاورع لامانيه الجسام : ليكن الرب هاديك وناصرك . فما اشتهي من زمني الا ان اراك في ارفع الذرى . فتدين لك البلاد . ويجري في خدمتك العباد . وتنشر على الملأ عزك وسلطانك !

فارتاح الى هذا الدعاء الصادق النبضة . وخاطب حبابة بقوله : بوسعك ان تعودي الى مولاتك ، وان تبلغيها شكري لاهتمامها بي . قولي لها اني

انزلت نصيحتها من نفسي منزلة الرضى والاقرار بنبل السجية . وصممت على النزوح الى خراسان ، وعلى التفادي من مرأى الخليفة . فلن يبصرني ابو جعفر الا يوم اثب عليه بخيلي ورجلي . فإما ان يردني مهزوماً ، وإما ان يستخذي حيالي . وفي استخذائه صرعة القضاء . اني لمقيم من امري على يقظة. وامسيت لا اشتهي غير طلبتين ، الخلافة وآمنة . والاثنتان مقبلتان اليّ . فالغد حافل بالخصيب الحبيب!

ودفع الحبشية الى الكوفة تميس بهجة ونشاطاً. ابو مسلم لا يؤخذ بالخدعة. وهتفت حبابة وعيناها في الغد : ستبتسم مولاتي ، ويجفّ في مقلتيها سارح الدمع !

ونادى ابو مسلم رسول ابي جعفر يعالنه بقوله : ابلغ مولاك ان من وطن النفس على الرحيل ، لن تقف به عن شهوته في النوى حوائل . سخا عليّ الخليفة ، ادامه الله ، بما يرجح شأني .ولكن ما اعتزمت بات لا يحتمل تسويفاً . فليعذر امير المؤمنين !

ومضى جيشه في طي الفلوات كالسيل الهادر . وسقط الى المنصور نبأ الهمة الصلدة ، فاستفاض فيه الجزع ، وساوره البحران . وطار بنفسه الى المدائن يروم الوقوف بابي مسلم عن ولوج وكره ، والا عصفت بالدولة العباسية ، الرخصة ، المهالك السُفع

ومن المدائن كتب الى ابي مسلم يدعوه اليه . فسخر ابو مسلم بما يقرأ، ورمى بالرسالة ابا نصر ، مالكاً بن الهيثم ، صديقه البارّ ، كي يطالعها . فضحك مالك ، وقهقها معاً يستهينان بامر ابي جعفر . واستوضح والي خراسان : بمَ اجيب عنها ، يا ابا نصر ؟

فقال مالك بن الهيثم ، وما زال على استهانته بالخليفة : أجبه بما يوقن به أنه ركيك الحيلة ، كليل اليد !

فكتب ابو مسلم يقول : « لم يبقَ لامير المؤمنين ، اكرمه الله ، عدو الا امكنه الله منه . وقد كنا نروي ، عن ملوك ساسان ، ان اخوف ما يكون الوزراء اذا كانت الدهماء . فنحن نافرون عن قربك ، حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة . غير انها من بعيد، حيث تقارنها السلامة . فان ارضاك ذلك ، فإنا عبيدك . وإن ابيت الا ان تعطي نفسك ارادتها ، نقضتُ ما ابرمت من عهدك ضناً بنفسي ! »

وفي الكتاب عصيان انخلع له جأش ابي جعفر . فارتعد ولمس الويل . ان في صدر ابي مسلم لفتنة تغلي ، وتوشك ان تنفجر . فتهصر الرطيب واليبيس . وسدد اليه رسالة اخرى تعالنه : « فهمت كتابك . وما صنعتك صنعة من يتمنون اضطراب حبل الملك، لكثرة جرائمهم . وانما راحتهم في انتظام حبل الجماعة . فانت في طاعتك ، ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من اعباء ، لمن بناة هذه الدولة الطالعة على الدنيا بايمان ورسوخ . واسأل الله ان يحول بينك وبين الشيطان ونزغاته . فلم يجد باباً يفسد نيتك كالباب الذي فتحت عليك ! »

ومال المنصور بامراء بيته وقادته الى تحبير رسالة يوقعونها جميعاً في تعظيم مكانة ابي مسلم ، ودعوته الى الطاعة، وبالرجوع الى الخليفة ابي جعفر. وما جهلوا اي اضطراب ناهك تولى امير المؤمنين،وقد دهمته الصفرة ، واشتدت به الكمدة

ونودي ابو حميد المرووزي ، وهو من الفطانة على رُجحان ، ومن

الحنكة على متسع . فقال له المنصور يستجير بحكمته : اني لاستعيذ بدهائك . فكن ليناً حتى الميعة . وقاسياً حتى الشدخ . فاذا لاطف فجامل ، وصانع ، وداعب . واذا تجبر ، فجاهره بالقول الساحق ، الماحق . ابلغه اني لست من بني العباس ان لم انطلق في منازلته بنفسي . ولو اقتحم النار لاقتحمتها حتى اقتله ، او اموت . على ان لا تفضي بالتهديد الا وانت على يأس من عودته اليّ !

وتدفق الزبد من فم امير المؤمنين . واحمرّت عيناه . ان ابا مسلم لغول جائع ، وشر صادع . غير ان ابا جعفر ليس بالضعيف ، الرخو ، وله اضراس واظفار . ويا لهول الصدام ، وستتطاحن فيه ضياغم وقشاعم . وتفري فيه النصال الرقاب ، وتصهر الحفائظ صلب الاوصال

ان الدنيا لمقبلة على زلزال نسّاف !

١١

الاعلام تخفق بنفرة الحنق في طريقها الى خراسان. والارجل والحوافر تطأ الارض بحدة ونقمة . والصمت يلجم الافواه . فما تتكلم غير الموجدة الفائرة في الضمائر . وكلامها ، مع هديره الاصم ، وعته الآذان

وابو مسلم في خلصانه معقود الناصية . فما تتحرك شفتاه بنبسة ، وهو في سابح اطراق . آن اوان كشف الدخائل . دولة بني ساسان ستطل مرة اخرى على الوجود . وما لهؤلاء الاعراب غير البادية القاحلة يتمرغون في رملها ،ويتفيأون،في هجيرها،ظل الخيمة ، وسنام البعير

وبلغ حلوان . واذا بابي حميد المرووزي في اثره ، وهو فارسي مثله. فادهشه مرآه . واستوضحه مخاشناً : ألا ما ساقك الينا ، يا ابا حميد ؟ ... أتكون جاسوساً للقوم على بني أُمك ؟

فاستشهد ابو حميد بالله على صدق نيته ، وهتف : بل انا رسول امير المؤمنين اليك ، يا مولاي. فالخليفة المنصور اوفدني في وصل ما انقطع . واني لاحمد ربي على كوني ذلك الموكول اليه امر التوفيق بين قطبي الدائرة . وما في كوننا غير المنصور ، وعديله والي خراسان !

فنبر ابو مسلم ، يستهزىء بالرسول المقبل في المصالحة : ألم يجد سواك للمهمة ، يا ابا حميد ؟ ... ألا ارجع من حيث اتيت. فما لمثلي ان يبالي امر

جاحد هزيل . سوف يسمع من اخباري ما ترمد به عينه ، ويجمد قلبه . رفعته وصحبه الى مرتبة خيل اليهم انهم اربابها . وتجاهلوا اني صانعهم ، كما يصنع المثّـال الدمى . جبلتهم من تراب ، وخلقتهم بشراً ، والى التراب سيعودون. فارجع اليهم بانذاري،وليعلموا اني ادعوهم الى التأهب لمنازلتي، ونفسي لا تشتهي الغدر . فليقيموا على استعداد لليوم الفصل !

فارتمى بين يديه ابو حميد يلاينه بقولة لا تطيق دحضاً : ألا من دعانا الى اكرام هؤلاء القوم سواك ؟ ... انت من شدّنا الى طاعتهم و نصرتهم . اما ناديتنا، من متعدد الامصار، كي نقاتل اعداءهم ، ونشيد لهم ؟... ولقد فعلنا اجابة المتمسك . فما بك تميل بنا الى الانقلاب عليهم ؟ ... أفتريد ، وقد بلغنا المرتجى ، ان تفرّق كلمتنا ، مع انك قلت لنا:« من خالفكم فاقتلوه، وان خالفتكم فاقتلوني ! » ؟

فاقامه على شده ، حتى لم يكن ابو مسلم يطيق حرا كاً لفرط الذهول. ان مخاطبه لفارسي ، وما يفيض بسوى الواقع . فماذا عليه في الجواب ؟... أيصغي الى نداء المسالمة ؟

وانفتل ، بعد لأي ، الى ابي نصر يستشيره . وابو نصر لم يرتبـك في اعلان رأيه ، وما يزال على سوء ظنه بابي جعفر ، وليس يجهله . فاعلن وهو يهز برأسه: لا يهولنك منه ما يجنح اليه من تذكير. فلعمري، ما هذا كلامه. إمضِ لامرك ، ولا ترجع عما شمّرت له . فوالله ، لئن اتيته ، ليقتلنّك . ولقد وقع في نفسه منك شيء ، فما يأمنك ابداً !

فما اكتفى ابو مسلم بابي نصر يستجليه الرأي ، بل نهد الى امين سره « نيزك » ، الفارسي الخالص النسب،واستوضحه ما يجمل به في الملمّ الحرج.

فما امسك نيزك عن الجهر بما تلهمه الحصافة المتوهجة في لبه . وما كان يضيق بوجوه الصواب . قال : ما ارى ان تأتيه ، بل انزل مدينة الري . واهلها ، واهل خراسان من ورائها ، جندك . فما يعاندك احد منهم في شهوة تتقد بين جوانحك . فان استقام لك ابو جعفر ، استقمت له . وإن ابى ، كنت في جندك وقومك !

فشاقه الاجماع على الافتراق عن ابي جعفر . وارتد الى رسول الخليفة يهتف به : ألا عدْ الى صاحبك . فليس من رأيي ان آتيه !

وصاحت فيه العنجهية ، والتمع في باصرتيه العصيان . فاستفهم ابو حميد ، وقد عظم عليه الاخفاق : هل وطنت النفس على مناكدته ؟

— لم يبقَ من جامع بيني وبينه !

— ولكن ليس من كرم الطبع ان يدعو امير آل محمد الى تحطيم صنم نادى بعبادته . على ان المنصور ليس بالرجل الخامل ، ولا الكابي . ولقد هدد باصلائك النـــار اللهوم اذا انطلقت في المكابرة ، لا تهادن ، ولا تطرح عنك النفار . فان البوادي ، الفاصلة بينك وبينه ، ستمسي مدّباً لجنده في زحفه اليك !

فزاد في بلباله . ألا يخشى ابو جعفر مصادمة امير خراسان ؟ ... اذن فهو على استماتة . ورهب القائد الجبار صولة اليأس في منافسه . انها لتقود الى الغلبة . وحار في امره . أيصافح اليد المبسوطة له ، ام يتجاهلها ؟ ... أيشخص الى الكوفة اجابة لنداء ابي جعفر ، ام تمتد به القدم الى خراسان ؟

وابو جعفر ، ذو الدهاء الخطر ، خلق هذا الجو من البلبلة ليثير المخاوف في نفس ندّه الرهيب . فان للهواجس ، حين تأخذ مأخذها من النفوس ،

طمحات مقلقلة تذهب بالحلوم على مناعتها، وبالاعصاب على متانتها . فكتب الخليفة الى ابي داود، نائب ابي مسلم في ولاية خراسان، يعده بمنصب الولاية مدى الحياة ، إن هو قذف بامير آل محمد الى الكوفة . وابو داود ابلغ ابا مسلم ضرورة المسير الى الخليفة، المرتقب ظهوره بين يديه . قال في كتابه اليه : إنا لم نخلق لمعصية خلفاء الله وبيت نبيّه. فلا تخالفنّ إمامك ، ولا ترجعنّ الا باذنه !

والرسالة فعلت في نفس ابي مسلم فعلها الذريع . فانهار ، حيال هذه الدوامغ ، جبروته المستعلي ، وهان عناده . وساده الاطراق ، كالمغلوب على امره ، الاشلّ الجناح . فعالن رسول الخليفة بقوله : والله ، ليس في ضميري على ابي جعفر ضغينة . الا اني احاذر ما يستوحش مني . وساطلق اليه رسولي ابا اسحق كي يقف على دخلته ، ويعود اليّ بالنبإ الاكيد . فإن خيراً ، فانا لامير المؤمنين على طلاقة روح . والا ، فان لي من عضدي ما يمسك بمقامي . فما زال ابو مسلم ذلك الكميّ الحريز !

ورسوله ، ابو اسحق ، لقي في العباسيين يداً مصفقة ، وفماً مرحباً . فتناهوا في التجلة والاكرام . وخلا به المنصور يسلخه من صاحبه . قال : على مَ مظاهرة الجافي ، يا ابا اسحق ؟... انه ليستبق حينه . فدع عنك الوفاء له ، وخذ لنفسك امارة خراسان دونه . فما هو فيها بالنصير الامين . ولك من الاموال البدر الطفاح ، على ان تزجي اليّ هذا المجاهر بالعصيان . فأشتهي ان اراه في الكوفة ، لئلا يشيع روح التمرد في الولاة. فلا اخاطب منهم ذا طماح، في سعي ، حتى يتنمّر . اطلته اليّ واك الامارة بعده، ورضى امير المؤمنين !

وتمادى في نثر الوعود بلا حساب . ونجح في تفريق الكلمة . فما اضرم من مطامع ضرب على امير آل محمد سوراً من امتعاض . فالراغبون في المعالي غاظهم ان يقوم ابداً ابو مسلم حائلاً دون ما يصبون اليه من طفرة، فنزعوا الى الخلاص منه،بطرحه بين يدي المنصور ، كي يبعد عنهم خياله

ووقف في حضرته ابو اسحق يقول : ما رأيت القوم يبخسونك حقك، وهم يرون لك ما يرون لانفسهم . فاقبل عليهم ، وكن فيهم الخدن الصفيّ، وما يريدونك في سوى الاعزاء المغبوطين !

فامعن في ضعضعته ، حتى فترت فيه بقيا الممانعة . وصرخ نيزك وهو يسمع كلام ابي اسحق :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فصاح به ابو مسلم : ما بك ، يا نيزك ، ويحك ؟ ... أأعدل عن نزول حماه ؟

فابان امين سره : اما وقد وطدت النية على المسير اليه ، فافعل. ولكن ما ان تلقاه حتى تقتله ، والا قتلك . واحذر التردد . فاذا ما توانيت،ذهبت الونية بالهمة ، وامسيت مباح الناصية . اقتله على الفور ، وبايع من تشاء ، فتجد في طاعتك الناس جميعاً ، وما تزال سيد الميدان !

وفي هذا المضطرب من الوساوس، والمكايد،حبا ابو مسلم الى المنصور، تائه اللب ، ارمد العين . جميع خلصانه نهوه عن المسير الى ابي جعفر ، وفي نظيرتهم آمنة بنت علي ، الهائمة المثلى ، فما به يجازف ، ولا يقيم للاخلاص وجلال الرأي شأناً ؟ .... هل وثق بابي داود وابي اسحق دون الجميع ، وهما من يزجيانه الى الهلكة ؟

وما كان يرتجي اللقاء ، إلا أنه مكره فيه. وعهد في الجند الى ابي نصر ، مالك بن الهيثم . وعالنه بقوله فيما يرتحل : أقم حتى يأتيك كتابي . فاذا تناولته بنصف خاتم ، فانا كاتبه . وان ورد عليك بخاتم كامل ، فما هو مني!

ولم يكن المنصور في الكوفة ، بل في المدائن . فدرج اليها ابو مسلم في ثلاثة آلاف رجل . على ان الطمـأنينة نبت عنه . فانه ليشخص الى امير المؤمنين بقدم مرتعشة ، واهية الساق . ووقع في الطريق على خيـال اسود يلوّح له . وعرف انه ازاء امرأة ، وان هذه المرأة حبابة الحبشية ، جارية آمنة . أترحب به ، ام تقصيه عن مكمن التلف ؟ ... وصاح بمن حوله : افسحوا لهذه المحتجبة ببرقعها في الوصول اليّ !

أتحمل اليه حبابة النبأ الجلي ؟ ... واتسع للخيال الاسود الى امير آل محمد ، وقد تحدثت اساريره بلبكته . وما اخطأ ظن والي خراسان بهذا المغلّف بالدهمـة . ان هو الا حبابة بعينها . فصرخ صرخة الاستجـلاء المستغيث : ألا ماذا ، ايتها الحبشية ؟

فاسفرت وقالت بعتب ينوح : أما يدري مولاي الامير ؟ ... ليست المدائن قراره . فالعودة ابقى . هلا اصاخ الى النصح ؟

فامعنت في الاقلاق . حبابة من طينة نيزك وابي نصر ، فلا تجود بسوى الصحيح . وخطر له ان يعود . واني يدنو من الاتون المستعر فيحترق بوهج النار ؟ ... على ان رجال ابي جعفر كانوا بالمرصاد . فايقن انه ما يستطيع الرجوع ، وقد هوى في الشرك . وتأوه واستفهم : أأوفدتك سيدتك اليّ ؟

— نعم. هي. ووثبت الى المدائن لتحذيرك من الغائلة . فما بك لا تفتح لنداء الخير اذنيك ؟

فتأوه . واحس بان قضي عليه . ولكن أيغدر ابو جعفر بمساعده القوي؟...وما شاء ان يؤمن بهذا الغدر .ولكن المخاوف لزمته. ولمس طغيان الاحبولة عليه . بات اسيراً . الا انه سيقاوم ويقطع خطوط الشبكة . وتابع خطوه ، وحبابة تهتف به : إرجع ، إرجع . اين بليغ حنكتك ؟... هل ضرب النكد على باصرتيك غشاوة ؟

على ان رجاله ، بل رجال ابي جعفر المندسين في صفوفه ، سدوا بين الجارية والامير المتهادي الى تعسه . وتكاثروا يطوّقون موكبه حتى كاد يغيب

واضطربت حنجرته ، ودهمه سهو طويل . خدعه ابو جعفر خدعة قنصه بها ، واضحى لا يعرف كيف يتقي هولها . وما كان ليصدق ما يعالنه به رجال الطاغية من دعوات كواذب الى الاطمئنان

ونزل المدائن وفي رأسه صداع . فهو لا يسمع، ولا يرى ، وقد ضاع عن نفسه. واقبل جيش لجب لتحيته . وانحنى بين يديه الامراء والقادة . واهتزت الاعلام السود استبشاراً . غير ان هذا الترحيب الباذخ لقي فيه الفتور . فهو يعانق اصدقاءه ، وفي مقدمتهم عيسى بن موسى ، ابن اخي المنصور ، ويصافح اخوانه ، بتكلف وسهوم . وما كان ليحس بالامان مخلوعاً عليه ، وقد شخص له ان تحت كل خطوة من خطواته مهواة تهمّ بابتلاعه

وجالت باصرتاه في الكتائب المزدحمة في الساحات . وايقن ان المنية تبسط عليه جناحيها العريضين ، الطامسين

ومع قصيّ جهده ، في دفع الهواجس عن خاطره ، لم يتفق له ان ينجو

من قسوة الشكوك العابثة بلبه . وابى الا ان يبتسم تظاهراً برباطة الجأش . فليس له ان يهون ازاء الموت، وهو الدافع الى الموت الالوف تلو الالوف. على ان ابتسامته تجلت في وجهه صفراء ، تعبة ، تدل على رهبة جنانه

وصبا الى المباسطة . غير انه لا يكاد يؤانس ، ويداعب ، حتى ينتفض عفواً ، كأن الشفار تجاول صدره . ووقف موكبه بباب قصر الخليفة ، فترجل ، ودخل الصرح يسلم على المنصور سلام الخاشع الطائع . وانحنى على اليد الممتدة اليه يقبلها ، وما اشتهى الا ان يحطمها . فسدد اليه ابو جعفر نظرة المؤمن بالغلبة، المستريح . وهتف له ، وقد احس به في قبضته ، يكاد يختنق: ألا مرحباً بالامير الخطير، حامي الحمى ، وساحق كل جبّير. أطلت علينا الغيبة ، وفي النفس اليك حنين. فما بك تجلو عنا فيما نهرع اليك؟... هل طويت المودات ، كأنها لديك خِرَقٌ بالية ؟... معاذ الله ان تفعل، وانت الوفيّ الامين !

فاعلن ابو مسلم بابتسامة شابها استرخاء من خنوع: ليس لي ان اتحوّل عن صادق الولاء ، لمن احيوا في نفسي عزوم الوكد ، يا امير المؤمنين . فلو لم انزل ربعكم ، واطبع على خلقكم ، لقصّرت عن بلوغ ما استوي فيه من منزلة . فانتم اصحاب الاريحية . وما كان ابو مسلم الا الضارب بسيفكم ، فطأطأت له الرؤوس !

فردّ له ابو جعفر ابتسامته . غير ان الشك صاح فيها . ووقف القطبان بعضهما من بعض وقفة الملاينة ، على انها مبطنة بفائر الكره . فما كانت كلمات المجاملة تخرج من شفاههما الا مشدودة بكلاّبة ، كأنها تعاند في الظهور. ولو انفجرت الجوانح ، عن مطاويها ، لوضح النفار بانياب واضراس ،

ولظهر الكيد متطاير الحمم . فما في القلبين غير حقد يجيش ، ورغبة في النسف تتضرّم ، وميل الى الاثرة يتواثب ، وقد ضاقت به الآفاق

ومضى ابو جعفر يحتفي بزائره، وفي نظراته وميض من تهكم ، وفي كلماته زهو . غير انه لم يبخس ابا مسلم حقه . فعالنه اعجابه ببعيد شأوه ، وبمنيع عضده . فما لمعركة يخوضها ان يلين فيها ، كأن النصر ظله

ودعاه الى العودة اليه في غد ، معلناً : اكرامك فرض علينا ، وانت امير دوحتنا . وسنقوم ببعض ما لك عندنا من يد، وقد كنت لذمتنا حافظاً، وعن حقنا منافحاً . فما ناديناك الا لنجاهد في بعض الوفاء !

فابان ابو مسلم بوقار وشكران : والله، ما اقدمت على سوى ما يحملني عليه اخلاصي لمن شببت في فيئهم ، وتمرغت في عتبتهم. واني، حيثا كون، لمن انصار هذا السؤدد الباسق ، والمجد الركين !

ــ وهل ننسى ما يحتدم فيك من تفوّق ، يا ابا مسلم ؟

ــ عفواً ، يا امير المؤمنين ، اني لغصن رطيب في سرحتكم. فاستقي من مائكم ، واقتات بزادكم . وليس لمن يمسي فيكم الا ان يصلب عوده، ويشتد بأسه . واي فضل له ، وقد رضع البطولة في مضاربكم ، اذا رهفت شفرته في النزال ؟

فانتشرت في ابي مسلم ابتسامة يخامرها ابداً الشك في ما تعي أُذنه . وقال مداهناً : سلمت ، يا ابا مسلم . اني لمن عارفي عظيم خطرك . فانزل بيننا على الرحب . انت بامان !

ولكن ابا مسلم ظل غير واثق بهذا الامان. وليس يرى فيه غير خدعة للقنص ، وابو جعفر من اربابها . فيكاد يساويه في ختل الناس عن انفسهم ،

وفي معاهدتهم على غير ما يبيّت لهم من نيات . فالاثنان يطلقان الالفاظ على التباس ، وما تدل على ما يريدان لها من اهداف

وبرح امير آل محمد قصر الخليفة وهو لا يزال من امره على حيرة . أيكتب له البقاء ، ام قضي عليه ؟ ... فالغشاوة الصفيقة ، المضروبة على بصيرته ، ظلت لا تنجلي

وما كان الهتاف والتحية ، المتعاليان في طريقه الى قراره ، ليزيحا عن صدره العبء الكابس. فان ضميره المكدود ليقصيه عن كل مظهر من مظاهر الايناس والاكبار . أما كان عليه ان يركن الى ابي نصر ونيزك، الصفيّين الحميمين ، في نصحهما له بالجنوح عن ابي جعفر ؟

وزادت في مخاوفه المفاجأة العارضة له في ليله . أحلم أم حقيقة ؟ . . . أآمنة وحبابة ، ام خيالهما ؟ ... ولكنهما بلحمهما ودمهما . فانسابتا اليه كالاطياف تمعنان في ترويعه . فصاح ، وقد هاله مرآهما في الثياب السود ، كأنهما رسولان من رسل الموت : أأنتما ؟ ... ما كنت ارقب ان تظهرا لعيني ، وانا في خلوة ممضة بنفسي !

فصرخت به آمنة باحتدام : هل اضعت هداك ؟ . . . ما جاء بك الى كبد اللهيب ؟ ... أتكتب على نفسك الموت ؟... ماذا اعتراك وقد عرفتك لا تثق بابي جعفر ؟ ... ارحل الساعة . الساعة . والا فات الاوان . هذه ثيابي ، فاخلعها عليك ، وانطلق الى خراسان في زي امرأة . ولا تكشف عن وجهك القناع الا وقد امسيت هناك !

فرنا اليها باجلال . انها لنفحة كريمة من نفحات الاخلاص . وقال بصوت كئيب : كنت على حمق وقد آمنت بسلامة الطوية . ولكن ما بدر

مني لا حيلة في تقويم أوده . فان يكن الموت يرصدني، فلن احتجب عنه . امـــا ان اسعى للفرار ، وبثوب امرأة ، فهو الجبن في منتهاه . أتجهلين ابا مسلم ، يا آمنة ؟ ... متى كان له ان ينهزم في مصادمة المنايا ؟ ... عدا ان ابا جعفر ، ابن اخيك ، لم يجبهني بوعيده ، وقد خلع عليّ الامان !

فزعقت : وهل استأنست بمصانعته ؟ . . . انه ليتقلب في سياسته عـلى وجهين . فيجيز ما يمنع ، ويمنـع ما يجيز ، وهو عبد مصلحته . فاركب جناح الهرب ، وارشقه بنيرانها اللواذع لدن تمسي طليقاً من سلطانه . اني لادعوك الى الفرار ، بلا ابطاء !

ونزعت منها جلبابها ترميه به . فاستنكف عن الاسفاف. وابان بخيلاء : أتريدين لي هذا الهوان ؟ ... ألا ماذا يقال في ابي مسلم اذا قبض عليـه رجال الخليفة متوارياً في ثياب امرأة ؟... لا ، دعيني منه وجهاً لوجه . فاذا وفى ، فاني لمقابل صنيعه بالاكبار . واذا غدر ، نقشت الاجيال اسمه في لوح الخزي والعار !

واعاد اليها جلبابها صائحاً : ارتديه . فما كنت في زمني ممن يتحرّزون من لقاء !

فهتفت بهلع : ولكنه قاتلك غداً . قمْ وانصرف عن ارض تنبو بك . أتبقى فيها لفتكات النصال ؟

فهاله ان يموت . بيد انه عاد فاستمسك بانفته ، وقال : انا حيث ألقت بي قدمي . ولابي جعفر ان يهزّ حسامه ويستأصلني، ولن تحمده الاحقاب !

فامسكت به ترفعه عن مقعده، وتدفعه بجميع قواها الى الباب . فعاند في الجلاء . سيموت عزيزاً ان يكن لا بد من موت . فضربت آمنة رأسها

بالجدار وانتحبت . أيتنمّر على الموت من تزحف اليه المنون ؟ ... ولكن ابا مسلم من لحم ودم . وليس للحم والدم بقاء . قالت وهي تميع لوعة : اني لابخل بك على الاضمحلال . أفما تدري اي صلة تشبكني بك ؟ ... انت لا تتلاشى وحدك ، إن يبطش بك ابو جعفر ، بل تجرّ حشاشتي في اثرك . أما ترفق بكبد موقوفة عليك ؟

فاطرق . أليس من الذل ان ينجو بنفسه في الصراع ؟ . . . ما يخفى عليه انه كليل عن المناوأة . بيد انه ما كان في امسه جباناً ، كي يظهر في الموقف الفصل بمظهر المتداعي الهمة . ثم ان ابا جعفر عاهده على المسالمة ، فهل يخون عهده ، ولا يتهيّب البطش برأس قادته ؟ ... ألا من للجلّى اذا غاب ابو مسلم عن الميدان ؟

ولم يشأ ان يصدق ان ابا جعفر يقتله . وابعد عنه آمنة يدعوها الى الثقة بحسن طالعه . قالت : ولكن للنجم افولاً . أما تخشى على سعدك من العثار ؟

فنبر متأففاً من التشاؤم المستحكم منها : اني لمؤمن بنجمي . فلن يخبو فيه الاشراق !

فاخذت ترقص من الالم وهي تولول . فاضطر ابو مسلم الى سلخها منه ، معلناً بشدة : لن يقتلني غداً ان يكن يعتزم الفتك بي . فابيحي لي المثول بين يديه مرة اخرى ، كي تتضح لي سريرته ، فاعاجله بما ينجع فيه من عقاقير !

فسكنت فائرتها . لا بأس ان يلقاه غداً . على ان يرحل حثيثاً ان تكن النواجذ في تكشير . ونام ابو مسلم ، ولكن على نواتىء رهاف . فالمزعجات وثبت عليه ، في رقدته ، تخلع نياطه . فما كان يبصر نفسه في

سوى بحيرة من دم ، وعلى كتفيه هضاب من جماجم ، كأن جميع ضحاياه تألبت عليه للاخذ بالثأر

وتعالى انينه يدل على جسيم العياء . ونهض وقد جفاه النوم ، وتباطأ الصبح في البزوغ . وما لاح له الفجر حتى مال على ثيابه فارتداها ، كأنه لا يطيق البقاء في مباذله ، وهو في كفاح . انه لفي صراع مع ابي جعفر ، ومع نفسه ، وما تنفك تندد بـه لاستسلامـه الارعن الى الحقود الضاري . أيكون على بله ، فتجذبه كلمة اغراء ؟

الا ان الشر وقع . وبات من الحكمة اتقاؤه بدهاء تطفو عليه السلاسة ، ويتذرع بالاحتراس . ولكن هل يغدر بـه ابو جعفر ؟ ... ما فتىء ابو مسلم يرتاب باقدام الخليفة على الغدر . فلن يحطم امير المؤمنين أمضى شفرة في يمينه ، وقد صانته من شر نكبة

وابو جعفر تقلب في ليله على لاذع الجمر . أيقتل ابا مسلم ، ويخسر به جيشاً عرمرماً ، ووالي خراسان بمقام جيش دَهم ؟... على ان الخوف منه اهاب بامير المؤمنين الى محوه . فما دام حياً ، فالخطر يتهدد الخليفة الخشيان. واذا قضى ، فلن تعدم الدولة نظيره . وان عزّ النظير ، فلا بأس على العباسيين ، وقد سادوا ، ان يتولوا الامر بلا شريك

ودعا على الفور عثمان بن نهيك ، واربعة من رجال الحرس ، يخاطبهم بقوله : أعددت الضحية للنحر . ابو مسلم بات من المحكوم عليهم بالموت . فخذوا من هذا الايوان اماكنكم ، واختبئوا فيها . فما ان يبدو ، وأُصفق ، حتى تهجموا عليه ، وانتم في حلّ من دمه !

وامر حاجبه بتجريد ابي مسلم من حسامه ، لدن يقف بالباب ، مستأذناً.

وجلس يتأهب للحسم . فالنهزة موفورة ، وعليه بانتهازها . والا عانى، من دلال والي خراسان، ما لا يسلم له فيه جأش

ووفد ابو مسلم على القصر ، وضميره ما يبرح على استخذاء. أيهلك ، ام ينجو ؟ ... وارتجفت ركبتاه على رغمه . فوبخ همته على التوائها ، وشدد عزمـــه .فليس لمثله ان يجبن في الشدة ، وقد ركب مركبها . على انه، ما أصبح بالباب، حتى طلب اليه الحاجب ان يخلع عنه سيفه. فصاح به في قسوة: ويحك ، هل يعلم بما تتفوّه امير المؤمنين ؟

فاعلن الحاجب بجفاف : ليس من الكياسة الدخول على امير المؤمنين وانت تتقلد سيفك !

فتجلى له مستهل الحملة الماحقة . هذه طليعة الكيد . ووثب الى ايوان الخليفة شاكياً ، ناقماً : أتنزل بي الاهانة في بابك ، يا امير المؤمنين ؟

فهتف ابو جعفر يبدي اللهفة : ألا ما دهى الامير ؟ ... هل من تجرأ على المقام الرفيع ؟ ... اني لمحطم من يخطر له ان يرشق مفخرة هذه الدولة بنظرة قاتمة !

ــ ولكن حاجبك جرّدني من سيفي !

ــ وهل فعل النذل ؟ ... ألا عفوك عن القحة الصارخـــة فيه . قد يكون جهل منزلتك منا . لأؤدبنّه . على ان خنجرك ما يزال مشكوكاً في وسطك . ألا أرِنيه. أما يكون احد نصلين اصبتهما مع عبدالله بن علي، عمي ؟

ــ بلى ، يا امير المؤمنين !

وعرض عليه الخنجر. فاخفاه ابو جعفر تحت وسادته، وهدر وقد تبدلت

لهجته : أتغضب لكون حاجبي جرّدك من سيفك ، ايها الامير ، وانت من سعى لتجريدنا من سلطاننا ؟

وفشا فيه الغضب . فالمؤانس بات خشنا فظا ، يتشامخ في غلواء من موجدة وضغن . فصاح ابو مسلم ينكر على نفسه السعي لحجب السؤدد عن القابضين على الزمام : أيجترح الاثم الشائن من بنى لكم وطيد الملك،يا امير المؤمنين ؟

فزأر ابو جعفر : أما تزال تمتنّ علينا بكونك بنيت لنا ، ونحن خالقوك ؟ ... ألا احتشم . فحتى م َ يندلع منك هذا البطر الغليظ ؟ . . . ما عرفتك غير مثخن في التباهي بالفضل. الا أين هو فضلك علينا ؟... أفي كتابك الى ابي العباس ، اخي ، تتيه عن الاموات ، وقد طاب لمثلك ان يعلمنا الدين ؟

ورشقه بنظرة جائحة ، ارتعد لها نياط ابي مسلم ، وقال يوضح نيته : ظننت ان اخذه لا يحلّ . فلما اتاني كتاب ابي العباس ، علمت ان بيتكم معدن العلم !

فهزّ ابو جعفر برأسه يزدري الايضاح ، ونفر الى عدّ الذنوب ، وما يرمي الى سوى اظهار ابي مسلم بمظهر المجرم ، المكتوب عليه القتل ، فنبر : أتكون ذلك البريء اليد من السعي لطمسنا ، وما زلت تتقدمني في المواقف ، وكان لك من الجهد في سبقي ، في طريق الحج ، ما دللت به على رعونة وصلف ؟

فاعلن ابو مسلم ينكر الميل الى الامتهان : ألا رفق امير المؤمنين بمن لا يبطن له الا الخير . وهل كان لنا ان نجتمع على الماء في طريقنا الى مكة ،

ومن معنا على عطش ، فيؤذيهم الزحام ؟

ــ لا تجبهني بواهي العذر ، بل كن جريئاً في البيــان . هل رفقت بالناس لما جاءك نعي ابي العباس ، فكرهت ان تبــايعني ، وامعنت في الرحيل، لئلا ادنو منك ، فتسلم عليّ بالخلافة ؟

فارتجف امير آل محمد ، الا انه اجاب : نعم ، يا امير المؤمنين . ولقد شخصت الى الكوفة ارقبك فيها . والمكان يتسع المبايعة والتبريك !

ــ واسراعك في الانطلاق الى خراسان لا تلبي ندائي ؟

ــ خشيت ان اقف بين يديك وانت في غليان حدتك . فقلت ابلــغ خراسان واكتب اليك منها بعذري. فيذهب ما في نفسك من حفيظة عليّ !

ــ واين ما جمعت في خراسان من اموال ؟

ــ انفقته على الجند تقوية لهم واستصلاحاً !

فضحك ابو جعفر ضحكة الارتياب ، واستوضح بساخر العنف :أما كتبت اليّ تبدأ بنفسك ، وهزأت برسائلي اليك ، وصبوت الى عمتي آمنة ، وزعمت انك ابن سليط بن عبدالله بن عباس ؟ ... والله ، لقــد جاش في صدرك من المطامع ما لو انتشر لحجب نور الشمس عن العباد ، كأنك ترغب في ان تسدّ مسدنا ، لا أُم لك !

واجــال فيه عينين رهيفتين يصيح فيهما الشره الى الافتراس ، مدمدماً عليه :ألا كيف استجزت لنفسك القضــاء على سليمان بن كثير في حضرتي ، وهو صاحب الاثر البليغ في دعوتنا ، واحد فتياننــــا قبل ان يلوح الك في الامر وجه ؟

فابان ببعض لعثمة : ما اراد سليمان الا الخلاف بيننا . فلم اطق مــــا

يطوي عليه جوانحه من فساد ، فأوديت به . وابرهيم الامـام ، اخوك ، رضي الله عنه ، اباح لي دم كل منافق !

ـ أتجد لكل خطاب جواباً ؟

ـ والله ، ما قمت بسوى ما املى عليّ الحق ، يا امير المؤمنين . وليس مثلي بمن يقف كي يدان بعد عظيم بلائي !

فانتفض ابو جعفر ، كأن به رعدة ، وزعق : أما تنفك تتدلل ، يا ابن الفاعلة ؟ ... اما والله ، لو نفحنا بجاهنا أمة ، لافلحت حيث يفاخر مثلك بالنجح . فانما عملت في دولتنا ، وبريحنا . ولو كان الامر اليك ، لما قطعت فتيلًا !

فايقن ابو مسلم ان ساعته حـانت . واكبّ على يد ابي جعفر يقبلها باسترحام . فجلجل الخليفة : والله ، ما زدتني الا غضباً !

فوضح لوالي خراسان ان الاسترخاء لا يقيه التلف . فاتقدت فيه أنفته يزدري الموت ، ونبر : لا يخيل اليك اني اخافك. فما اخـاف غير الله . واذا لاح لك مني اللين ،فاني لاكرم فيك مقامك ، وانت فينا الامام!

فصفق ابو جعفر بيديه . فوثب حراسه المختبئون في الايوان . فصرخ بهم وهو يشير الى ابي مسلم : اقتلوه . ما كان الا محتالا شائناً !

فومضت النصال ، كالشهب ،فيما تتطاير من الاغماد. ولمس ابو مسلم ،بيديه، المنية اللهوم . فهتف يستغيث من المنصور ، بالمنصور : استبقني لعدوك ، يا امير المؤمنين !

فصاح ابو جعفر بسخط شحّاط : لا أبقاني الله اذا أبقيتك. وهل من عدو اعدى لي منك؟

وتخطّفته السيوف شلواً شلواً ، حتى لم يبق منه غير نثير من لحم ودم. وكأن الراحة غمرت ابا جعفر،وهو ينجو من الباتر الحاسم،المتوعد الطعان. فانشد شامتاً ، متشفياً ، وليس اقسى على النّد من الندّ:

زعمتَ ان الديَن لا ينقضي فاستوفِ بالكيل ، ابا مجرمِ .
سُقيتَ كأساً كنت تسقي بها أمرّ في الحلق من العلقمِ

وارتفعت في فناء القصر ولولة مادت لها المدائن. آمنة بنت علي تشقّ الجيوب على الاليف الندب ، المتناثر قطرات من نجيع . كأنه لم يكن ، مع عظيم خطره ، غير قبضة قلقة من مذرور الهباء

*

ألا عفو مالئة الديار بنحيبها . ان الآذان لعلى صمم . ولو سلست ، لاصاخ ابو مسلم الى الرأي الحليم ، الرشيد ، فيما تنساب اليه آمنة وجاريتها ، وتخرقان نطاق الحرس ، بما لابنة علي من دالة الحظوة ، وشهرة الكلف بالحبيب الصؤول ، وتهيبان به الى التنائي على عجل . فالرفاء ، في الجلاء . بيد ان الزمن ، المفطور على غاشم الدلال ، لم يسعف على المتعة . وصراع الجبابرة كافر الحصاد !

تمت

بيروت في سنة ١٩٥٢

توفرت مطابع « الف ليلة وليلة »
على اخراج هذا الكتاب في ألفي نسخة
بيروت في سنة ١٩٥٤

دار منشورات الجبل الاخضر: مطابع الف ليلة وليلة ☆ حي التينة ☆ بيروت

صدر منها :

دمعة يزيد

ابو جعفر المنصور

قريباً :

المصدور

منشورات الجيل الأخضر

سلسلة قصص بقلم: كرم ملحم كرم

ستظهر تباعا

..

- دمعة يزيد
طبعة ثانية
- المصدور (طبعة ثانية)
- لبنى ذات الطيوب
- أميرة على الأمير
- ابو جعفر المنصور
- يقظة الرماد
- المجنون
- كليوباطرة
- ميساليننا
- لقيط الظلام
- يسري شمعون
- صرخة الألم (طبعة ثالثة)

وستظهر بعدها ١٢ قصة جديدة

للمؤلف نفسه

منها : التاعسات - المساكين - الجياع المشردون

X3
12

Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

New York
University

NYU - BOBST
31142 03292 6597
DS238.M35 K362 1954 Abu Ja´¿far al-Man´¿